جولة في كتاب مصطفى محمود:
"القرآن – محاولة لفهم عصرى"

رقم الإيداع: ٤٣٨٣/ ٢٠١٩م
الترقيم الدولى: 978/977

جولة في كتاب مصطفى محمود:
"القرآن – محاولة لفهم عصرى"

د. إبراهيم عوض

مكتبة الشيخ أحمد
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

توطئة

فى مستهلّ العقد الثامن من القرن الفائت صدر للدكتور مصطفى محمود رحمه الله كتاب بعنوان "القرآن- محاولة لفهم عصرى" قرأناه ساعة صدوره وتفاعلنا معه وسررنا به، إذ بدا أنه طريقة فى تناول القرآن وتقديمه للقراء تناسب العصر ومستجداته العلمية، وبخاصة أنه مكتوب بأسلوب بسيط منطلق يخلو من التقعر والتوقر. وقد لفت نظرنا بالذات الفصل الأول فيه حيث تحدث المؤلف عن العالم البريطانى تشارلز داروين ورحلته العلمية على ظهر السفينة أبيجيل حول العالم حيث شاهد خلالها كثيرا من النباتات والحيوانات والطيور وجمع كثيرا من العينات والحفريات التى عكف بعد عودته لبلاده على دراستها واستخلاص نظريته الخاصة بالنشوء والارتقاء منها. وهو كلام شدنا كثيرا، إذ كان دليلا على أننا بإزاء شيء جديد فى فهم القرآن وتقديمه للناس.

ثم صدر للدكتورة عائشة عبد الرحمن المشهورة بـ"بنت الشاطئ" كتاب ترد فيه على مصطفى محمود وتبين ما رأته أخطاء فظيعة وقع فيها. وأغلب الظن أن تعاطفنا كان معه لا معها. ثم مرت الأعوام والعقود وتراجع هذا كله إلى ركن النسيان، إلى أن أُسْنِدت إلىَّ فى هذا الفصل الدراسى المحاضَرة فى مذاهب التفسير القرآنى، فوجدتها فرصة لبعث كتابى مصطفى محمود وبنت الشاطئ من زاوية النسيان، ومعهما كتاب محمود محمد طه الكاتب السودانى، الذى أصدر هو أيضا ردا على مصطفى محمود لقيته على المشباك وأنا أتجهز للقراءة والكتابة فى هذا الموضوع. وكانت النتيجة تأليف الكتاب الذى فى يد القراء الكرام الآن، والذى وضعت فيه كل ما قاله الثلاثة تحت المجهر وأبديت رأيى فيما كتبه كل منهم، موافقا ما أعتقد أنه الحق ومخالفا ما أرى أنه باطل: مخطِّئا مرة ومستدركا مرة، ومصححا مرة، ومضيفا مرة،

وراضيا مرة. . . وهكذا . والآن أترك القراء مع ما كتبته راجيا أن أكون قد قلت شيئًا نافعا، وكلى طمع فى ثواب الله سبحانه. والله يهدى إلى سواء الصراط.

مصطفى محمود وكتابه

جاء، فى موسوعة "ويكيبيديا" فى المادة المخصصة للدكتور مصطفى محمود (١٩٢١-٢٠٠٩م)، أنه درس الطب وتخرج عام ١٩٥٣م وتخصص فى الأمراض الصدرية، ولكنه تفرغ للكتابة والبحث عام ١٩٦٠م. وقد تزوج مرتين وانتهى الزواج فى كلتا المرتين بالطلاق. وألف عشرات الكتب الأدبية والعلمية والدينية والفلسفية والاجتماعية والسياسية، وقدم ٤٠٠ حلقة من برنامجه التلفزيونى الشهير: "العلم والإيمان"، وأنشأ عام ١٩٧٩ المسجد المعروف بـ"مسجد مصطفى محمود" فى حى المهندسين بالقاهرة، ويضم ثلاثة مراكز طبية تهتم بعلاج ذوى الدخل المحدود، وأربعة مراصد فلكية، ومتحفاً للجيولوجيا. وعلى سبيل التكريم سُمِّيَ أحدُ الكواكب باسمه.

وكان التيار المادى فى ستينات القرن الماضى منتشرا فى مصر، ولم يكن مصطفى محمود بعيدا عن ذلك التيار. يقول رحمه الله: "احتاج الأمر إلى ثلاثين سنة من الغرق فى الكتب، وآلاف الليالى من الخلوة والتأمل مع النفس وتقليب الفكر على كل وجه لأقطع الطرق الشائكة من الله والإنسان إلى لغز الحياة والموت إلى ما أكتب اليوم على درب اليقين".

وقد قرأ وقتذاك عن البوذية والبرهمية والزرداشتية ومارس تصوف الهندوس القائم على وحدة الوجود، وعاش فترة شك طويلة أنهاها بإصدار كتبه التالية: "حوار مع صديقى الملحد"، و"رحلتى من الشك إلى الإيمان"، و"التوراة"، و"لغز الموت"، و"لغز الحياة" وغيرها من الكتب التى تلقى الضوء على هذه المنطقة الشائكة.

وتعرض الدكتور مصطفى محمود لأزمات فكرية متعددة أولها عندما قدم للمحاكمة فى عهد عبد الناصر بسبب كتابه: "الله والإنسان". وكان صديقاً شخصيًّا للرئيس السادات

وحزن على مصرعه حزنا شديدا قائلا: كيف لمسلمين أن يقتلوا رجلا رَدَّ مظالِمَ كثيرةً وأتى بالنصر وساعد الجماعات الإسلامية؟ وعندما عرض السادات الوزارة عليه كان جوابه: "أنا فشلت فى إدارة أصغر مؤسسة، وهى الأسرة، فأنا مطلّق، فكيف بى أدير وزارة كاملة؟". وهناك أيضا أزمة كتاب "الشفاعة"، شفاعة رسول الله عليه السلام لإخراج عصاة المسلمين من النار وإدخالهم الجنة، إذ كان رحمه الله يرى أن الشفاعة بمفهومها الشائع هى لون من الوساطة تدفع الناس إلى الاتكال على تدخل النبى وإهمال العمل، وتعنى تغيير حكم الله فى هؤلاء المذنبين مع أن الله سبحانه أرحم بعبيده وأعلم بما يستحقونه. وصدر ١٤ كتابًا للرد عليه. وقد اعتزل الدكتور بعدها الكتابة إلا قليلا وانقطع عن الناس، ثم أصابته جلطة، وانتقل إلى جوار ربه فى ٣١/ ١٠/ ٢٠٠٩م.

وكان قد صدر يوم الاثنين ٧/ ٧/ ٢٠٠٨م عدد خاص من "الجزيرة الثقافية" السعودية عن مصطفى محمود، وضم كتابات لثلاثين مثقفًا عربيًا منهم د. غازى القصيبي، د. زغلول النجار، د. إبراهيم عوض، د. سيار الجميل وغيرهم من الأدباء والمفكرين والأكاديميين. وقد ترك الرجل وراءه ما يقرب من ١٠٠ كتاب فى السياسة والدين والأدب والفلسفة والرحلات والرواية والمسرح.

وهذا مقال إبراهيم عوض فى عدد "الجزيرة الثقافية" المذكور، وعنوانه "شىء من الدفء والحميمية فى الكتابة عن الدكتور مصطفى محمود": "حين اتصل بى الأستاذ فيصل أكرم للمشاركة بكلمة فى هذا الملف الخاص بالدكتور مصطفى محمود، شفاه الله وأطال عمره وأسعده وهنّاه، لم أستطع أن أمنع نفسى من الحزن بسبب طبيعتنا غير المتحضرة القائمة على إهمال العلماء والمفكرين وكل من ينفعنا من كبار الرجال، وإن كنت لا أبالى أن يحدث هذا لى عندما يحين دورى، ولسوف يحدث بكل يقين، مع فرق هام هو أننى لم أكن فى يوم من الأيام

مشهورًا شهرة الدكتور مصطفى محمود . إلا أننى قد دعوت الله منذ وقت بعيد أن يصرف عنى الرغبة فى الشهرة أو انتظار المكافأة على ما أفعل من أحد من البشر، وهو دعاء أحس أن الله تعالى جَدُّه قد استجابه لي. وهذه منة عظيمة لولا هى لكانت حياة الإنسان مرة مرارة لا تطاق. فالحمد لله. إلا أن لموقفى من حالة الدكتور مصطفى محمود وضعًا آخر.

ولقد فكرت فى طبيعة الكلمة التى أُسْهِم بها فى الملف المذكور، واحترت لمدة يومين، وأنا لا أدرى ماذا أصنع. . . إلى أن انفرجت الحيرة بُعَيْد مغرب الجمعة الثامن من جمادى الآخرة لعام ١٤٢٩هـ الموافق للثانى عشر من يونيه من عام ٢٠٠٨م، إذ برقت خاطرة فى ذهنى وأنا أتوضأ للصلاة مؤداها أن أنظر فى بعض أحداث حياة كاتبنا اللافتة للنظر ثم أحاول استلهام الدروس منها، فوجدت نفسى بعد الانتهاء من الفريضة أتجه إلى الكاتوب وأجلس إليه وأبدأ الرقن، فكانت تلك الكلمة التى انتهيت منها فى شوط واحد تقريبًا لم أقطعه إلا لأداء بعض الأمور البسيطة.

والآن إلى بعض ما شدنى فى حياة الدكتور مصطفى محمود: لقد لفتنى بقوة فى حياة الرجل ذلك التبرع الذى قدمه له أحد رجال الأعمال فى صورة "صَكّ على بَيَاض" كما يقولون كى ينفق منه على إعداد حلقات برنامجه الشهير: "العلم والإيمان". وكان التلفاز المصرى قد قرر لكل حلقة مبلغ ثلاثين جنيهًا لا غير، فى الوقت الذى تتكلف فيه الحلقة أضعاف أضعاف ذلك المبلغ، مما وقف الدكتور مصطفى أمامه حائرًا يائسًا لا يدرى ماذا يصنع، فجاءت مبادرة رجل الأعمال الشهم الكريم لتنقذ الموقف.

والحق أن ذلك الشخص الذى تحمل كل تلك النفقات الطائلة هو عندى أفضل ممن يبنى مسجدًا مثلا، إذ إننا لا نشكو، والحمد لله، من قلة المساجد فى بلادنا، بل من انتشار الجهل وعدم اهتمام الأغنياء بنشر الثقافة والعمل على إيصالها لمن يحتاجها ولا يستطيع القيام

بنفقاتها . وأنا أنتهز هذه الفرصة وأدعو أغنياء العرب والمسلمين إلى تبنى هذا المشروع، مشروع نشر الثقافة بين جماهير المسلمين المغَيَّبة العقل، تاركًا لهم الاستعانة بالمختصين كى يرسموا لهم الطرق الموصلة إلى هذا الهدف، وإن كان من الممكن أن أشير هنا إلى ما أكرره دائمًا من أن معظم أغنيائنا للأسف (وكذلك الحال مع الفقراء وأوساط الناس أيضًا حتى لا يغضب أحد) لا يفكرون أبدًا فى شراء كتاب ولا فى قراءته.

ورأيى أنهم إذا كانوا لا يقرأون ولا يريدون أن يقرأوا، وهذا بلا أدنى ريب عيب، وعيب قبيح، فلا ينبغى لهم أبدًا أن يضيفوا إلى هذا العيب القبيح عيبًا آخر، وهو عدم تشجيع من يريد القراءة ولكنه يعجز عن تدبير المال اللازم لها، وكذلك عدم تشجيع المؤلفين، الذين يستطيعون أن يكتبوا ويبدعوا ويخدموا أمتهم ودينهم وشعوبهم، إلا أنهم تنقصهم نفقات طبع الكتب التى يؤلفونها فيتوقفون يائسين مكروبين، على حين يستطيع الأغنياء أن يتقربوا إلى الله بشراء مثل هذه الكتب وإهدائها حسبةً إلى القارئين غير القادرين فينفعوا بذلك الطرفين: المؤلفين والقارئين على السواء، ويكسبوا بذلك أجرين لا أجرًا واحدًا، والله يضاعف لمن يشاء .

وأنا من هذا المنبر أرفع يدى إلى السماء وأبتهل إلى الله أن يكرم ذلك الغنى الذى قدم الصك المفتوح إلى الدكتور مصطفى وقال له: "أنفق على حلقاتك كل ما يحتاجه هذا المشروع، ولا تشغل بالك من هذه الناحية"، وأدعوه سبحانه أن يكتب له الفردوس الأعلى. فهذا الرجل هو مثال للمسلم الغنى المتحضر الذى يفهم الإسلام فهمًا عميقًا ولا يكتفى بذلك بل يطبق هذا الفهم أحسن تطبيق. اللهم آمين. أما التلفاز المصرى الذى أوقف إذاعة تلك الحلقات بعد أن نجحت نجاحًا هائلا واستولت على ألباب المشاهدين، وكانوا يجنون منها شهدًا علميًّا صافيًا، فليس له عندى إلا أن أقول: أنت بهذه الطريقة لا ترحم ولا تترك رحمة ربنا تنزل. وهنيئًا لك اهتمامك بالتفاهات والمضارّ الكثيرة التى أفسدت عقول الناس على اختلاف أعمارهم

وطبقاتهم، وإن لم تكن أنت وحدك الذى تصنع هذا، بل كل التلفازات العربية تفعل نفس الشىء. روحوا، منكم لله!

ومما له دلالته هنا أن د. مصطفى محمود قد جمع بين الخيرين: العبادة والعلم، إذ بنى من أموال أهل الخير والصلاح مسجدًا، وألحق به أربعة مراصد ومتحفًا تلقى فيه المحاضرات العلمية، ثم زاد فأنشأ مستشفى لمعالجة المرضى بأجر رمزي. ولو أنه أضاف إلى هذا تشجيع الكتاب المبتدئين الذين يُشَام منهم الخير، من خلال طبع ما يؤلفون من كتب ودراسات فى المجالات التى لا تجد من يقبل عليها من الباحثين والعلماء، لكان قد بلغ سماء عالية من سماوات الخير والنفع الجزيل، وبخاصة أن هذا العمل لو تم لاجتذب الانتباه وحذا حذوه كثير من الناس. ومع هذا فيحمد له ما فعل، وعلى غيره أن يواصل الطريق ويكمل المشروع.

أقول هذا لأن للعلم والثقافة فى الإسلام مكانة لا تدانيها مكانة حتى لقد فضل الرسول الكريم العلماء على العابدين تفضيلا كبيرًا، وأكد صلوات الله عليه أن سبيل العلم توصِّل صاحبها إلى الجنة. كذلك فالله سبحانه وتعالى لم يأمر رسوله بالاستزادة من شىء سوى العلم: "وقل: رب، زِدْنِى علما"، وبيَّن عز شأنه أنه لا يمكن أن يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون. ومع هذا فإن المسلمين، فى هذه الفترة التاعسة البائسة من تاريخهم، يبغضون القراءة وأمور الفكر والثقافة رغم أن الإسلام لا يصلح دون علم، إذ العلم عنصر جوهرى فى بنائه لا يتم إلا به، فضلا عن أنه لا مستقبل للمسلمين إلا بالعلم والثقافة مهما ظن العوامّ والقاصرون منهم خلاف ذلك.

ومما لفت نظرى أيضًا بقوة فى حياة الدكتور مصطفى محمود ما قرأته من أن الرئيس السادات قد طلبه ذات يوم ليكلفه بمهام وزارة من الوزارات، بَيْدَ أنه اعتذر قائلا: "لقد فشلتُ فى إدارة أصغر مؤسسة، وهى مؤسسة الزواج، فقد تزوجتُ وطلقتُ مرتين، فكيف أستطيع

أن أنهض بأعباء وزارة؟ وفوق ذلك فإنى أرفض ممارسة السلطة بكل أشكالها" . ولأنى أنا مثله لا أحب الأعمال الإدارية فقد أحببت هذا الموقف منه حبًّا عظيمًا . وإنى لأستغرب تهافت كثير من المفكرين وأساتذة الجامعة على أن يتولَّوْا منصبًا وزاريًّا مع أن مكانة المفكر والمبدع والأستاذ الجامعى لا يعادلها ، فى رأيى، أى منصب وزارى مهما علا شأنه، وبخاصة أن الوزراء فى بلادنا لا قيمة لهم فى كثير من الأحيان ولا يتمتعون بأية حرية. وأنا دائمًا ما أقارن بين رجلين فى العصر العباسى: أحدهما هو الجاحظ الأديب المفكر المبدع العظيم الذى عُيِّنَ كاتبًا فى ديوان الخليفة العباسى المأمون بن الرشيد فتردد عليه لمدة ثلاثة أيام، ثم لم يطق الاستمرار بعد ذلك فاستعفى فأُعْفِي. والثانى هو سهل بن هارون، الذى كان يتولى شؤون بيت الحكمة فى عهد المأمون أيضاً ، وهى مؤسسة تشبه هيئة الكتاب المصرية الآن. ومن كلام سهل فى هذا الموضوع أن الجاحظ لو كان بقى فى الديوان لأَفَلَ نجم الكتاب جميعًا . ومع هذا فقد رفض الجاحظ الاستمرار فى ذلك العمل الإدارى لما فيه من تضييق على حريته. ورغم أن سهلا لم يكن شخصًا عاديًّا ولا كان الإداريون بوجه عام فى ذلك العصر أشخاصًا عاديّين، بل كان كثير منهم من كبار المثقفين، كما كان عدد غير قليل منهم كتّابًا وأدباء يشار لهم بالبنان، فإن أعباء العمل الإدارى لم تترك له من الفراغ وروقان البال ما كان يتمتع به الجاحظ. وهذا سبب من الأسباب التى تكمن وراء الفرق الهائل بين ما خلّفه الجاحظ وما خلّفه سهل من الإبداعات كمًّا وكيفاً . وأنا أُوثِر الجاحظ على سهل إيثارًا شديدًا لهذا، ويكفينى أنه قد أمتع ويمتع وسيظل يمتع العقول الكبيرة والأذواق الراقية على مدى الدهور إلى يوم يبعثون، ويأخذ بأيديهم إلى الأعالي. وهذا عندى أفضل وأعظم وأكرم من وزارات الدنيا جميعًا .

لفتنى كذلك فى أمر الدكتور مصطفى أنه كان فى بداية حياته الفكرية شاكًّا، وبعضهم يقول: بل كان ملحدًا . ورغم أنى لم أمرّ بمثل تلك الفترة فى مسيرة حياتى، وإن كنت أتوقف بين

الحين والحين لأقلب الفكر فيما أومن به، وأفعل ذلك دون خوف أو تحرج، ودائمًا ما أخرج من المعاودة أقوى اعتقادًا وأعمق فهمًا وأصلب موقفًا وأبصر بأبعاد جديدة فى أمور الحياة والدين والإيمان، فإنى لا أجد شيئًا فى أن يشك الإنسان، لكن المهم أن يكون الشك نابعًا من داخله هو لا تقليدًا لأحد آخر. فكثير من الملاحدة بين المسلمين الحاليين ليسوا ملاحدة عن اقتناع وتفكير بل عن تقليد لما يَرَوْنَه فى الغرب أو بين زملاء لهم يخشون أن يخالفوا لهم عن أمر. وكنت أعرف فى شبابى بعض هؤلاء، كما كان معنا من طلاب الجامعة من ألحدوا لحساب الشيوعية والاتحاد السوفيتى، ثم فوجئنا بهم ينقلبون على وجوههم مع انقلاب الأحوال فى بلادنا وييممون وجوههم وعقولهم شطر العم سام، مع احتفاظهم بإلحادهم القديم بعد إعطائه نكهة ورائحة أمريكية، ولله فى خلقه شؤون!

وعلى أية حال فالفيصل بين شك وشك هو الفيصل بين شخص يريد بلوغ بر اليقين والاطمئنان الروحى وبين شخص يستزيد من الكفر ويوغل فيه لأن هذا الكفر يطلق له الحبل على الغارب فيصنع ما يشاء ويجرى وراء شهواته وانحرافاته وشذوذاته ملء عِنَانه دون رقيب ودون تفكير فى حساب أو عقاب. ومصطفى محمود لم يترك الشك يغتال عقله، بل ظل يفكر ويعاود النظر والتأمل حتى هُدِى إلى الإيمان وسجل هذه التجربة الغنية فى كتاب من أهم كتبه، بل من أهم الكتب فى ميدانه، وهو "رحلتى من الشك إلى الإيمان"، الذى قرأناه له بعد صدوره بقليل واستمتعنا بقراءته ورأينا الحرب التى أُعْلِنَتْ عليه من رفاق الأمس الذين ساءهم أن يهتدى واحد منهم من ضلاله القديم. بالضبط مثلما استاء رفقاء الدكتور محمد حسين هيكل الذين كانوا يسيرون معه على نفس درب الإعجاب بالغرب والتبعية له والثقة به عندما ألف كتابه فى سيرة المصطفى، واجدًا نفسه بعد الضياع الذى ضاعه أيام بعثته إلى فرنسا للحصول على درجة الدكتورية فى الاقتصاد السياسى والذى سجل بداياته بكثير من التفصيل فى

كتابه: "مذكرات الشباب"، ذلك المخطوط الذى ظل حبيس الظلام أكثر من ثمانين عامًا ورأى نور النشر لأول مرة فى منتصف تسعينات القرن الماضى وتناولتُه بالدراسة التحليلية فى فصل كامل من كتابى عن "الدكتور هيكل ناقدًا وأديبًا ومفكرًا إسلاميًّا".

كذلك قرأت ذات مرة فى إحدى الصحف تحت عنوان: "عاش طويلا فى التابوت" أن الدكتور مصطفى محمود كان، قبل أن يداهمه المرض الحالى، يقيم معظم الوقت فى غرفة فوق مسجده يسميها: "التابوت"، وأن الموت لم يكن يبارح مخيلته. وسبب التفاتى إلى هذه المعلومة أننى أنا أيضًا دائم التفكر فى الموت منذ أعوام غير قليلة لا يكاد يغيب عن بالى بعد أن كنت أفزع من فكرته مع أنى كنت ولا أزال قوى الإيمان بالله وباليوم الآخر، لكن ماذا يستطيع الواحد منا أن يعمله أمام مثل تلك المشاعر؟ إلا أن الأمر انقلب تمامًا منذ مدة ليست بالقريبة وأضحيت أتكلم عن الموت وما أرجوه من كرم المولى الرحيم عز شأنه كما أتكلم عن رحلة أنوى القيام بها. والطريف أن كل من يسمعنى أتحدث عن موتى يسارع بالرد قائلا: بعد الشر! فأقول: أوتظن يا فلان أن كلامى هذا سوف يقرّب الموت منى أسرع مما قدر الله لى منذ الأزل؟ لكن الناس يتشاءمون عمومًا بالحديث عن الموت، وكأن الموت رجل نائم، ومن شأن الكلام عنه أن يوقظه من غفوته!

وبالمناسبة كان على منذ يومين أن أعمل أشعة بجهاز الرنين المغناطيسى على رقبتى، التى تبين بحمد الله أنه ليس فيها إلا بعض الخشونة، وهو أمر عادى تمامًا فى مثل سني. وفى البداية لم أكن مرتاحًا إلى الدخول فى الجهاز الذى أشبّهه ضاحكًا بكبسولة الفضاء مما أضحك الطبيبة صاحبة اقتراح الأشعة. ثم توكلت على الله وتركت الممرضة تدفعنى إلى داخل الأنبوب بعد أن أغمضت عينى وشرعت أركز تفكيرى كله فى ربى سبحانه وتعالى، وظللت أجرى حوارًا طوال الوقت من جانبى أقرأ فيه الآيات القرآنية التى تتحدث عن يونس وهو فى بطن

الحوت فأجد لذة غريبة. ولم أعد أشعر بأنى محصور ولا مقيد، بل كنت أتخيل أن سقف الأنبوب هو نفسه سقف الغرفة. وأحسست أننى قريب من الله تمام القرب، وكنت أسأل نفسى وأنا ممدد هناك: ماذا لو حدث شىء أدى إلى موتك وأنت بداخل هذا الأنبوب؟ فأجبت قائلا: وماذا فى ذلك؟ وهل أنا استثناء من البشر؟ فسكنتْ نفسى عندئذ أيما سكينة. وكانت تجربة روحية عميقة خرجت منها فى منتهى السعادة.

هذا، ولا يصح أن يفوتنى التنويه بأن الدكتور مصطفى، شفاه الله، قد نشأ فى طنطا قريبًا من مسجد السيد البدوى، وهو المسجد الذى كنت أتردد عليه بعد انتهاء اليوم الدراسى فى المرحلة الإعدادية، وأصلى فيه الأوقات كلها مع المصلين. أى أننا نشأنا فى نفس الجو تقريبًا، وإن كان هو أكبر منى بسبعة وعشرين عامًا. وهذا مما يشعرنى الآن بأن كلينا قريب من الآخر، وهو ما أضفى على هذه الكلمة شيئًا من الدفء والحميمية، إلى جانب ما أعدانى به الأستاذ فيصل أكرم عن الدكتور مصطفى محمود لافتًا نظرى إلى أن من حق الرجل أن يشعر بنا حوله فى ظروفه الحالية، فخَلَقَ عندى بهذا الطلب إحساسًا بالقرب من العالم الجليل قبل أن أتذكر أنه قد نشأ كما نشأتُ فى طنطا، تلك المدينة التى تلقيت فيها تعليمى فى أثناء المرحلتين الإعدادية والثانوية والتى لى فيها كثير من الذكريات والأفراح والأشجان، وكنت أحلم بها فى أكسفورد وأنا متغرب أدرس للحصول على درجة الدكتورية فى النقد الأدبى فى النصف الثانى من سبعينات القرن الماضي.

ولا يفوتنى كذلك أن أشرح للقارئ أنه لم تكن لى صلة مباشرة بالدكتور مصطفى فى أى وقت، بل تقتصر معرفتى به عن طريق كتبه ومقالاته وبرنامجه: "العلم والإيمان". ومع هذا فقد أرسلت له ذات يوم من عام ١٩٨٤م أستسمحه فى نقل ما كان قد كتبه فى بعض مؤلفاته عن النتائج التى توصل إليها رشاد خليفة بخصوص الرقم ١٩ فى القرآن الكريم ودلالته على إعجازه

ومصدره الإلهي. وكنت أيامها حديث عهد بالعودة من بريطانيا، ولا أزال أتذكر التحقيق الذى كنت قرأته قبل سفرى إليها فى أواسط السبعينات من القرن المنصرم عن ذلك الموضوع. فعندما أردت آنئذ أن أصدر كتابى: "المستشرقون والقرآن" خطر لى أن ألحق به الفصل الذى كتبه الدكتور مصطفى محمود فى تلك القضية، فكتبت له رسالة بذلك وبعثت بها طالبًا من طلابى الذين يعرفون مسجده ويترددون عليه للصلاة فيه، فوافق الرجل بخط يده مشكورًا، ونشرت الفصل المذكور فى آخر الطبعة الأولى من ذلك الكتاب. إلا أن الطلاب سرعان ما نبهونى مشكورين إلى ما كنت أجهله جرّاء غيبتى عن البلاد طوال ست سنين فى بلاد جون بول، وهو أن عددًا من العلماء والباحثين قد ردوا على ما قاله رشاد خليفة وبينوا أنه لا يصمد أمام البحث العلمى، فطلبت منهم أن يوافونى بذلك فأحضروا بعض تلك الردود، فقرأتها لأجد نفسى وقد حاكت فيها أشياء بعد أن كنت مطمئنًا إلى ما قرأته عن ذلك الموضوع من قبل. ولهذا يجدنى القارئ قد حذفت هذا الملحق من الكتاب السابق ذكره فى طبعته الثانية.

وفى النهاية أحب أن أقول إننى لا أتفق مع كل ما كتبه الدكتور مصطفى محمود أيضاً، وهذا أمر طبيعى، فليس هناك كاتب أو مفكر يتفق معه جميع الناس فى كل ما كتب، بل الطبيعى أن يكون هناك ولو بعض الاختلاف فى الآراء والأفكار ووجهات النظر. ومن ذلك مثلا ما كتبه عن الشفاعة. وهناك أمثلة أخرى نكتفى عنها بهذا المثال لأن السياق ليس سياق اختلاف بقدر ما هو سياق تعاطف وتشارك وجدانى، فكلنا نستقل زورقًا واحدًا فى بحر الحياة اللجى المتلاطم، والزمن دوار، ولسوف يسعدنا إذا ما قُدِّر لنا الوقوع تحت وطأة التعب أن نجد الآخرين يهتمون بنا ويظهرون مشاعرهم الطيبة نحونا. ولقد قلت ذات مرة فى رسالة بعثت بها من الطائف إلى الدكتور صفاء خلوصى حملها له الدكتور يوسف عز الدين حين سافر فى أحد الأصياف من تسعينات القرن الماضى إلى بريطانيا حيث كان يعيش الدكتور

خلوصى، الذى بلغنى وقتها أنه مريض: لو كانت لى دعوة مستجابة عند الله لرجوته عز شأنه أن يمحو المرض بكل أنواعه من قاموس الحياة!" .

هذا، ويقع كتاب د . مصطفى محمود الذى نحن بصدده هنا: "القرآن- محاولة لفهم عصرى" فى طبعته الثانية (دار المعارف ١٩٧٧م) فى ٢٧٨ صفحة بما فيها صفحات المناقشات التى دارت بين المؤلف والقراء والتى تغطى نحو عشرين صفحة فى نهاية الكتاب. وعدد فصوله ١٤ فصلا خامس عشرها فصل المناقشات السابق ذكره، وترتيبها كالآتى: "المعمار القرآنى، مخير أم مسير؟، قصة الخَلْق، الجنة والجحيم، الحلال والحرام، العلم والعمل، أسماء الله، رب واحد ودين واحد، الغيب، الساعة، البعث، لا كهنوت، لا إله إلا الله، لماذا إعجاز القرآن؟، مناقشات" . وأرى أنه كان ينبغى أن يتخذ الكتاب ترتيبا آخر للفصول، فيأتى فصل قصة الخلق أولا، ثم لا إله إلا الله، ثم أسماء الله، ثم دين واحد ورب واحد، ثم الغيب، ثم العلم والعمل، ثم الحلال والحرام، ثم مخير أم مسير؟، ثم لا كهنوت، ثم البعث، ثم المعمار القرآنى، ثم لماذا الإعجاز القرآنى؟ وأتصور أن ترتيب الفصول على هذا النحو أقرب إلى منطق الأشياء: فالخَلْق أولا، ثم ندخل على مناقشة الألوهية والوحدانية فأسمائه سبحانه. . . لننتهى بالبعث ثم نختم جولتنا بالوقوف أمام الكتاب الذى درسنا تلك الموضوعات من خلاله لنبحث معماره وإعجازه. لقد بدأ هذا الكتاب فصولا فى مجلة "صباح الخير" فى بداية سبعينات القرن الماضى كيفما اتفق، نزولا فيما يبدو على استعداد المؤلف النفسى لتناول موضوع ما، وحين حان دور ظهور الكتاب أبقى الفصول على ترتيبها فى النشر الصحفى كما هى. ولست أريد أن أجعل من الحبة قبة، فالمسألة شكلية فى معظمها .

وننتقل الآن إلى محاولة تبين منهج الكتاب فى تفسير القرآن، ولكن علينا أولا أن نقدم لذلك بسطور ترينا الصورة العامة للموضوع. وأول ما يلاحظه المطلع على المكتبة القرآنية أن

كتب التفسير تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا: فبعضها تام يتناول تفسير القرآن كله لا يترك منه شيئًا . وبعضها لا يتناول بالتفسير إلا بعض القرآن فقط مع تفاوت هذا البعض: فمن المفسرين من قام بتفسير سورة أو بضع سور أو آيات من هنا وهناك، مثل الشيخ محمد عبده، الذى فسر من أول القرآن حتى الآية ١٢٥ من سورة "النساء"، إلى جانب جزء "عَمَّ" وسورة "العصر"، والآيتين ٧٨- ٧٩ من سورة "النساء" وما فيهما من تعارض ظاهرى بين المشيئة الإلهية ومشيئة البشر، والآيات ٥٢- ٥٥ من سورة "الحج" التى تذكر أنه ما من رسول ولا نبى أرسله الله قبل رسولنا عليه السلام إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته، والآية ٣٧ من سورة "الأحزاب" التى تتحدث عن زواج نبينا الكريم من السيدة زينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد بن ثابت، ومثل الشيخ محمد مصطفى المراغى، الذى لم يفسر إلا سورة "لقمان" وسورة "الحجرات" وسورة "الحديد" وسورة "العصر"، والآيات الأخيرة من سورة "الفرقان" الخاصة بصفات عباد الرحمن، ومثل الشيخ عبد القادر المغربى، الذى قام بتفسير جزء "تبارك"، والدكتور شوقى ضيف، الذى له تفسير سورة "الرحمن" وبعض قصار السور (قبل أن يؤلف تفسيرا كاملا للقرآن الكريم باسم "الوجيز فى تفسير القرآن الكريم")، والدكتورة بنت الشاطئ، التى خلّفت جزءين من "التفسير البيانى للقرآن الكريم" تعرضت فيهما لتفسير عدد من السور الصغيرة مثل "البلد" و"الضحى" و"العَلَق" "والقَدْر" . . .إلخ، وحنفى أحمد، صاحب كتاب "التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن"، الذى يقتصر على تفسير الآيات التى لها علاقة بالعلوم الطبيعية فحسب، ومثله عبد المنعم السيد عشرى صاحب "تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم"، والمفسرين الذين اقتصروا فى تفسيرهم على آيات الأحكام. ومن الذين لم يفسروا من القرآن المجيد سوى بعض سوره صاحِبُ هذا الكتاب العبد لله الفقير، الذى قام بتفسير سور "المائدة" و"التوبة" و"يوسف" و"الرعد" و"طه" و"النجم" و"الرحمن" ليس إلا، كل منها فى كتاب مستقل.

والغالب على تفاسير القرآن الكاملة أن يتناول المفسر الكتاب الكريم سورة بعد سورة، والسورة آية بعد آية، أو عبارة بعد عبارة، وربما كذلك كلمة بعد كلمة، كل ذلك فى خط مستقيم حتى ينتهى من السورة فالتى بعدها فالتى بعدها . . . وهكذا دواليك إلى أن يفرغ من تفسير القرآن كله. ويسمى هذا التفسير بـ"التفسير التجزيئى" . وهذا هو الأسلوب الذى يجرى عليه الطبرى والزمخشرى والطبرسى والنسفى والخازن والبغوى وابن كثير والجلالان ورشيد رضا والطاهر بن عاشور . . . وهكذا، وإن كانت هناك بطبيعة الحال تنويعات داخل هذا الإطار الكلى.

ولم يحاول أحد من المفسرين القدامى، فيما نعلم، أن يدرس بناء السورة كلها فى وحدة واحدة، إلى أن جاء سيد قطب فاجتهد فى أن يعثر فى كل سورة على ذلك البناء الذى ترتبط فيه أقسام السورة بعضها ببعض وتصبح وحدة واحدة. ذلك أنه رحمه الله، لدن تفسيره لأية سورة، يبدأ بمقدمة طويلة يجول فيها مع موضوعاتها المختلفة محاولا الربط بينها ومبرزا الجو الذى يسودها ، والمحور الذى تدور عليه من أولها إلى آخرها . فإذا فرغ من هذه المقدمة شرع فى تفسير السورة عندئذ ، إلا أنه لا يتناولها آية آية كأنها حبات المسبحة كما تفعل الغالبية الساحقة من المفسرين، بل يتناولها مجموعة مجموعة من الآيات بحيث تشكّل كل واحدة من هذه المجموعات موضوعا كاملا. وبعد أن يستعرض موضوعات السورة المختلفة مبرزا بعض ما فيها من الجمال إبرازا سريعا يقسمها عدة أجزاء، مسميا كل جزء منها: "حلقة أو شوطا أو جولة أو درسا" ، وواقفا عند كل حلقة يطيل التأمل فيها ، ويستبطن معانيها ، ويتذوق حلاوتها آية آية، وكلمة كلمة كلما عن له ما يوجب ذلك، رابطا بين الكلمات فى الآيات، والآيات فى الحلقات، حتى لتبدو السورة عنده فى النهاية بناءً فكريا وفنيا صلبا ليس فيه من خلل. وكثيرا ما يهتم بإبراز التناسق الفنى بين أجزاء السورة كلها ، والجو النفسى الذى يهيمن عليها جميعا .

وهناك لون آخر منها لا يقف لدى كل كلمة أو لدى كل عبارة أو لدى كل آية أو حتى لدى كل مجموعة آيات داخل السورة كالذى رأيناه فى التفسير التجزيئى، بل يتناول القرآن حسب موضوعاته المختلفة، كموضوع الألوهية مثلا أو موضوع يوم القيامة أو موضوع القضاء والقدر أو موضوع الحساب الأخروى أو موضوع العلم أو موضوع الرِّدّة أو موضوع الجنس والحب أو موضوع الحدود . . .إلخ. ويسمَّى هذا: "التفسير الموضوعى". وتكمن أهمية هذا اللون فى أنه يخرج بنا من نطاق الجزئية التى قد يكون من شأنها تغييم نظرتنا إلى القرآن الكريم فلا نتنبه إلى رؤيته العامة فى القضايا المختلفة، إلى نطاق الكلية التى تعين على الرؤية الشاملة المحيطة بكل جوانب الموضوع، وهى بكل يقينٍ رؤية أفضل وأوضح وأعمق. ومثالا على ذلك أشير إلى انقسام المتكلمين بشأن قضية الجبر والاختيار: فمنهم من جَبَّر، ومنهم من خَيَّر، ومنهم من قال بالجبر والاختيار معا . والسبب هو اقتصار كل فريق على طائفة من الآيات القرآنية التى توافق نظرته. ولو أن كلا من الفريقين جمع الآيات كلها التى تتعرض لتلك القضية ووضعها تحت عينيه وأمعن فيها النظر لكان أحجى أن يصيب وجه الحق. وليس معنى هذا أن التفسير الجزئى قليل الشأن، إذ الواقع أن التفسير الموضوعى لا يستطيع أن ينهض إلا إذا سبقه تفسير الآيات تفسيرا جزئيا ، فهما إذن متكاملان لا متعارضان.

وللشيخ محمد الغزالى تفسير للقرآن الكريم سماه: "نحو تفسير موضوعى لسُوَر لقرآن"، إلا أنه، رغم هذا ، لا ينحو نحو التفسير الذى نحن بصدده هنا ، إذ ذكر فى مقدمته أنه إنما يقصد تفسير كل سورة تفسيرا موضوعيا . ويحاول التفسير الموضوعى الذى يقدمه فى كتابه، بتعبيره، رسم "صورة شمسية" لها تتناول أولها وآخرها ، وتتعرف على الروابط الخفية التى تشدها كلها ، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها ، وآخرها تصديقا لأولها ، قائلا إن كتاب "النبأ العظيم" للدكتور محمد عبد الله دراز هو أول كتاب فى هذا المجال على قدر علمه.

ويقع تفسير مصطفى محمود ضمن قائمة التفسير الموضوعى للقرآن الكريم، فقد اختار عدة موضوعات رئيسية من موضوعات القرآن ودرسها واستشهد على كلامه بآيات من كتاب الله. ويغلب على هذا التفسير الربط الدائم بين العلوم الطبيعية والرياضية وبين القرآن الكريم، وتكثر فيه مصطلحات تلك العلوم والإشارة إلى نظرياتها وقوانينها، ويعطى فيه مفسرنا نفسه فرصة واسعة فى التعليق الحر والتنقل من هنا إلى هناك، ويتسم كلامه بمرونة كبيرة يترك نفسه من خلالها يتحدث بما فى قلبه مما لا تساعده الآيات القرآنية أحيانا على إثبات صحته. وأحيانا ما نجده بعد أن يكون قد طاف بالآفاق وأتى فى الآية بما فيها وما ليس فيها، وبخاصة فى الآيات التى تتناول موضوعات غيبية، يعود فيؤكد أن الأمر ليس حاسما بل الأبواب مفتوحة على أكثر من تفسير، وأنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل الجزم بأى شىء فى الموضوع. وفى هذه الحالة تتحول كتابة مصطفى محمود عن القرآن إلى تفكير بصوت عال تصبغه الحيرة وتكثر فيه الأسئلة التى تبحث عبثا عن جواب.

والأسلوب المكتوب به هذا التفسير أسلوب عصرى صحفى سهل سلس لا يحوج القارئ إلى استشارة المعاجم، اللهم إلا فى بعض المصطلحات العلمية التى تحتاج إلى التخصص. وهذا الأسلوب يتحول فى بعض الأحيان إلى أسلوب أدبى مجنح ورجراج قد يقول الشىء وعكسه. وبالمثل نراه يقترب فى أحيان أخرى من أسلوب الصوفية المهوِّم بما فيه من مغالاة ودعاوى عريضة وشطحات تعبيرية لا حقيقة لها موضوعية. كما يخلو التفسير من أى كلام فى النحو والصرف، وكذلك من البلاغة اللهم إلا بعض الأحكام الانطباعية. وبالمثل ليس هناك كلام فى الفقه أو فى أسباب النزول، ولا إشارة إلى المفسرين الآخرين أو كتبهم أو آرائهم بل يكتفى المؤلف بأن يسوق لنا ما يريد أن يقول هو فى أسلوب عصرى صحفى بسيط ليس فيه تفصيلٌ بل تناولٌ موجز وسريع الإيقاع بعض الشىء. لكن نجده أحيانا يتغشمر فيسمى الله سبحانه:

مهندس الكون، سائق القطار، المعمارى العظيم. . . وغير هذا مما كان يعجبنا فى شبابنا حين قرأناه لأول مرة عقب صدوره متصورين أن هذا أسلوب عصرى يقرب الدين إلى الشباب ويطور طريقة الكتابة فى الإسلام إلى أسلوب أكثر ملاءمة لعقولنا ونفوسنا . كما نلحظ، إلى جانب الاتجاه العلمى فى ذلك التفسير، ميلا صوفيا عاما، وقد يستنتج المؤلف من بعض النصوص نتائج غير محكمة، وأحيانا نتائج لا تصحّ. ويورد المؤلف أحيانا نصوصا من الكتاب المقدس فى الموضوع الذى يكون بصدد تناوله من تفسير القرآن الكريم، يريد أن يقول إن الأديان واحدة وتقول الشىء نفسه، وإن اختلف التعبير أحيانا، مع أن النصوص الكتابية المستشهد بها قد لا تكون لها علاقة بما تقوله الآيات التى يتولى تفسيرها، فضلا عما يؤمن به المسلمون من أن التوراة والإنجيل قد تم العبث بهما والتحريف فيهما . لكن مصطفى محمود بعد ذلك قد أصدر كتابا عن التوراة أعلن فيه أنها تحتوى على بعض النصوص الصحيحة التى تشبه فصوص الألماس، ولكن ضمن ركام كثيف من القصص والتاريخ، وخضم من التشويش يسبب الصداع كما جاء فى مقدمة الكتاب المذكور. ولم يكتف بهذا بل أتبع كلامه المذكور بشواهد كثيرة من العهد القديم تدل على ما لحقه من تحريف وإفساد . كذلك لا وجود للأحاديث النبوية فى هذا التفسير، ولكن تقابلنا بعض الأحاديث القدسية.

وثم ملمح آخر فى تفسير مصطفى محمود أنه أحيانا ما يورد شرح لفظة قرآنية فى درج الآية بعد أن يضعها بين قوسين عقب الكلمة التى يراد شرحها كما فى الأمثلة التالية: "إنا جعلنا الشياطين أولياء (أنصارا) للذين لا يؤمنون"، "قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى (عهدى) ؟"، "فلما قضينا عليه الموت (على سليمان) ما دَلَّهُمْ على موته إلا دابةُ الأرض تأمل مِنْسَأَتَه. فلما خَرَّ تبينت الجن أنْ لوْ كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا فى العذاب المُهِين". إلا أن

هذا الملمح كان مثار انتقاد حاد للدكتورة بنت الشاطئ فى الفصل المسمى: "بين الدراسة القرآنية والتفسير العصرى" .

قالت رحمها الله: "فى تفسير الألفاظ أرى الدكتور يردد فى أول كتابه وفى آخره كلاما مما قررناه من تعذر تفسير كلمة قرآنية بأخرى من الألفاظ المَقُول بترادفها أو العدول بها على وجه التأويل والتقدير عن موضعها الذى جاءت به فى البيان المعجز. وهذا الأصل المنهجى الذى نلتزمه فى الدراسات القرآنية ونلزم به طلابنا فى الجامعة يتردد فى التفسير العصرى فلا ندرى له موضعا فيه، وقد جرى المؤلف على أن يقحم على الآيات القرآنية تفسيرا لألفاظها فى نص الآية. . . وذلك الخلط بين كلام الله وكلام البشر لم يجرؤ عليه أحد فيما أعلم، ولا عهد لنا بمثله فى أى كتاب إسلامى. وقد كان علماؤنا يتشددون فى إنكار مثله فى رواية الحديث حفظا لمتنه من أن يختلط بكلام للراوى. ولم يخطر لهم على بال أن ذلك مما يمكن أن يقع فى آيات القرآن" .

والحق أن الأستاذة الدكتورة قد بالغت فى كلامها، فالرجل لا يخلط كلامه بكلام القرآن، بل يشرح ما يراه محتاجا من ألفاظ هذه الآية التى يستشهد بها أو تلك إلى شرح واضعا إياه بين قوسين. وهذان القوسان يدلان دلالة مبينة على أن ما بداخلهما ليس من القرآن بل توضيحا له، وبالتالى لن يكون هناك أى التباس بين الكلامين. أما نفيها أن يكون ذلك موجودا فى كتب التفسير فنَفْىٌ على غير أساس: فها هى ذى بعض الشواهد من "تفسير الجلالين"، وهو مجرد مثال ليس غير، وهو من أشهر كتب التفسير وأَسْيَرها، على عكس ما تقول سيادتها: "نَزَّلَ عَلَيْكَ (يا محمد) ٱلْكِتَٰب (القرآن مُتَلبِّسًا) بِٱلْحَقّ (بالصدق فى أخباره) مُصَدّقًا لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (قبله من الكتب) وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنجِيل"، "(هذا) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ (خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم)، فَلا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ (ضِيق) مِنْهُ (أن تبلّغه مخافة أن تُكَذَّب) لِتُنذِرَ (متعلق

بـ"أُنْزِلَ": أى للإنذار) بِهِ وَذِكْرَىٰ (تذكرةً) لِلْمُؤْمِنِينَ (به)"، "رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (مُصَدِّقُون نبيَّك)"، "وَيْلٌ (كلمة عذاب أو وادٍ فى جهنم) لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (أى كثير الهمز واللمز، أى الغِيبَة. نزلت فيمن كان يغتاب النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وغيرهما)". ثم إننا لو أخذنا بكلامها، غفر الله لها، لما كان هناك تفسير، إذ التفسير هو أن تشرح ما جاء فى القرآن بألفاظ أخرى، وإلا فلو التزمتَ بألفاظ القرآن فماذا تكون قد صنعتَ؟ لا شىء إلا أن تكرر نص القرآن كما هو دون زيادة أو نقصان، وتبقى المشكلة كما هى. ولا يقول أحد بهذا أبدا.

وممن رد على د. مصطفى محمود كاتب سودانى هو محمود محمد طه، وقد أخذ عليه أن ما كتبه فى كتابه المذكور ما هو إلا خواطر فطيرة غير ناضجة، إذ إن معرفته بالقرآن علما وسلوكا لا تؤهله للخوض فى ذلك الموضوع، كما أنه يجهل أدواء العصر. ومع هذا كان رأيه أنه لا بد من كتاب ككتاب مصطفى محمود يثور على جمود علماء الدين وضِيق عَطَنهم. وكاتبنا السودانى سرعان ما يغرق ويغرقنا معه فى بحار الصوفية، التى تدعى أن معرفتها بالحقائق الإلهية وسيلتها القلب لا العقل، وهو ما سوف يرى القارئ خلال كتابى هذا أننى أقف منه موقف المنكر الرافض على طول الخط. أى أن الأستاذ طه جاء يكحلها فأعماها. والطريف أنه يأخذ على مصطفى محمود أنه ليست له قدم فى التصوف رغم أن مصطفى محمود كثيرا ما يعلى من شأن التصوف وأداته فى المعرفة.

ويعود الكاتب السودانى إلى ماضى مصطفى محمود سنة ١٩٥٩م أيام تأليفه كتاب "الله والإنسان"، الذى أعلن فيه تمرده على فهم علماء الدين للدين، إذ يمنعون التفكير فى أموره ويطلبون من الناس أن يأخذوا الدين كما هو دون إعمال عقل طبقا لكلامه، متخذا من هذا الموقف دليلا على أن مصطفى محمود منحرف عن الإسلام. وعبارة مصطفى محمود التى

أثارت محمود محمد طه هى "إن الله الذى لا يحترم عقلا صنعه بيديه يعطينى العذر فى ألا أعبده" . فأما أنه كان منحرفا عن الإسلام أيامذاك فأظنه صحيحا ، ولكن هل استمر هذا الموقف عند وبعد وضعه كتاب "القرآن- محاولة لفهم عصرى"؟ أنا أرى أن فى الكتاب ثغرات قمت بمناقشتها وتفنيدها ، لكن فى الكتاب رغم هذا أشياء مفيدة وتدل، فيما أحسب، على إيمان الرجل. إلا أن ما كتبه فيه يقوم فى جانب غير صغير منه على العاطفة لا على العقل رغم أنه أراد أن يكون تفسيره أو محاولة فهمه للقرآن مستندة إلى علوم الطبيعة والرياضيات، وهى علوم أبعد ما تكون عن العواطف والمشاعر . ثم إنه، بعدما تعمق فى هذا المجال، قد قَلَّتْ ثغرات فكره وصارت كتاباته تستند إلى العقل أكثر مما تستند إلى العواطف والمشاعر . لقد كان آنذاك لا يزال فى بداية الطريق، ثم لما استحصدت معارفه وتعمق فهمه للإسلام تغيرت كتاباته وصارت أكثر رصانة، وإن لم تخل رغم ذلك من الأخطاء والحاجة إلى المراجعة والتثبت شأنه فى ذلك شأن أى كاتب، وبخاصة إذا لم يكن من المتخصصين فى المجال الذى يكتب فيه .

والملاحظ فى رد محمود محمد طه أنه ينتقد من يعتمدون على العقل فى فهم أصول الدين، إذ يرى أن العمل بما فى الدين من شأنه أن يعلِّم الإنسان علم ما لم يعلم. أى أنه يضع العمل أولا غير متنبه إلى أن هناك خطوة أخرى حاسمة قبل الالتزام بما فى الدين من أوامرَ ونواهٍ، ألا وهى الاقتناع بصحة الدين قبل اعتناقه، وهذا أمر عقلى. فطه إنما يريد أن يضع الحصان أمام العربة. ومصطفى محمود حين قال عبارته العنيفة المذكورة إنما قالها قبل أن يقتنع بالإسلام ويعتنقه. والقرآن فى مثل هذه الحالة يدعو الناس إلى إعمال عقولهم حتى يعرفوا أن الله حق وأن محمدا رسول صادق وأن القرآن هو كتابه سبحانه. ولا يمكن أن ندعو إنسانا لم يسلِّم بكل هذا إلى العمل بما فى الإسلام، وإلا قلبنا الأمر رأسا على عقب. ومع هذا فإنى آخذ على مصطفى محمود أن يطالب الله سبحانه بـ"احترام" العقل. إن هذه عبارة لا تليق، وكان يمكنه

أن يقول مثلا: "كيف يكون الله هو خالق العقل ومع هذا لا يريدنا أن نستعمل عقلنا ؟" . أما الاحترام فلا يصح أن نطالب الله به لا لأحد ولا لشىء، فالله أعلى من كل شىء ومن كل أحد، إذ هو خالق كل شىء وكل أحد . قد يقال: إنه لم يكن قد آمن بعد، وأنت تطالبه بتقدير الألوهية حق قدرها . وردى هو أننى أحاجّه بفهم قدر الألوهية، وهذا الفهم لا يتوقف على الإيمان بها بل على تصور مفهومها التصور الصحيح مما لا يتوقف على الإيمان بها .

على أن محمود محمد طه قد وقع فى خطإٍ مشابه حين تحدث عن "أخلاق الله"، وكأن الله بشر من البشر . ولو قال: "أسماء الله" أو "صفاته" لأصاب العبارة الصحيحة اللائقة به عز وجل. فالأخلاق تكتسب، وتحتاج إلى مجاهدة، وهى تأتى من خارج المتخلق وبأمر من غيره، ودورها يقوم على تنظيم العلاقة بين البشر، والله سبحانه ليس من البشر بل هو خالق البشر، وهو لا يكتسب شيئا، ولا يجاهد فى سبيل شىء، ولا يأتيه شىء من خارجه سبحانه، ولا يأمره أحد جل وعلا، بل كل صفاته أزلية أبدية، وهى مثال الكمال المطلق. إن هناك حديثا يقول: "أفضلُ الأعمالِ الصلاةُ لوقتِها، وخيرُ ما أُعطِى الإنسانُ حُسنُ الخُلُقِ. إنَّ حُسنَ الخُلُقِ خُلُقٌ من أخلاق الله"، لكنه حديث موضوع.

أما لو افترضنا قبوله فلا بد له آنئذ من تأويل، ويكون المعنى مثلا أن حسن الخلق خلقٌ من الأخلاق التى يريدها الله فى عباده المؤمنين. فـ"أخلاق الله" ليست الأخلاق التى يتخلق بها الله بل الأخلاق التى يأمر بها الله. ومعروف أن للإضافة معانى متعددة: فمثلا فى قولنا: "ضَرْب محمدٍ" قد يكون الضرب واقعا من محمد أو واقعا عليه. بل إنه ليمكننا أن نقول: "ضَرْب الحجرةِ"، ولا يكون الضرب واقعا لا من الحجرة ولا عليها بل فيها . فالإضافة هنا تعنى الظرفية كما فى قوله تعالى من سورة "سبأ": "بل مَكْرُ الليلِ والنهارِ"، وإن كانت الظرفية فى مثالِى ظرفية مكانية، وفى الآية القرآنية الكريمة ظرفية زمانية. والسياق هو الذى يحدد المعنى

المراد . ولقد قال الكاتب السودانى إن أخلاق الله هى القرآن. وهذا تعبير لم يوصف به إلا الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك فى قول عائشة رضى الله عنها وأرضاها : "كان خلقه القرآن" .

وفى فصل "علم نفس قرآنى" من كتابه: "من أسرار القرآن" يقول مصطفى محمود كلاما قريبا مما نقول: "فالدين وحده مصدر الأخلاق. والرحمة والعلم والرأفة والمودة والكرم هى من الله، فهو وحده الرحمن الرحيم الكريم الودود الرءوف الحليم كما تقول لنا أسماؤه الحسنى. وهو الذى يتجلى بهذه الأخلاق على كل من يستحقها" . وأهم شىء فى هذا النص هو أن الله "يتجلى" بالأخلاق على عباده ولا "يتحلى" هو بها . إن فى هذا الفعل تلخيصا لكل شىء فى موضوعنا هذا . فالله له أسماء حسنى، ولا يصح أن نقول إن له أخلاقا وكأنه واحد من البشر يعيش فى مجتمع بشرى تنظم الأخلاقُ فيه العلاقاتِ بين الناس. إن الفرق بين الفعلين: "يتجلى" و"يتحلى" نقطة واحدة، لكن فى هذه النقطة السر كله وتلخيص الأمر جميعه.

ومما لم يعجبنى كذلك فى كلام محمود محمد طه قوله: "يجب أن يكون واضحا أن هذا القرآن العربى ليس له معنى واحد هو ما تعطيه اللفظة العربية، وإنما معانيه لا تحصى ولا تُسْتَنْفَد، ولكل حرف منه معنى" . ذلك أن القرآن عربى، ونزل بألفاظ العرب وعباراتهم وتراكيبهم، وكل ما يعنيه إنما يعنيه من خلال تلك الألفاظ والعبارات والتراكيب، وإلا فمعنى هذا أنه سبحانه يكلمنا بالعربية بينما يقصد شيئا آخر ليس فى العربية. وهو كلام عجيب. قال تعالى فى سورة "إبراهيم": "وما أرسلْنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم" . ثم إن الحروف (الحروف الإملائية) فى حد ذاتها لا تعنى شيئا على عكس ما يقول الكاتب، الذى أراه يتحذلق فيما لا يقبل التحذلق ويفصص الشعرة ولا يعجبه العجب ويقول كلاما لا يقبله

عقلى ولا ضميرى لما فيه من أفكار صوفية يسودها الغلوّ. وسوف أضرب عنه صفحا، وإلا تركت مصطفى محمود وأمسكت به هو، مما يخرجنا عن موضوعنا وهدفنا .

مصطفى محمود وتفسير القرآن بعلوم العصر

تأخذ بنت الشاطئ على مصطفى محمود أنه يفسر القرآن مستعينا بعلوم العصر من طب وفيزياء وكيمياء وجيولوجيا وما إلى ذلك، وتصر على أن هذا التفسير ليس هو التفسير الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت فى مقدمة كتابها: "القرآن والتفسير العصرى": "أول ما يشغلنى من هذه القضية هو أن الدعوة إلى فهم القرآن بتفسير عصرى على غير ما بينه نبى الإسلام تسوق إلى الإقناع بالفكرة السامة التى تنأى بأبناء العصر عن معجزة نبىٍّ أمىٍّ بُعِث فى قوم أميين فى عصر كان يركب الناقة والجمل لا المرسيدس والرولز رُويْس والبُوينْج ولونا، ويستضىء بالحطب لا بالكهرباء والنيون، ويستقى من نبع زمزم ومياه الآبار والمطار لا من مصفاة الترشيح ومياه فيشى ومرطبات الكولا. وتتورط من هذا إلى المزلق الخطر يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان وضمائرهم فيرسّخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم علوم الطب والتشريح والرياضيات والفلك والفارماكوبيا وأسرار البيولوجيا والإلكترون والذرَّة فليس صالحا لزماننا ولا جديرا بأن تُسِيغه عقليتنا العلمية ويقبله منطقنا العصرى.

هكذا باسم العصرية نغريهم بأن يرفضوا فهم القرآن كما فهمه الصحابة فى عصر المبعث ومدرسة النبوة ليفهموه فى تفسير عصرى من بدع هذا الزمان. وباسم العلم نخايلهم بتأويلات مُحْدَثَة تَلُوك كلمات ساذجة عن الذرة والإلكترون وتكنولوجيا السدود وبيولوجيا القمر. وفى ضجيج هذه الكلمات الطنانة الرنانة وخِلابة ما يقدمه التفسير العصرى من عجائب وغرائب تَبْهَر البصر فتتعذر الرؤية الثاقبة التى تميز حقا من باطل، وعلما من دجل، وإيمانا من زخرفِ قولٍ وبهرجِ بدعةٍ، ويفوتها أن تَفْصِل بين منطق تفكير علمى وجرأة ادعاء وطبولٍ وإعلان. "ومن الناس من يشترى لهوَ الحديث لِيُضِلّ عن سبيل الله بغير علمٍ ويتخذَها هُزُوًا. أولئك لهم

عذابٌ مُهِينٌ * وإذا تُتْلَى عليه آياتُنا وَلَّى مستكبرا كأنْ لم يسمعْها كأن فى أذنيه وَقْرًا . فبشِّرْه بعذاب أليم" . . .

والسؤال الخطير الذى تطرحه القضية: هل نفهم القرآن كما بينه نبى الإسلام أو كما يفهمه مفسر عصرى ندب نفسه لمنصب الفُتْيَا فى العقيدة وجعل من المجلة دارا عصرية لإفتاء المسلمين فى الحلال والحرام، وأذاع أنه فهم من القرآن "أن جبريل يمكن أن ينزل فى أى زمان ومكان على أى نبى من أى عصر وبأية لغة" ؟" .

هذا ما كتبته بنت الشاطئ رحمها الله. وأولا لم يحدث أن فسر الرسول عليه الصلاة والسلام القرآن كاملا بل بضعة ألفاظ وعبارات معدودة لا غير. ولم يكن الصحابة أيامذاك بحاجة إلى أكثر من هذا . ولو كانت بعثة الرسول فى عصرنا لكان قد فسر كتاب الله على نحو آخر، إذ العقليات الآن اختلفت عن عقليات معاصريه صلى الله عليه وسلم وصرنا ننتظر ممن يشرح لنا القرآن أن يتناول تلك الآيات التى لا يكفى فيها الشرح اللغوى والبلاغى، وإلا شعرنا أن هناك شيئًا ناقصا، واعترانا القلق.

وأذكر أنى اشتركت ذات مرة فى تسعينات القرن الماضى فى ندوة تلفازية بمعرض الكتاب حول التفسير العلمى للقرآن الكريم، وهو التفسير الذى يستعان فيه بعلوم الطبيعة والرياضيات وما إليها، وكان رأى البعض من المشتركين أنه يكفى أن يكون المفسر على علم باللغة والبلاغة والحديث، فرددت بأن فطاحل المفسرين القدامى الذين لا يسامتهم أحد فى تلك العلوم يخطئون فى تفسير الآيات المتعلقة بالعلوم الطبيعية والرياضية ولا ينجدهم ما عندهم من علم عميق باللغة والبلاغة والحديث فى فهم بعض الآيات التى من هذا القبيل ويخرجون على قواعد اللغة والبلاغة فيها لجهلهم بعلوم الطبيعة والرياضيات، كما هو الحال فى تفسيرهم لقوله تعالى فى سورة "فاطر": "وما يستوى البحران: هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابُه، وهذا مِلْحٌ

أُجَاجٌ. ومن كلٍّ تأكلون لحمًا طريًّا وتستخرجون حِلْيَةً تلبَسونها . . ."، إذ أكدوا أن الحِلْيَة لا تستخرَج إلا من البحر المِلْح، وأن الكلام فى الآية إنما هو على التغليب.

وفاتهم أن القرآن لم يقل مثلا: "ومنهما تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها" مما قد يصح حمل الكلام فيه على التعميم، بل قال: "ومن كلٍّ. . ."، أى من البحر العذب الفرات ومن البحر الملح كليهما . وهكذا نرى بأم أعيننا كيف أن فطاحل المفسرين القدماء قد سقطوا فى غلطة لغوية لا تغتفر ولَوَوْا رقبة الآية فى الاتجاه الذى يتصورون أنه هو الاتجاه الصحيح تبعًا لفقرهم فى ميدان العلوم الطبيعية والرياضية. أما علماء الطبيعة الآن فيقولون إن هناك أنهارا فى مواضع مختلفة من الكرة الأرضية تحتوى مياهها على الذهب والألماس واللؤلؤ والياقوت والزبركون والسيلكون، وإن هذه الأنهار توجد فى روسيا وفى أسكتلندة وفى البرازيل وأواسط أوربا، أى بعيدا عن منطقة الشرق الأوسط تماما حتى لا يقال إن الرسول كان يعرف ذلك بطريقة ما من أهل تلك البلاد التى كانت أنهارها تحتوى على تلك الحلىّ. فماذا تريد د. عائشة عبد الرحمن هنا ؟ أكانت تريد أن نتابع مفسرينا القدامى كلهم على خطئهم فى التفسير ولا نستعين بالتفسير العصرى؟

وبالله إذا لم نستعن بالعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها فكيف نفهم القرآن الفهم الذى يليق بعصرنا ؟ ترى هل القرآن نزل لعصر المبعث وحده؟ طبعا لا، بل نزل لكل الأزمنة والأمكنة. ومعلوم أن ما يرضى عصر المبعث لا يرضى عصرنا . لقد صيغ القرآن بحيث يعطى كل عصر ما يحتاجه ناسه، ولا تعارض بين ما يعطيه للعصر الإسلامى الأول وما يعطيه للعصر الحالى مثلا. لو أن بنت الشاطئ قالت لمصطفى محمود: أَتْقِنِ العربية قواعدَ وبلاغةً وراجِعِ أسباب النزول والأحاديث الشريفة وكتابات المفسرين القدامى قبل أن تتناول شيئًا من شرح القرآن لكان كلامها على العين والرأس. كما فاتها أنها، مثلما لم يتقن مصطفى محمود علوم اللغة

والبلاغة وأسباب النزول وما إلى ذلك كما ينبغى أن يكون الإتقان، لا تتقن هى العلوم الطبيعة والرياضية التى يحسنها مصطفى محمود بحكم تخصصه فى الطب ودراسته قبل ذلك الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والرياضيات على نحو موسع، إذ كان تعليمها لغويا أدبيا شرعيا ليس إلا. فكلاهما مقصر في جانب، ومتفوق على نظيره فى جانب آخر.

ذلك أن التفسير لا يحتاج إتقان علوم اللغة والبلاغة والقرآن فقط بل يحتاج فى الواقع كل العلوم. ومن هنا ترانى وضعت شعارا عنونت به أحد فصول كتابى: "مسير التفسير"، وهو "كل العلوم فى خدمة التفسير" من تاريخ وجغرافيا وعلم نفس وعلم اجتماع وفلسفة واقتصاد وسياسة وأنثروبولوجيا وإثنولوجيا وجيولوجيا وطب وفيزياء وكيمياء وفلك وصيدلة ورياضيات وفنون ونقد أدبى وبلاغة ولغة... إلخ. لو كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو مؤلف القرآن لما اعترضْنا على شىء مما قالته الدكتورة الفاضلة، فالقرآن عندئذ لن يحتاج شيئًا من علوم عصرنا لأن مؤلفه لم يكن يعرف عنها ولا منها شيئًا. أما، والله سبحانه هو منزل القرآن، فهذا موضوع آخر مختلف. ولا يصح أن نهاجم الاستعانة بالعلوم العصرية فى تفسيره، وإلا كان فى هجومنا إيحاء بأن معارف الله ضيقة متخلفة لا وشيجة بينها وبين معارف عصرنا، أستغفر الله.

نعم إن الاستعانة بعلوم الطبيعة والرياضيات فى تفسير القرآن قضية خلافية منذ القديم. ومن بين من أنكروا هذه الاستعانة فى عصرنا الشيخ أمين الخولى زوج بنت الشاطئ والشيخ مصطفى المراغى وسيد قطب وغيرهم. ومع هذا فعند التطبيق نجد المراغى وسيد قطب مثلا يستعينان بما كتبه علماء الطبيعة والرياضيات فى النصوص التى يفسرانها. ومن يرجع إلى كتابى: "مسير التفسير" يجد أمثلة من استعانة هذين العالمين وغيرهما ممن يذهبون مذهبهما بنصوص علمية. وإذا كان المعارضون لإدخال العلوم الطبيعية والرياضية فى تفسير القرآن

يقولون إنه كتاب هداية ليس إلا فالرد على هذا الكلام هو أن كونه كتاب هداية ليس معناه أن نقصر هذه الهداية على هداية العقيدة والخلق والسلوك فحسب، إذ الهداية أوسع من ذلك وأعم وأشمل: فهناك هداية فكرية، وهداية سياسية، وهداية اجتماعية، وهداية اقتصادية، وهداية ذوقية، وهداية صحية، وهداية إدارية. . . وهلم جرا. ومن هداية الفكر ما يلفتنا إليه القرآن من ظواهر الكون وحقائق العلم. . . إلخ.

كذلك فالقرآن مفعم بالآيات التى تدعو إلى تشغيل العقول والنظر فى الآفاق والاستزادة من المعرفة واتباع المنهج العلمى الصحيح فى التفكير والاستدلال، فليس كل كتاب الله إذن مخصصا للهداية العقيدية والأخلاقية والسلوكية دون غيرها من الهدايات. ثم إن فى القرآن آيات كثيرة تتعلق بالمعارف العلمية الطبيعية والرياضية والإنسانية، فماذا نصنع إزاءها؟ وكيف يستطيع المفسر التقليدى الذى ليس له من بضاعة إلا بضاعة اللغة والفقه والبلاغة وما إلى ذلك أن يتناولها تناولا يَشْفِى ويريح العقل المعاصر؟ وما معنى التخصص إذن؟ أم ترى القرآن كتابا ساذجا لا يستحق أن نستعين فى فهمه بألوان العلوم والفنون المختلفة؟ أفلا نخصص إذن لهذا الجانب العلمى فى القرآن بعض جهدنا فى الفهم والتفسير؟ ثم هل يمكن أن تتم هداية المسلم، وهو ضعيف علميا؟ فماذا نصنع بقوله تعالى: "قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون"؟ ثم هل قال القرآن أو النبى إن الاستعانة بالعلوم التى سوف تَجِدُّ بعد عصر النبوة حرام؟ وكيف يمكن أن يكون ذلك، والعلماء لدينا فى الإسلام هم ورثة الأنبياء؟ أليس القرآن يقول إن الذين لا يعلمون لا يمكن أن يستووا والذين يعلمون؟ فكيف تريدنا د. بنت الشاطئ أن نهمل وننبذ الاستعانة بعلوم الطبيعة والرياضيات وأمثالها؟ أتراها تفضل الجهل على العلم؟ حاشا لله.

أما الخطأ فى الاستشهاد بتلك العلوم فى تفسير كتاب الله فهو أمر وارد جدا. ولكن لا بد من الالتفات إلى أمرين: الأول أن المفسرين كثيرا ما يخطئون فى الاستعانة بعلوم اللغة والبلاغة

مثلا، ولم يتخذ أحد من هذا الخطأ تكأة للقول بالإنكار على من يستعين منهم بها . والثانى أنه إذا أخطأ المفسر الذى يستعين بعلوم العصر فهناك دائما من سيردّه إلى الصراط المستقيم. ولسوف نبين الأخطاء التى نرى أن د . مصطفى محمود قد وقع فيها لدن استعانته بتلك العلوم. ومن ناحية أخرى فإن مثل ذلك الخطإ سوف يحسب على المفسر لا على القرآن نفسه.

وأما استشهاد بنت الشاطئ رحمها الله بقوله تعالى فى سورة "لقمان": "ومن الناس من يشترى لَهْوَ الحديث لِيُضِلّ عن سبيل الله بغير علم ويتخذَها هُزُوًا . أولئك لهم عذابٌ مُهِينٌ * وإذا تتلى عليه آياتنا وَلّى مستكبرا كأنْ لم يسمعْها كأن فى أذنيه وقرا . فبشّرْه بعذاب أليم" فهو استشهاد فى غير محله. فالآية تتحدث عن مشرك هو النضر بن الحارث، الذى كان يأتى بكتب من تاريخ ملوك الفرس وقوادهم (مما رأى بعض علمائنا المعاصرين أن الإشارة فيه إلى "الشاهنامة")، فإذا رأى النبى قد جلس يدعو قومه إلى دينه مرتلا عليهم آيات القرآن الكريمة شرع هو يقرأ من الكتب المذكورة زاعما أن ما يقوله خير من قرآن محمد . فهل مصطفى محمود يتغيا ذلك؟ لا أظن. وعلى كل حال فإن أحدا لا يمكنه أن يمنعنا من النص على أخطائه وتصويبها متى ما رأينا فى كلامه أخطاء.

ومما قاله مصطفى محمود ولا أرافئه عليه وأرى أنه قد أغرق فى نزع الوتر حتى انقطع ولم ينطلق السهم إلى الهدف المنشود قوله، فى فصل "قصة الخلق" من كتابه لدى تفسير الآية ٣٩ من سورة "يس": "والقمرَ قدَّرْناه منازلَ حتى عاد كالعُرْجون القديم"، إن "العرجون هو فرع النخل القديم اليابس لا خضرةَ فيه ولا ماء ولا حياة. وهو تشبيه حرفى للقمر، الذى لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة" . فأولا ليس العرجون هو فرع النخلة القديم، بل فرع النخلة فقط، وقد يكون جديدا وقد يكون قديما . وهو حين يكون جديدا لا يكون مقوسا على عكسه عند قِدَمه، وهو ما شُبِّه به القمر حين يكون آخر الشهر مقوسا . فليس الأمر أمر جفاف بل تقوُّس.

ولو كان الأمر أمر جفاف لكان ينبغى أن يكون القمر فى غير ذلك المنزل ريان أخضر يهتز بالحياة ويجرى فيه الماء لأن القرآن يقول إنه بعد مروره بما مر به من منازل قد صار كالعرجون القديم. ومعنى هذا أنه قبل ذلك لم يكن جافا .

يقول ابن قتيبة فى كتاب "أدب الكاتب": "ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة بمنزل منها . قال تعالى: "والقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عادَ كالعُرْجُونِ القديم" . . ." . ويقول أيضا فى كتاب "الأنواء فى مواسم العرب" تحت عنوان "أسماء المنازل وهيئاتها": "وهذه المنازل الثمانية والعشرون ذوات الأنواء هى التى ذكرها الله جلّ وعزّ فقال: "والقمرَ قَدّرناه منازلَ حتى عاد كالعُرْجُون القديم" . يريد أنه ينزل كل ليلة منزلا منها حتى يصير فى آخر ليلة من الثمانى والعشرين كالعِذْق القديم. والعذق إذا قَدُمَ دقّ واستَقْوَسَ، فشُبِّه به القمرُ عند استسراره" . وفى "أنوار البديع فى أنواع البديع" لابن معصوم: "قوله تعالى: "والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم" . . . شبه الهلال فى هيئة نحوله وتقوسه بالعرجون" .

وفى تفسير الطبرى للآية ٣٩ من سورة "يس": "تأويل الكلام: وآية لهم تقديرنا القمر منازل للنقصان بعد تناهيه وتمامه واستوائه حتى عاد كالعرجون القديم. والعرجون من العذق من الموضع النابت فى النخلة إلى موضع الشماريخ. وإنما شبهه جلّ ثناؤه بالعرجون القديم، والقديم هو اليابس، لأن ذلك من العِذْق: لا يكاد يوجد إلا متقوّسًا منحنيًا إذا قَدُم ويَبِس، ولا يكاد أن يُصَاب مستوّيا معتدلا كأغصان سائر الأشجار وفروعها . فكذلك القمرُ: إذا كان فى آخر الشهر قبل استسراره صار فى انحنائه وتقوّسه نظير ذلك العرجون" .

وفى "الكشاف" للزمخشرى: "المعنى قدرنا مسيره منازل، وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كلّ ليلة فى واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، على تقديرٍ مستوٍ لا يتفاوت، يسير فيها كل ليلة من المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين، أو ليلة إذا نقص الشهر.

وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة. . . فإذا كان فى آخر منازله دقّ واستقوس، و "عَادَ كَٱلْعُرجُونِ ٱلْقَدِيمِ"، وهو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة. . . والقديم: المُحْوِل. وإذا قَدُمَ دَقَّ فانحنىٰ واصفرَّ، فشبه به من ثلاثة أوجه".

وجاء فى "تفسير التحرير والتنوير" لابن عاشور: "التقدير: فابتدأ ضوؤه وأخذ فى الازدياد ليلة قليلة ثم أخذ فى التناقص حتى عاد، أى صار، كالعرجون القديم، أى شبيهًا به. وعبر عنه بهذا التشبيه إذ ليس لضوء القمر فى أواخر لياليه اسم يعرف به بخلاف أول أجزاء ضوئه المسمّى: هلالا، ولأن هذا التشبيه يماثل حالة استهلاله كما يماثل حالة انتهائه. . . و"العرجون" العود الذى تخرجه النخلة، فيكون الثمر فى منتهاه. وهو الذى يبقى متصلا بالنخلة بعد قطع الكِبَاسَة منه، وهى مجتمع أعواد التمر. و"القديم" هو البالى لأنه إذا انقطع الثمر تَقَوَّس واصْفَارّ وتضاءل فأشبه صورة ما يواجه الأرض من ضوء القمر فى آخر ليالى الشهر وفى أول ليلة منه. وتركيب "عَادَ كالعُرجُونِ القَدِيمِ" صالح لصورة القمر فى الليلة الأخيرة، وهى التى يعقبها المحاق، ولصورته فى الليلة الأولى من الشهر، وهو الهلال".

ويكتب مصطفى محمود فى تفسير قوله جل شأنه فى الآية ٣٠ من سورة "عَبَسَ": "والأرضَ بعد ذلك دَحَاها" ما يلى: "دحاها: أى جعلها كالدحية (البيضة)، وهو ما يوافق أحدث الآراء الفلكية عن الأرض". وقد عاد إلى تلك الكلمة فى الفصل الأخير من الكتاب: "لماذا إعجاز القرآن" قائلا إن كلمة "دحا" هى اللفظة الوحيدة التى تشتمل على البَسْط والتكوير فى ذات الوقت، فتكون أدلَّ الألفاظ على الأرض المبسوطة فى الظاهر، المكورة فى الحقيقة. وهذا منتهى الإحكام والخفاء فى اختيار اللفظ الدقيق المبين". لكننى لم أجد، فى عشرات الكتب القديمة التى بحثت فيها، كلمة "دحية" بهذا المعنى. وكل ما وجدته أنها اسم

علم كاسم الصحابى الجليل دحية بن خليفة الكلبى. وفى "ديوان الأدب" للفارابى أنه "من أسماء الرجال". وفى "الروض الأُنُف فى شرح السيرة النبوية" للسهيلى أن "دحية" فى لسان اليمن هو الرئيس، وجمعه "دحاء"، وفى "المخصَّص" لابن سيده أنه "الرئيس فى قومه"، وفى "خلاصة الأثر" للمحبِّى أنه "رئيس الجند"، وفى "معجم المعانى الجامع" و"المعجم الوسيط" و"الرائد" أنه "رئيس الجند، والقِرْدَة".

وأذكر أننا قرأنا هذا الذى قاله مصطفى محمود عن الدَّحْو والدَّحْيَة، ونحن شبان صغار، فى كتاب من كتب المرحوم عبد الرازق نوفل، وأذكر أيضا أننا كنا نسمع أهل بعض العزب القريبة من قريتنا: كتّامة الغابة" التابعة لمركز بسيون بمحافظة الغربية يسمون البيضة: "دحية"، وكنا نستغرب ذلك جدا ونتضاحك منه. وقد بحثت عن هذا المعنى فى المعاجم العربية القديمة والحديثة فلم أجده. بل الدَّحْو هو البَسْط والمَدّ فى كلام العرب كما جاء فى تفسير الطبرى. يقال: دحا يدحو دَحْوًا، ودَحَيْتُ أَدْحِى دَحْيًا. ومنه قول أُمَيَّة بن أبى الصلت:

دَارٌ دَحَاها ثُمَّ أَعْمَرَنا بِها وأَقامَ بالأُخْرَى التى هى أَمْجَدُ

وقول أوس بن حجر فى نَعْت غَيْث:

يَنْفِى الحصَى عن جديد الأرْضِ مُبْتَرِكٌ كأَنَّه فاحِصٌ أو لاعِبٌ داحِى

كذلك أحب أن أقف عند قول مصطفى محمود، عن وصف شكل الأرض بالبيضية، إنه يمثل أحدث "الآراء" الفلكية. فلا أظن أنه يصح إطلاق لفظ "رأْى" على شكل الأرض. إنما هو اكتشاف لحقيقة من الحقائق.

كذلك فقوله، فى شرح الآية ٨٨ من سورة "النمل": "وترى الجبالَ تحسبها جامدةً وهى تمرُّ مَرَّ السحاب"، إن "تشبيه الجبال بسحابة هو تشبيه يقترح على الذهن تكوينا ذريا فضفاضا

مخلخلا، وهو ما عليه الجبل بالفعل. فما الأشكال الجامدة إلا وهم. وكل شىء يتكون من ذرات فى حالة حركة. والأرض كلها بجبالها فى حالة حركة. وما يقوله المفسرون القدامى من أن هذه الآية تصف ما يحدث يوم القيامة هو تفسير غير صحيح لأن يوم القيامة هو يوم اليقين والعيان، ولا يقال فى مثل هذا اليوم: "ترى الجبال تحسبها"، فلا موجب لشك فى ذلك اليوم"، قوله هذا غير صحيح. ذلك أن السياق فعلا هو سياق ما سيقع يوم القيامة من أحداث كونية وما تؤول إليه الأمور من حساب فثواب وعقاب: "ويومَ يُنْفَخ فى الصور ففزع من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، وكُلٌّ أَتَوْه داخرين * وترى الجبال تحسبها جامدةً وهى تمرُّ مَرَّ السحاب. صُنْعَ الله الذى أتقن كل شىء. إنه خبير بما تفعلون * من جاء بالحسنة فله خير منها، وهم من فزعٍ يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكُبَّتْ وجوهُهم فى النار: هل تُجْزَوْن إلا ما كنتم تعملون؟". وهذا الوصف هنا يتسق مع وصف حال الجبال يوم القيامة وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب على ما نقرؤه فى سورة "القارعة": "القارعة * ما القارعة؟ * وما أدراك ما القارعة؟ * يوم يكون الناس كالفَرَاش المبثوث * وتكون الجبال كالعِهْن المنفوش * فأما مَنْ ثَقُلَتْ موازينُه * فهو فى عيشةٍ راضيةٍ * وأما من خَفَّتْ موازينُه * فأُمُّه هاوية * وما أدراك ما هِيَهْ؟ * نارٌ حامية"، والعهن المنفوش هو الصوف المتفرق الأجزاء، وكذلك قوله تعالى فى سورة "طه": "ويسألونك عن الجبال، فقل: ينسفها ربى نسفا"، فالجبال تُنْسَف وتتطاير فى الجو، فيظن الرائى أنها كتل مدمجة بينما هى منتفشة. أما على تفسير مصطفى محمود فهل الجبال وحدها هى المكونة من ذرات تتحرك؟ طبعا لا، بل كل الجمادات هكذا. فلماذا يختص الله سبحانه الجبال بهذا الكلام دون سائر الجمادات؟ وأين فى الدنيا مرور الجبال كالسحاب؟ ومن هذا يتضح للقارئ كيف أن المسألة لا تخيف، فليكتب مصطفى محمود وغير

مصطفى محمود ما يشاء، والساحة مفتوحة للجميع ليعلق على ما كتب الرجل تصويبا أو تخطئة أو استدراكا أو إضافة. . . إلخ.

أما كلامه عن العدد ٧ وقيام كثير من ظواهر الحياة عليه فكلام سليم: فالسماوات سبع، والأرضون سبع، وألوان الطيف سبعة، والأيام تقسم سبعات سبعات هى الأسابيع، والصوت سبع نغمات، والإلكترون سبعة أفلاك، وأبواب جهنم سبعة. كما أن الله قد استوى على عرشه فى اليوم السابع بعد خلق السماوات والأرضين فى ستة أيام. ونفس الكلام يقال عن ملاحظته حول العدد ٢: فالأحياء ذكر وأنثى، والكهرباء سالب وموجب، والمغناطيسية قطبان، والذرة إلكترون وبوزيترون، ولدينا كذلك البروتون والنيوترون، وفى الكيمياء العضوية جُزَىْءٌ يمينىٌّ وجزىءٌ يسارىٌّ. وهو مصداق قوله سبحانه: "سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا تعلمون".

وهناك حديثه أيضا حول الظلمات الثلاث التى يخلقنا الله فيها داخل بطون أمهاتنا خلقا من بعد خلق: فقد ذكر ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة الغشاء الأمنيوسى. وهناك كذلك حديثه عن البحر المسجور، أى الذى تشتعل مياهه، مما نستغربه استغرابا شديدا، إذ كيف تكون نار وماء معا؟ وهو يذكر أسماء عدد من البراكين داخل البحار والمحيطات. وبالتالى فإذا جاء وعد الآخرة ونُسِفَت الجبال تدفقت حمم النار من نقطة الضعف الكبرى، وهى قيعان البحار، وأُضْرِمَت النار فى مياه البحار والمحيطات، وهذا هو البحر المسجور الذى أقسم الله به فى أول سورة "الطور".

وفى الفصل الأخير من الكتاب، وعنوانه "لماذا إعجاز القرآن؟"، نراه يفسر قوله عز شأنه فى سورة "الحِجْر": "وأرسلنا الرياحَ لواقحَ فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه، وما أنتم له بخازنين" بأن الرياح الباردة تثير سحابا، وهى تدفع السحب المكهربة إلى لقاء بعضها بعضا:

تلقى بالسحابةِ السالبةِ التكهربِ بين أذرع سحبٍ أخرى موجبةِ التكهربِ، فيحدث البرق والرعد ويسقط المطر. وما أشبه ما يحدث بالتلقيح. فهى تلاقح بين السحب، فيكون برق ورعد ومطر. وينزل المطر على الأرض فيخصبها. وهو تلقيح من نوع آخر بين الماء والأرض. وتحمل الرياح حبوب اللقاح من زهرة لتلقى بها إلى مِبْيَض زهرة أخرى، فيكون تلقيح من نوع ثالث هذه المرة، تلقيح بالمعنى الحرفى للآية. فنحن أمام كلمة صادقة مجازا، وصادقة حرفيا، وعلى أية صورة قلبتها تصدق معك. وهى بعد هذا كلمة جديدة وغريبة، وصفة مبتكرة حينما توصف بها الرياح. . . وكل هذا العلم التفصيلى فى تكهرب السحاب وانتقال حبوب اللقاح لم يكن معلوما أيام نزول الآية. وحمل المفسرون معنى الكلمة على أنه مجاز. فالرياح تثير السحاب، وتسقط المطر على الأرض فتخصبها. فهى لواقح بالمعنى المجازى. ولكن العلم وضع أيدينا على كنوز البيان فى داخل هذه الكلمة، فإذا بالصدق فيها مجازى وحرفى وجزئى وكلى".

أما حديثه عن طبيعة الشجرة التى نهى الله آدم عن الاقتراب منها وتفسيره إياها بأنها شجرة الجنس والموت فهو اجتهاد ليس منه حرج. وفى نفس الوقت نجده لا يستبعد أن تكون شجرة حقيقية تؤكل فعلا فتؤدى إلى إطلاق الهرمونات واشتعال الرغبة الجنسية التى تؤدى إلى المخالطة بين آدم وحواء بحيث تكون الشجرة مجازية وحقيقية فى ذات الوقت. ومثله القول بأن الهبوط من الجنة ليس معناه أن آدم وزوجته هبطا من السماء إلى الأرض بل انتقلا من مكان فى الأرض إلى مكان آخر، مدللا على ذلك بأن الجنة تطلق فى القرآن على البستان، وأن الهبوط يطلق على مجرد الذهاب من مكان إلى مكان غيره. ولكل منا أن يختار التفسير الذى يراه أقرب إلى العقل والضمير دون حرج. فمن المستحيل القطع هنا بتفسير واحد. وقد غبر علىَّ

وقت كنت أتصور أن المقصود بالشجرة هنا هو شجرة عصيان الله جل وعلا. فهل فى هذا إثم؟ لا أظن ذلك.

كذلك كان للدكتور مصطفى محمود موقف من الملاحدة، الذين ينفون وجود الإله ويزعمون أن العالم قد أتى من لاشىء وتطوَّرَ بفعل عوامل داخلية لا من خارجه. أى أن تطوره ذاتى لا يحتاج إلى إله. فمفسرنا العصرى يقف أمام ظواهر الطبيعة مؤكدا أنه لا بد أن يكون وراءها إله خالق، ويروى حكاية افتراضية يقرب بها إلينا أمر الخلق، الذى ينكره كثير من الناس ملخِّصها أننا لو كنا نعانى نقصا خطيرا فى حاسة البصر، ورأينا عربة اليد وعربة الحنطور والسيارة والقطار والديزل دون أن نرى الإنسان لقلنا إن هذه أشياء تطور بعضها عن بعض على سلسلة من المراحل ودللنا على هذا بما بينها من تشابه تشريحى، إذ هى مكونة من الحديد والخشب والجلد، ولكل منها عجل تسير عليه... إلخ، ولأنكرنا وجود صانع لها.

وهو كلام جيد، ويدل فيما أرى على إيمان الرجل ومنافحته عن الإسلام وأنه لا ينوى شرا. ومن الغريب قول الملحدين بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته، مما يعنى أن السبب لاحق للمسبَّب لا العكس. أى أن وجود الكون قد وقع أوّلا، ثم وقع السببُ فى هذا الوجود بعد ذلك، ثم جاء دور البحث عن السبب فى داخله، وهو ما يجافى المنطق تمام المجافاة. فهذا الكون المادى الذى نعرفه هو كون بلا عقل ولا إرادة يمثّل فيه الإنسان أرقى كائناته، والإنسان لا يعلم من أمور الكون إلا التفافيت التى لا تسمن ولا تغنى من جوع والتى أنفق فى تحصيلها على تفاهتها وتبعثرها ملايين السنين كما يقول علماء الطبيعة. فإذا كان هذا هو حال أرقى كائنات ذلك الكون، فما بالنا بسائر الكائنات، تلك التى لا تعقل كما يعقل الإنسان ولا لها إرادة كالتى لديه من واقع قدرته على تغيير كثير من مظاهر حياته وتطويرها باستمرار على عكس بقية الكائنات، جمادات كانت أو حيوانات.

وإذا كان هذا هو حال أرقى الكائنات فى هذا الكون، فكيف يتصور متصور أن هذا الكون الهائل باتساعه السحيق الذى يقاس بملايين السنين الضوئية تبعًا لمحدودية معارفنا الحالية، ثم غدًا بالمليارات من تلك السنين، وبعد غد بالتريليونات منها مع اتساع دائرة معارفنا، وكذلك بما يحويه من معارف وأسرار وما يقوم عليه من نظام دقيق معقد يقف الإنسان أمامه حائرا بائرا مبهورا محسورا ولا يستطيع فى معظم أحواله إزاءه حولا ولا طولا بل يستسلم له استسلام الصاغر الذليل مهما أوتى من قوة ومن علم ومن مال ومن معونة كما فى حالة كثير من الأمراض، وكما فى حالة الموت، وكما فى حالة الزلازل والبراكين، وكما فى حالة العجز عن مواجهة بعض مسائل الفكر والعلم والعمل، وكما فى حالة فقدان الذاكرة، وكما فى حالة الجهل بالغيب، وكما فى حالة الخيانة الزوجية مثلا، كيف يتصور متصور أن هذا الكون بوضعه الذى وصفناه هو وجود شيطانى ونظام عشوائى لا يحتاج إلى إله؟ هل يمكن أن يتفوق الأدنى فى كل شىء (وهو الكون المادى العاجز تمام العجز) على الأعلى (الذى هو الإنسان ذو القدرات مهما تكن هذه القدرات موهوبة ومحدودة ونسبية) ويتحكم فيه ويأخذه يمينًا ويسارًا وأمامًا ووراءً وفوقًا وتحتًا كما يحلو له، والأعلى فى كل الأحوال صاغر عاجز عن أن يقول له: لا؟ بل قبل ذلك كيف يا ترى يكون الأعلى هو مِنْ خَلْق الأدنى؟ وأى أدنى؟ إنه الأدنى الأعمى الأصم الأخرس الأشلّ الذى لا يملك من أمر نفسه ولا من أمر غيره شيئًا البتة!

وإذا كانت الأسباب عنصرا أصيلا من عناصر الكون لا يمكن أن يتم شىء فيه بدونها فمن الذى جعلها هكذا؟ ثم من الذى قضى باستثنائها فى حالة الكون فى مبتدإ أمره؟ أسئلة لا يحاول الملاحدة أن يقفوا إزاءها قليلا ليجيبوا عليها، والسبب أنها تفضحهم وتكشف زيف منطقهم وترينا تهافتَ عقولهم وفجاجةَ تفكيرهم وتسرُّعَهم ونزقَهم وأن الأمر عندهم لا يستند لغير نزعة التمرد ليس إلا! والذى جعل الأمر هكذا هو الله سبحانه، فهو السبب الحقيقى لكل

شىء، إلا أن حكمته سبحانه اقتضت أن تكون هناك فى ذات الوقت عوامل قريبة مباشرة نعزو لها نحن السبب فى وجود ما نراه يترتب عليها كلما تحققت هذه العوامل. ولأن حكمته وإرادته عز وجل هى التى تقف وراء هذا النظام كان من المستحيل على أحد من المخلوقات كَسْر هذه العِلّية، وإلا لكان فى مقدور أى منا متى ما توجهت إرادته إلى شىءٍ ما أن يقع هذا الشىء كما يريد بالضبط. لكنْ ما أقلَّ استطاعتنا إنجاز ما نتطلع إليه! وما أكثر ما نعجز عن ذلك! وهذا كله فى الأمور الجزئية لا غير، أما أن نغير النظام ذاته، أى القوانين التى يسير عليها الكون، فكلا وترليون كلا! فلماذا كان ذلك يا ترى إلا أن تكون هناك إرادة أقوى من إرادتنا؟ بل لماذا وُجِد الكون أصلا إن لم تكن هناك قوةٌ خالقةٌ أوجدته بعد أن لم يكن له وجود؟

وقد يحتج الملاحدة، كما فعل إسماعيل أدهم مثلا فى كتابه: "لماذا أنا ملحد؟"، بأن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها فى عالم الفكر الإنسانى لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس: التبرير، ومن هنا فإنك لا تجد لكل الأدلة التى تقام لأجل إثبات وجود السبب الأول قيمة علمية أو عقلية. بل الواقع أن العقل البشرى إنما يفكِّر فى وجود إله لهذا الكون بسبب الوهم والجهل والخوف الذى يشعر به ويعانيه أمام عظمة هذا الكون واتساعه الهائل الذى لا يمكن أن يتخيله متخيل وما فيه من أسرار وتعقيدات وما يقع فيه من مصائب وويلات! لكن من يا ترى الذى جعل البشر أمام هذه الأشياء يفترضون وجود إله ما دام هذا الإله ليس له وجود أصلا؟ ترى من الذى ركَّب الكون على هذا النحو بحيث يبحث الإنسان عن إله إذا لم تكن هناك ألوهية ولا يحزنون؟ إن الإنسان مثلا إنما يشعر بالجوع لحاجته إلى الطعام الذى هو موجود، ويشعر بالشهوة الجنسية لحاجته إلى المرأة التى هى موجودة. وكان قبل الطيران كذلك يتوق إلى أن يسبح فى الفضاء، وكانت

سباحة البشر فى الفضاء موجودة هى أيضا فى ضمير الكون، أى كان وجود طيرانه حينذاك وجودا بالقوة لا بالفعل، ثم جاءت محاولات الإنسان وتجاربه واجتهاداته فحولت هذا الوجود من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل. وقس على حاجات الإنسان التى ذكرنا طرفا منها رحلة بعض الطيور والأسماك لمسافة آلاف الأميال فى مواسم معينة للتزاوج أو للبحث عن الغذاء . . . وأستطيع أن أمضى فى ضرب هذه الأمثلة فلا أنتهى أبدا، فلماذا يا ترى يريد الملاحدة استثناء الشعور بالحاجة إلى الله من هذه الظاهرة، بل قل: من هذا المبدإ؟

إن الملاحدة ينفون وجود الله ويؤكدون أن ما نشاهده فى الكون من نظام دقيق معقد باهر يرجع إلى أن المصادفة التى تُخْضِع العالم لقانون عددها الأعظم تعطى حالات إمكان. ولما كان العالم عندهم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض فى وحدات وتتداخل وتتناسق ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم. . . وهكذا، خاضعة فى حركتها هذه لحالات الإمكان التى يحددها قانون العدد الأعظم الصدفى، وهم يشبهون الكون بمطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف، وقد أخذت هذه الحركة فى الاصطدام فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا فى دورة لانهائية، فلا شك أنه فى دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذى تلوته الآن، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهائية لابد أن يخرج كتاب "أصل الأنواع" وكذا "القرآن" مجموعا منضَّدًا مصحَّحًا من نفسه. ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهائية، فإذا اعتبرنا (ح) رمزا لحالة الاحتمال و(ص) رمزا للنهائية كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات: ح = ص. وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابا من هذه الكتب له وحدته ونظامه وتنضيده إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة.

لكن الملاحدة هنا يقفزون فوق مسألة خلق العالم فيقفوننا مرة واحدة أمام نظام العالم دون أن يجيبوا على السؤال الخاص بخالق الكون، وكأن الكون بطبيعة حاله فى غنى عن خالق يوجِده بعد إذ لم يكن موجودا . إن المادة التى يتصورون أنها كانت موجودة منذ الأزل لا يمكن أن تكون مستغنية عن مُوجِدٍ لها . ذلك أنها، كما نعرف، عمياء بكماء شلاء عاجزة عجزا تاما فلا إرادة لها ولا قدرة ولا توجّه، وكائنٌ مثلها لا يمكن أن يكون هو الموجود المطلق الذى لا أول له ولا آخر ولا يستطيع الزمان أو المكان أو الضعف أو العجز أو الخوف أو المرض أو الموت أن يَحُدّه ويقيّده على أى نحو من الأنحاء، على عكس الوجود الإلهى الذى لا بد منه كى يستقيم أمر الكون وأمر العقل والمنطق على السواء، وإلا ظللنا نرجع إلى الوراء القهقرى دون جدوى ودون توقفٍ باحثين عن كائنٍ يكون هو الكائن المطلق الذى لا يسبقه فى الوجود شىء، ويحتاج إليه كل كائن آخر فى الوقت الذى لا يحتاج هو إلى أى كائن سواه. ترى أيهما هو الذى يقضى به المنطق إلها يُوجِد ما سواه ولا يُوجِده ما سواه؟ الله بكل صفات الكمال والقدرة المطلقة التى نعرفها ويوجبها العقل والمنطق أم المادة العمياء البكماء الشلاء العاجزة التى نراها ونلمسها ونشمها ونسمعها من حولنا ولا نتصور أبدا أنها يمكن أن تكون قد خلقتنا ؟

ومن يا ترى الذى اقتضى دفع المادة العمياء البكماء الشلاء العاجزة فجزّأها إلى تريليونات تريليونات الأجزاء بعد أن كانت فى بداءة أمرها كتلة سديمية واحدة، وحرّكها بعد أن كانت ساكنة لا تَرِيم؟ ومن الذى اقتضى أن تكون هناك تلك الاحتمالات اللانهائية التى يشير إليها الملاحدة؟ ومن الذى اقتضى أن يكون من بين تلك الاحتمالات اللانهائية احتمال انتظامها على النحو الذى هى عليه الآن؟ ثم من الذى اقتضى أنها متى ما وصلت إلى تلك الحالة تثبت عليها ولا تتحول عنها ؟ وقبل ذلك من الذى اقتضى أن يكون هذا

النظام مباطنًا للكون أصلا؟ وقَبلَ قَبْلِ ذلك من الذى خلق هذه المادة العمياء البكماء الصماء الشلاء العاجزة؟ كل هذه أسئلة يتم تجاهلها ظنا من المتجاهلين أنهم يستطيعون أن يدلّسوا بهذا التجاهل على الآخرين.

ويقول ألبرت أينشتاين فى هذا الموضوع: "مَثَلُنا إزاء العالم مَثَلُ رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئًا، فلما أخذ فى مطالعته وتدرج من ذلك لدرسه وبان له ما فيه من أوجه التناسق الفكرى شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئًا غامضا لا يصل لكُنْهه. هذا الشىء الغامض الذى عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه، فإذا ما ترقى به التفكير عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقرى أبدعه. كذلك نحن إزاء العالم، فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئًا غامضا لا تصل إلى إدراكه عقولنا . هذا الشىء هو الله" . ويقول السير جيمس جينز الفلكى الإنجليزى الشهير: "إن صيغة المعادلة التى توحّد الكون هى الحد الذى تشترك فيه كل الموجودات. ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة الكون كانت لنابه. ولما كانت الرياضيات تفسر تصرفات الحوادث التى تقع فى الكون وتربطها فى وحدة عقلية فهذا التفسير والربط لا يحمل إلا على طبيعة الأشياء الرياضية. ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبحث عن عقل رياضى يتقن لغة الرياضة يرجع له هذا الكون. هذا العقل الرياضى الذى نلمس أثاره فى الكون هو الله" . وكما يرى القارئ فالعالمان المذكوران يجريان مع العقل والمنطق السلس. ونحن نضيف أنه ما دام لكل شىء سبب يقف وراء إيجاده، وأنه كلما كان الشىء الموجود ضخما معقدا باهرا كان مُوجِدُه أَمْعَنَ فى المقدرة والإرادة والتنظيم وما إلى ذلك، وأن الكون باتساعه الهائل الذى لا تحيط به الظنون ولا الأوهام، وبنظامه المعقد العديم النظير الذى يصيب متأمله بالدوار والانبهار، يقتضى أن يكون موجدُه من القدرة والإرادة والتنظيم على نحوٍ لا يضاهَى ولا يُعْرَف له حدود ينتهى إليها ولا يستطيع تجاوزها .

لكن الملاحدة يرون أن هذا احتمالٌ محضٌ، لأنه يصح أن يكون خاضعا لحالة أخرى ونتيجة لغير العقل. ومَثَّلُهم عن المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعا لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة. وهذا خطأ لدن الملاحدة لأن العالم إن كان نظام ما هو واقع خاضعا لنظام ما هو ممكن، فهو حالة احتمال من عدة حالات، والذى يحدد احتماله قانون الصدفة الشامل لا السبب الأول الشامل. ومثل المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعا لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة. لكن هذا القول منهم سفسطة محضة لأنه يستثنى بذلك حالة الكِتَاب من النظام الكونى الشامل الذى يقوم على أن وراء كل مسبَّبٍ فى هذا الكون سببًا، ووراء كل موجود مُوجِدًا، وهو ما لا يمكن أن يوافقهم عليه أى صاحب عقل يحترم نفسه! وإلا فليأت لنا الملاحدة بمثال واحد لكتاب تألف من تلقاء نفسه. ثم من يا ترى الذى خلق قانون المصادفة هذا؟ وحتى لو كانت نظرية الاحتمالات بالمعنى الذى يقصدونها هنا ويبنون عليه إلحادهم صحيحة، وهى غير صحيحة كما وضحنا حين قلنا إن هذه النظرية تقتضى أن يكون وراءها كائن يخلقها وينظِّم كونه على أساسها، فما الذى يجعلنا نترك الاحتمال الذى لا نعرف سواه لأننا لم نر سواه، ونتشبث باحتمال لم نَخْبُره ولم يمرّ بنا فى تجربة من تجارب الحياة، وإنما نفترضه افتراضا ونعرف أنه (إن صح، وهو لن يصح كما قلنا) فإنه يحتاج إلى ملايين السنين، وربما لا يتحقق رغم ذلك كله بعد مرور تلك الملايين من السنين؟ إن العناد هو وحده الذى يسيِّر عقول الملاحدة فيجعلهم يتركون الطريق الواضح اللاحب المعبَّد المطروق الذى يوصِّل سالكه إلى غايته، إلى طريق مهلك فى بيداء مُعَمّاة متناوحة المسافات من يحاول اجتيازها يضل الطريق!

وفى فصل "لماذا إعجاز القرآن؟" من كتاب مصطفى محمود نجده يتناول بيت العنكبوت قائلا إن هناك سرا بيولوجيا كشف العلم عنه فيما كشف لنا مؤخرا . . . فالعنكبوت الأنثى

هى التى تبنى البيت وتغزل خيوطه، وهى الحاكمة عليه، وهى تقتل ذكرها بعد أن يلقحها وتأكله. . . ولهذا يعمد الذكر إلى الفرار بجلده بعد أن يلقح أنثاه ولا يحاول أن يضع قدمه فى بيتها . وقد هبت بنت الشاطئ تسفه رأيه قائلة: "يعرف المبتدئون من طلاب العربية أن القرآن جرى هنا على لغة العرب، الذين أنثوا لفظ "العنكبُوت" من قديم جاهليتهم الوثنية كما أنثوا مفرد "النمل والنحل والدود" فلم يقولوا فى الواحد منها إلا "نملة ونحلة ودودة" . وهو تأنيث لغوى لا علاقة له بالتأنيث البيولوجى كما وهم المفسر العصرى. . . كان أى عربى وثنى من أجلاف البادية ينطق بها على التأنيث، فلا نتصور أن فى ذلك إشارة علمية إلى ما اكتشفه عصرنا من بيولوجيا الحيوان" .

والواقع أن ملاحظة د . عائشة عبد الرحمن تحتاج إلى تفصيل: فالعنكبوت تذكَّر وتؤنَّث، وإن كان التأنيث هو الغالب. ومن النصوص التى ذُكِّر العنكبوتُ فيها قول خَلَفٌ الأحمر فى الرُّتَيْلاء:

ابعـثْ لـه يـا ربِّ ذات أرجـلِ ... في فمهـا أحجـنُ مثـلُ المنجـلِ
دهمـاء مثـلَ العنكبـوتِ المُحْـوِلِ ... تأخـذهُ مـن تحتـهِ ومـن عَـلِ

وقول ابن عبدل:

عَـشَّشَ الْعَنْكَبُـوت في قَعْـرِ دَنّـى ... إنَّ ذا مِـنْ رَزِيّتـى لَعَظِـيمْ
ليـتني قـد غَمَـرْتُ دَنِّـىَ حتَّـى ... أُبْـصِرَ العَنْكَبُـوتَ فيـهِ يَعُـومْ

وقول ابن رشيق القيروانى:

وبيـتُ البَـدْرِ أَوَّلُـه خـرابٌ ... فكَلَّفَـه عليـه العَنْكَبُـوتُ

وقول الباخرزى:

يغـصُّ بالقـارِ جَـوْفُ دَنّـى ... ويـسكنُ العنكبـوتُ كاسـى

وقول الصرصرى:

فغَمَى عليه العنكبوتُ بنسجه وظلَّ على البابِ الحَمَامُ يبيضُ

وقول صفى الدين الحِلّىّ:

إلى أن عَلاهُ غُبارُ المطالِ وَخَيَّمَ مِن فَوقِهِ العَنْكَبوتُ

وقول ابن دانيال الموصلى:

جاذَبَنيها العنكبوتُ واعتلقْ

وقول محمود سامى البارودى:

وَسَجَّفَ العَنْكَبُوتُ الغارَ مُحْتَفِيًا بِخَيْمَةٍ حاكَها من أَبدَعِ الخِيَمِ

وقول أحد الشعراء:

على هَطّالِهم منه بيوتٌ كأن العنكبوت هو ابتناها

وفى "الحيوان" للجاحظ: "إذا أحسَنَ العنكبوتُ نسْجَ ثَوبِه، وهو من أعجب العجب، لم يحسن عملَ بيت الزنبور"، "إذا أراد العنكبوت السفادَ جلبت الأنثى بعض خيوطِ نسْجها من الوسط. . .". وفى "البدء والتاريخ" للمقدسى: "روى الواقدي أن الله عز وجل بعث العنكبوت، فضرب على باب الغار". وفى "البداية والنهاية" لابن كثير "أن العنكبوت سدَّ على باب الغار ليعمي الله عليهم مكانه". وفى "البصائر والذخائر" لأبى حيان التوحيدى: "قال ابن كناسة: لما صُلِب زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما ما أمسى حتى نسج العنكبوت على عورته"ن وفى "المخصص" لابن سيده: "والعَكْش: التجمُّع. وبه سمّي العنكبوت: عُكَاشا". . . إلخ.

أما إذا أريد استخدام كلمة لكل جنس فأمامنا عندئذ "عنكب" للمذكر، و"عنكبة" للمؤنث. وعلى هذا فمن الممكن أن يكون القرآن المجيد قد أنث "العنكبوت" إرادة إلى لفت النظر للحقيقة التى لم تكن معروفة آنذاك، وهى أن الأنثى هى التى تبنى البيت. وبالمناسبة

فقد تناول محمد لطفى جمعة هذا الموضوع وقال نفس الكلام قبل ذلك بعشرات السنين فى كتابه: "نظرات عصرية فى القرآن الكريم"، الذى مات وتركه مخطوطا، ثم نشره ابنه المستشار رابح لطفى جمعة عام ١٩٩١م.

وفى فصل "أسماء الله" يورد مصطفى محمود قوله تعالى فى سورة "آل عمران": "أفغَيْرَ دينِ الله يَبْغُون، وله أَسلمَ مَنْ فى السماوات والأرض طَوْعًا وكَرْهًا، وإليه يرجعون؟"، ثم يقول معلقا عليها: "الكل أسلم الأمر للقوانين الإلهية التى تجرى على سننها الحياة. ونعرف الآن الكثير من هذه القوانين مثل قانون الضغط الأزموزى وقانون التوتر السطحى وتماسك العمود المائى والتوازن الكهربائى والأيونى فى المحاليل... والكثير غيرها مما تجرى الحياة على وفاقها ويطيعها كل مخلوق ويسلم لها طوعا وكرها"، فتأتى المرحومة بنت الشاطئ فى فصل "بيت العنكبوت" من كتابها الذى نحن بصدده لتعترض على هذا الكلام بقولها: "استنبط المفسر العصرى ما لم يخطر على بال أحد قبله من القوانين الإلهية التى نعرف الكثير منها مثل قانون الضغط الأزموزى وقانون التوتر السطحى وتماسك العمود المائى... فأَنَّى للنبى الأمى أن يعرف هذه القوانين، فضلا عن أن يبينها للناس كما بينها هذا المفسر العالم؟".

ولست مع بنت الشاطئ رحمها الله. فمحمد ليس هو مؤلف القرآن حتى نقول: أَنَّى له أن يعرف هذه القوانين؟ إن صاحب القرآن هو رب الكون، الذى يعرف كل شىء والذى صاغ القرآن على نحو يمكن أن نفهمه من خلاله فهما صحيحا ومتنوعا تبعا لكل عصر. وفى عصر النبى فهم الصحابة فهما بسيطا أن المخلوقات جميعا خاضعة لله سبحانه. وفى عصرنا الحالى نفهم أن استحالة الخروج من قبضة الله هو أن هناك قوانين يسير عليها الكون كله لا يستطيع أى شىء أو أى أحد فيه أن يتفلص منها. وهذه القوانين هى كذا وكذا وكذا مما ساق مصطفى محمود بعضه فى كتابه. فما وجه الخطإ هنا؟ ترى هل يمكننا حاليا نبذ السيارة والقطار

والطائرة والرجوع فى أسفارنا إلى الحمير والبغال والخيل؟ فكذلك لا يصح أن ننبذ علوم العصر عند تفسيرنا للقرآن. وكل المطلوب هو ألا نعتسف الاستعانة بتلك العلوم فنفرضها فرضا على النص دون أن يكون بينه وبينها صلة. ونحن لم نتأخر عن التنبيه إلى ما نرى أنه خطأ فى كلام مصطفى محمود فى هذا السبيل. أما فى هذا المثال فلا أظن أن الرجل قال شيئًا يؤاخَذ عليه.

هذا عن موقف بنت الشاطئ وأمثالها ممن يرفضون اللجوء إلى علوم العصر فى تفسير القرآن الكريم، وإن كانت قد خففتْ بعض التخفيف من موقفها هذا فى موضع من كتيبها الذى بين أيدينا على ما سنوضح بعد قليل. وعلى الشاطئ الآخر هناك من يوافق على التفسير العلمى لآيات القرآن. وممن رحَّب بالاستعانة فى تفسير القرآن بعلوم الطبيعة والرياضيات وتحمس لها من المصريين وحدهم فى العصر الحديث عبد الله (باشا) فكرى وزير المعارف فى القرن التاسع عشر، ومصطفى صادق الرافعى، وعبد العزيز (باشا) إسماعيل ود. توفيق صدقى ود. محمد أحمد الغمراوى والأستاذ حنفى أحمد والأستاذ عبد الرازق نوفل والأستاذ عبد العزيز سيد الأهل والأستاذ على عبد العظيم ود. السيد الجميلى ود. مصطفى محمود ود. محمد أحمد الشهاوى ود. منصور حسب النبى ود. زغلول النجار. ولكل واحد من هؤلاء تقريبا مساهمة فى هذا المجال. وهناك مواقع متعددة خاصة بتفسير الآيات التى تتصل بالعلوم الطبيعية والرياضية والنفسية وما إلى هذا منشورة على المِشْبَاك، وفيها بحوث ودراسات يعمل أصحابها على أن يتناولوا كل شىء من ذلك فى كتاب الله بالبحث والدرس.

وما دام التفسير العلمى لا يصادم الآية فى لغتها ولا يلويها عن سياقها أو عن معناها الذى يحكم به العقل السليم فأهلا به وسهلا ومرحبا. أما الظن بأن القرآن إنما نزل يخاطب العرب المعاصرين للرسول وحدهم فهذا غير صحيح، إذ هو يخاطب البشرية كلها منذ عصرهم إلى

أبد الآبدين. وما دام العلم يتقدم كل يوم ويقفز بخطاه الجبارة فلا بد أن نستعين به فى فهم هذا النص الإلهى المعجز. والله سبحانه وتعالى ليس عربيا ولا هو ينتمى إلى عصر المبعث، بل هو سبحانه فوق الزمان والمكان والأجناس والأعراق والثقافات، وكلامه أزلى أبدى. والذى أومن به، كما سبقت الإشارة، أن النص القرآنى قد صيغ صياغة تسمح بفهمه فهما متجددا وسليما فى كل عصر. ونحن نعرف أن للحقيقة وجوها مختلفة، وإذا لم يكن فى كلام الله تلك الشمولية ففى أى كلام يا ترى تكون؟ ولقد سبق أن ضربت أمثلة على ضرورة الاستعانة بالعلوم الطبيعية والفلسفية والرياضية فى فهم نصوص قرآنية لا يمكن فهمها من قِبَل العقل الحديث بدونها. كما أن المُحْدَثين والمعاصرين قد استحدثوا من الدراسات القرآنية ما لم يكن يخطر على بال أحد، فكيف يقال إن إحساسهم البلاغى بجمال العبارة القرآنية أضعف من إحساس عرب المبعث؟

وقد خففت د. بنت الشاطئ رحمها الله قليلا من رفضها تفسير القرآن بالاستعانة بعلوم العصر فى الفصل المسمى: "دفاعا عن منطق عصرنا وكرامة عقولنا" من كتابها عن "القرآن والتفسير العصرى" كما ذكرت قبل قليل، إذ قالت: "قد أفهم أن يتكلم طبيب فيما يفهمه من آيات قرآنية يمكن أن تتصل بالطب، وأن يكتب خبير زراعى فيما يفهمه من آيات القرآن فى النبات والفاكهة والزرع ولواقح الرياح، وأن يلتفت خبير كيميائى إلى آية القدرة فى السماء رفعها الله بغير عَمَدٍ تَرَوْنَها وما فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار من آيات لأولى الألباب. قد أفهم هذا كله ومثله معه، ولكن الذى لا أفهمه وما ينبغى لى أن أفهمه هو أن يجرؤ مفسرون عصريون على أن يخوضوا فى كل هذا فيخرجوا على الناس بتفاسير قرآنية فيها طب وصيدلة وطبيعة وكيمياء وجغرافيا وهندسة وفلك وزراعة وحيوان وحشرات وجيولوجيا وبيولوجيا وفسيولوجيا وتكنولوجيا، إلا أن أتخلى عن منطقِ عصرى وكرامةِ عقلى فآخذ فى

المجال العلمى بضاعة ألف صنف معروضة فى الأسواق، وإلا أن أتخلى عن كبرياء علمى وعزة أصالتى فأعيش فى عصر العلم بمنطق قريتى حين يفد عليها الباعة الجوالون بألف صنف يروج لها ضجيجٌ إعلانىٌّ بالطبل والزمر عن كل شىء لكل شىء، أو "بتاع كله" فى فكاهتنا الشعبية الساخرة بالادعاء".

كذلك نرى د. بنت الشاطئ فى هذا السياق تهاجم الإسرائيليات، ولا صلة بين الإسرائيليات وبين التفسير بعلوم العصر، فكلا الأمرين بعيد عن الآخر بعدا شديدا. بل قد تكون فى الإسرائيليات نفع كبير لمفسر القرآن. وأضرب مثلا واحدا للتدليل على صحة ما أقول. فقد أنكر نصارى اليمن على القرآن القول بأن مريم هى أخت هارون مع بعد المسافة الزمنية بينهما بمئات السنين. وقد كان رد النبى عليه السلام على هذا الإنكار حين أبلغه به المغيرة بن شعبة أن القوم كانوا يَتَسَمَّوْن بأسماء صلحائهم. وهذا كلام صحيح تماما، لكن الشاغبين لا يسكتون ويظلون حتى عصرنا هذا يلوكون هذا الموضوع. وقد خطر لى أن أستعين بـ"دائرة المعارف الكتابية"، التى كتبها كبار رجال دينهم وعلمائهم فوجدت فى مَادَّتَىْ "أخ" و"أخت" أن الكتاب المقدس لا يقتصر فى استعمالهما على الأخ والأخت اللذين نعرفهما بل يتوسع فيهما توسعا هائلا بحيث تدخل فيها هذه العبارة القرآنية بكل أريحية لا تحت بند واحد بل تحت بنود مختلفة. فكما يقول المثل العامى فى مصر: "مِنْ دَقْنُه وافْتِلْ لُهْ". فأنا لم آت بشىء من عندى ولا من عند علمائنا بل من كتابهم المقدس ذات نفسه. أى أن الإسرائيليات أثبتت أنها قد تكون ذات نفع عظيم فى بعض الأحيان.

كما أوردت بنت الشاطئ، فى فصل "هذا القرآن" من كتابها المذكور، كلام السيوطى فى وجوب تمييز الصحيح من العليل الذى اختلط به وعدم الخروج عما قرره السلف الصالح ومن ينبغى الرجوع إليهم فى التفسير. لكن هل احتكر القدماء الصواب فلم يخرجوا عنه ولم

يخرج عنهم؟ لا بل لهم أخطاء فادحة كما لهم روائع وبدائع. والسيوطى نفسه أول من لم يلتزم بنصيحته، إذ له كتاب فى التفسير بالمأثور أفعمه بكل ما هب ودب فجاء مثقلا بما لا يصح.

رب واحد

لمصطفى محمود فصل فى كتابه الذى نحن بصدده عنوانه "رب واحد ودين محمد" تناول فيه عدة قضايا تتعلق على نحو أو آخر بهذا العنوان. ومن بين ما تناوله رحمه الله قضية الكتب والأديان السماوية السابقة على الإسلام. قال غفر الله له: "وجميع الكتب السماوية من توراة وإنجيل وقرآن هى فى صورتها التى نزلت بها كتب توحيد تأمر بالتوحيد . ويقرر القرآن فى وضوح لا لبس فيه أن جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل البعثة المحمدية على هُدًى إذا التزموا بالتوحيد وأن لهم أجرهم يوم القيامة. وأكثر من ذلك يقرر أنه حتى الذين توجهوا إلى الشمس على أنها رمز وآية من آيات الله، وهم الصابئون أمثال أخناتون، كانوا فى زمانهم على دين، ولهم أجرهم. وبالمثل اليهود قبل مجىء المسيح، والنصارى قبل مجىء محمد . كل هؤلاء لهم مغفرة وأجر: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعَمِلَ صالحا فلهم أجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون" . . . " .

وقبل أن أدخل على خط القضية الأساسية أود أن ألفت الانتباه إلى قوله رحمه الله: "وجميع الكتب السماوية من توراة وإنجيل وقرآن هى فى صورتها التى نزلت بها كتب توحيد تأمر بالتوحيد"، إذ قد يوحى هذا الكلام بأن القرآن قد لحقه أو يمكن أن يلحقه ما لحق الكتابين الآخرين من نسيان بعض ما فيه أو تحريفه. وهذا غير صحيح، إذ تكفل الله سبحانه بحفظ كتابه الأخير من أى تغيير، فظل كتابا نقيا صافيا كما نزل من عند الله بالتمام والكمال.

ويمكن أخذ فكرة عما حدث بعد تدخل اليد البشرية فى بعض الكتب السماوية السابقة فيما يخص الذات الإلهية. ففى العهد القديم نجد كاتب سِفْر "التكوين" يقسم النوع الإنسانى إلى أولاد الله وبنات الناس. وهو كلام عجيب، فالله سبحانه ليس له أولاد أو بنات.

والأولاد والبنات جميعا هم أولاد الناس وبناتهم دون أى فرق بين ذكر وأنثى. كذلك يصور السِّفْرُ ذاتُه اللهَ سبحانه وهو يبحث عن آدم، الذى اختبأ منه عز وجل إثر عصيانه وأكله من الشجرة المحرمة وانكشاف عورته، وكأن الله إنسان يمكن أن يختفى منه آدم فلا يعرف أين هو، ويضطر لمناداته إلى أن عرف أين اختبأ. وفى موضع آخر من نفس السفر نرى الله يتندم على خلقه الجنس البشرى، ويبلبلهم من ثم من خلال تكثير لغاتهم بدلا من أن تكون لهم لغة واحدة يتفاهمون بها جميعا بكل سلاسة. كذلك نشاهد فى السفر ذاته مصارعة بين الله ويعقوب فى إحدى الليالى بالعراء كانت الغلبة فيها ليعقوب، الذى أمسك بالله إمساكة لم يستطع سبحانه التفلص منها، إلى أن حانت له فرصة فضرب يعقوب على حق فخذه، فتألم وانشغل عنه وأطلقه، ولولا ذلك لظل فى قبضة يعقوب لا يستطيع التخلص من قبضته المحكمة.

وواضح أن د. مصطفى يقول بنجاة أتباع الديانات السابقة قبل مجىء الإسلام أيام كانت كتبهم مصونة لم يتطرق إليها أى عبث. وهو ما يفهم منه أنهم، بعد مجىء الإسلام، لم يعد مقبولا منهم إيمانهم بأديانهم السابقة على أى وضع. فاليهود والنصارى والصابئون الناجون، حسب فهمه للآية، هم اليهود والنصارى والصابئون فى العصر الذى نزل فيه دين كل منهم حين كان كتابهم سليما لم يمسسه ماسٌّ بتبديل أو تحريف. لكن ألا يمكن أن تقبل الآية فهما آخر يتعلق بوضع اليهود والنصارى والصابئين الآن بعد أن صار هناك دين اسمه الإسلام؟

الواقع أن الآية تتحدث عن هذا الوضع الأخير، وإن لم أستبعد الفهم الذى فهمه الدكتور مصطفى. صحيح أن بعض الناس يفهمون الآية خطأً ظانّين أنها مطلقة، أى تبشر هذه الطوائف بأن مصيرها إلى الجنة فى كل الأحوال لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. بل إن بعضهم يتخذها تكأة لمدح الإسلام بأنه دين واسع الأفق يقبل كل الأديان ولا ينكر على أتباعها الحاليين فى شىء. وقد قرأت لمحمد أسد بك، وهو يهودى نمساوى غير محمد أسد الذى نعرفه، اعتنق

الإسلام فى القرن الماضى ظاهريا وكتب سيرة للنبى أتى فيها بالعجب العجاب واتهمه صلى الله عليه وسلم اتهامات كثيرة وخطيرة، لكنه توقف أمام الآية المشار إليها بوصفها دليلا على أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يفتح باب الخلاص والنجاة يوم القيامة أمام أهل الأديان الأخرى دون أن يعتنقوه.

وهذا فهم خاطئ. ووجه الخطإ فيه هو التسرع فى ولوج تفسير الآية من غير بابها، إذ هى تشترط لنجاة غير المسلمين الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، ويظن المتسرعون أن اليهود والنصارى والصابئين والمجوس يؤمنون كما يؤمن المسلمون بالله واليوم الآخر. فإذا عمل أى منهم صالحا رغم بقائه على دينه فقد ضمن الجنة. لكن لو كان الأمر كذلك فلم اشترطت الآية الشريفة فى غير المسلم الإيمان بالله واليوم الآخر إذا كان ذلك أمرا مفروغا منه كما يظن هؤلاء؟

لقد ذكرت الآيتان ١٥٠- ١٥١ من سورة "النساء" أن "الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون: نؤمن ببعضٍ، ونكفر ببعضٍ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا. وأعتدْنا للكافرين عذابًا مُهينًا". ولا ريب أن معناهما واضح وضوحا ساطعا، إذ تؤكدان أن الإيمان لا يتحقق إلا إذا شمل جميع الرسل والأنبياء، فكيف يقال مثلا فى المجوسى الذى لا يؤمن بموسى ولا بعيسى ولا بمحمد أو اليهودى الذى لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد أو النصرانى الذى لا يؤمن بمحمد أنه مؤمنٌ ناجٍ يوم القيامة مع أن الآيتين تتوعدانهم بالعذاب المهين؟

كذلك تأمر الآية ٢٨ من سورة "التوبة" المسلمين أن يقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر من الذين أوتوا الكتاب. . . إلى آخر الآية. أى أنهم، رغم كونهم من أهل الكتاب، لا يدخلون فى عداد المؤمنين بالله واليوم الآخر. وفى سورة "الأنعام" أن الذين يؤمنون بالآخرة

يؤمنون بمحمد ودينه. ومعنى هذا أن من لا يؤمن به وبدينه لا يؤمن بالآخرة. ولدينا كذلك الآيات الكثيرة المبثوثة فى سورة "البقرة" و"آل عمران" و"النساء" و"المائدة" و"الأنعام" و"الأعراف" و"التوبة" وغيرها وتحاجّ أهل الكتاب وتدمغهم بعدم الإيمان وتتوعدهم بالعذاب المهين. وإذا كان باب الجنة بعد مجىء الإسلام مفتوحا لغير المسلمين فما فائدة نبوة محمد إذن؟ وما معنى عالمية رسالته إذا قلنا إنه إنما بُعِث للعرب، ومن ثم سوف يدخل الجنة من يَبْقَوْن على دينهم ممن ليسوا عربا ؟

ومع هذا نرى محمد أسد المشهور (ليوبولد فايس سابقا، وليس محمد أسد بك)، فى ترجمته للقرآن الكريم، يقرر أن اليهود (ومِثْلُهم فى ذلك النصارى والصابئون والمجوس) ناجون يوم القيامة ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ما داموا يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحا، أى دون أن يدخلوا فى الإسلام وينضووا تحت لواء سيد الرسل والنبيين، رغم ما أكده هو نفسه فى تلك الترجمة من أن الإسلام يَعُدّ الكفر بأى من الرسل خطيئة تكاد أن تعدل الكفر بالله ذاته، وكذلك رغم ما كرره مرارا من أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هى رسالة عالمية للبشر جميعا على اختلاف أجناسهم وعصورهم وبلادهم، وثالثا رغم ما أكده من أن العهد القديم قد تنبأ بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم وأوجب على اليهود الإيمان به، ورابعا رغم ما فسر به قوله تعالى فى الآية ١٠٥ من "النحل": "إنما يَفترى الكذبَ الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون" من أن الكافرين هنا هم كل من يرفضون الإيمان بصحة الوحى المحمدى متهمين إياه بأنه مجرد أوهام مَرَضيّة أو اختلاقات متعمَّدة، وخامسا رغم ما قاله من أن الإسلام، وإن كان معناه "إسلام النفس لله"، ومن ثَمَ فكل من يؤمن بالله الواحد الأحد إيمانا سليما ويؤمن برسالاته فهو مسلم، فإنه يقتضى أن يسارع المؤمنون بالله ورسالاته إلى الإيمان بمحمد ما دامت رسالته هى آخر الرسالات السماوية وأكثرها عالمية.

صحيح أن بعض علماء المسلمين من العرب أنفسهم يقولون بما قال به محمد أسد، ومنهم الشيخ محمدعبده، مما قد عَرَضْتُه ومَحَّصْتُه وفَنَّدْتُه فى فصل طويل يقترب من أربعين صفحة بعنوان "أهل الكتاب" فى كتابى "سورة المائدة- دراسة أسلوبية فقهية مقارنة"، بَيْدَ أن الأمر فى حالة محمد أسد يختلف، فقد ترك الرجل يهوديته وأعلن دخوله فى الإسلام. فلو كانت نجاة الإنسان يوم القيامة ممكنة مع بقائه على يهوديته أو نصرانيته. . .إلخ فلماذا لم يبق كاتبنا على دينه الأصلى بدلا مما استتبعه دخوله فى دين محمد من رجّ حياته من أساسها والاتجاه بها فى مسار مغاير لمسارها السابق مغايرة تامة؟ ثم إننا قد رأيناه، فى مواضع مختلفة من هوامش ترجمته للقرآن الكريم، يلح على أن دين محمد هو للبشر جميعا وأنه لا يصح إيمانهم إلا إذا استظلوا برايته. كما أنه قد قال بصريح اللفظ إن مجىء الإسلام قد نسخ اليهودية والنصرانية. أى أن هاتين الديانتين قد انتهت صلاحيتهما إلى الأبد.

وعودة إلى كتاب مصطفى محمود نقول: ومما ناقشه المرحوم مصطفى محمود فى الفصل الحالى إطلاق القرآن اسم "المسلمين" على كل الأنبياء: فنوح يقول: "وأُمِرْتُ أن أكون من المسلمين"، وإبراهيم وإسماعيل يقولان: "ربنا، واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أُمَّةً مسلمةً لك"، ويوسف يقول: "تَوَفَّنِى مسلما، وألحِقْنى بالصالحين"، والحواريون يردون على عيسى قائلين: "نحن أنصار الله، آمنَّا بالله. واشهدْ بأَنَّا مسلمون"، وهو ما يدل عنده على أن الدين واحد بالنسبة لجميع الأنبياء: فالله واحد لا شريك له، والجنة والنار والحساب حق، والظلم حرام فى كل الأديان، وكذلك السرقة والغش والتدليس والقتل والكِبْر. أما التشريعات فقد تختلف لأن البشر يتطورون فى أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية مما يستلزم تغيير بعض التشريعات التى لا تعود مناسبة للأوضاع الجديدة المتطورة، على العكس من أمور العقيدة والأخلاق.

وهذا كله سليم، بيد أن هذا لا يلغى أن دين محمد هو الدين الوحيد الذى سُمّىَ بـ"الإسلام" اسمَ عَلَمٍ دون بقية الأديان. وليس فى هذا أى تناقض. فالإسلام والمسلمون اسما جنس حين يطلقان على المؤمنين من أتباع الأنبياء السابقين، ولكن إذا جئنا إلى محمد صار الاسمان اسْمَىْ عَلَمٍ، أى يطلقان على أتباع محمد وحدهم بهذا المعنى. وعلى هذا يمكننا أن نصف أى واحد من حواريى أولئك الأنبياء بالإسلام، لكن متى قلنا: "الإسلام والمسلمون" بإطلاق انصرف الذهن إلى دين محمد والمؤمنين بدين محمد . أى أن اسمى "الإسلام" و"المسلم" كعَلَمَيْن لا يصدقان إلا علينا نحن الذين نؤمن بالقرآن والنبى الذى نزل عليه القرآن.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد لاحظت أن محمد أسد (ليوبولد فايس سابقا) فى ترجمته للقرآن المجيد دائما ما يترجم "الإسلام" بـ "تسليم النفس لله"، أما "الإسلام" بمعنى "اتّباع دين محمد"، وكذلك اسم الفاعل منه "مُسْلِم" . فهما، حسبما يؤكد، استعمالان اسْتَجَدّا بعد النبى عليه السلام. وأرى أن هذا تمييع للأمور. لقد استخدم القرآن المجيد مرارا فى الحديث عن منهج الرسل جميعا كلمة "الإسلام"، إلا أن هذا هو الاستعمال العام فقط، وسببه أن منهجهم جميعا، عليهم صلوات الله وسلامه، واحد رغم اختلاف شرائعهم فى بعض تفاصيلها، أما المعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة فى القرآن وفى الحديث فهو دين محمد .

ونبدأ بالحديث النبوى فنسوق هذه النصوص المشهورة: "بُنِىَ الإسلام على خمس: . . . ."، "المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده"، "المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يُسْلِمه ولا يخذله"، "المسلم على المسلم حرام"، "المسلمون على شروطهم"، "المسلمون تتكافأ دماؤهم" . أما بالنسبة للقرآن الكريم فإن "الإسلام" فى قوله جل جلاله من سورة "الحجرات": "يَمُنّون عليك أن أَسْلَموا . قل: لا تَمُنّوا علىَّ إسلامَكم، بل الله يَمُنّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إن كنتم صادقين" لا يمكن إلا أن يكون الدين الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم. والحمد لله

أن أسد نفسه قد فسرها فى الهامش هذا التفسير، وها هى ذى عبارته فى نصها الإنجليزى: "by professing to be thy followers " رغم أنه فى الترجمة قد استعمل كلمة "to surrender"، وإن لم يَقْنَع هذه المرة بذلك بل جعل الأمر "استسلاما للرسول: "having surrendered (to you)"، مضيفا من عنده بين قوسين، كما نرى، كلمة "لك"، وهو ما لا يقبله السياق أبدا، إذ من غير المتصور أن يمنوا على الرسول باستسلامهم له، لأن الاستسلام ليس مما يبعث على الفخر أو يُمَنّ به على أحد .

ومثل ذلك قوله جل شأنه بسورة "آل عمران": "ومَنْ يبتغِ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَل منه، وهو فى الآخرة من الخاسرين"، الذى أتى عقب قوله مخاطبا رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام: "قل: آمَنّا بالله وما أُنزِل علينا وما أُنزِل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتِىَ موسى وعيسى والنبيّون من ربهم، لا نفرّق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون" مما يدل على أن "الإسلام" فى الآية هو دين محمد، وإلا لكانت محاجته لأهل الكتاب لا معنى لها، إذ لو كان "الإسلام" هنا مستعملا بمعناه العام لكان جوابهم: "ونحن أيضا مسلمون مثلك سواء بسواء" .

وبمستطاعنا أن نستشهد بالآيات التالية أيضا: "اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورَضِيتُ لكم الإسلام دينا" (آل عِمْران)، "أفَمَنْ شرح الله صدرَه للإسلام فهُوَ على نورٍ مِنْ ربّه؟" (الزُّمَر)، "ومَنْ أظلمُ من افترى على الله الكذب وهو يُدْعَى إلى الإسلام؟" (الصَّفّ)، "فمن يُرِدِ الله أن يَهْدِيَه يشرح صدره للإسلام" (الأنعام)، "رُبَما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين" (الحِجْر)، "إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات. . .أعدَّ الله لهم مغفرة وأجرا عظيما" (الأحزاب) .

وكثير من هذه الشواهد ينتمى إلى الوحى المكى. أى أن استعمال لفظ "الإسلام" مصطلحا على دين محمد يعود إلى بدايات دعوته عليه السلام فى مكة. فالقول إذن بأنه استعمال متأخر عن ذلك العصر هو قول يتجافى عن الحقيقة ويجافيها بكل يقين. ومما يلفت النظر هنا أن محمد أسد قد دأب على ترجمة كلمتى "الإسلام" و"مسلم" فى كتابه: " Sahih al-Bukhari- The Early years of Islam" بـ"Islam" و"Muslim"، وهو كثير جدا. كان ذلك فى سنة ١٩٣٨م وما قبلها، فما الذى جعله يترك هذه الترجمة الصحيحة ويلجأ فى ترجمته للقرآن إلى الترجمة الأخرى بكل ما فيها من لف ودوران؟

وتحدث د. مصطفى محمود أيضا فى هذا الفصل عن الأنبياء المزيفين الذين ظهروا بعد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وكيف انتهى معظمهم إلى المشانق كما يقول، وانتهت كتبهم إلى النسيان، ذاكرا أن التحدى الذى كان يواجه كلا منهم هو الإتيان بما يدل على صلته المزعومة بالله كخارقة تخرج على قوانين الكون أو كتاب معجز، وهو ما لم يتحقق لأى منهم، فلجأوا إلى إنكار المعجزات بل إلى إنكار عالم الغيب ذاته حتى يريحوا ويستريحوا ويصبح ادعاؤهم النبوة سهلا ميسورا، مما استلزم منهم أن يؤولوا القرآن تأويلا باطنيا يقوم على هاتين الدعامتين، فأنكروا الشياطين قائلين إنها رموز للشهوات، وقالوا عن الملائكة إنها الأفكار الطيبة الخيرة، وعن إبليس إنه علامة على الشر، وعن عصا موسى إنها الشريعة التى جاء بها هذا النبى الكريم ليهدى الناس ويقودهم، وعن أكلها حبال السحرة إنه دلالة على انتصار حجته عليه السلام على حجتهم، وعن انفلاق البحر إنه رمز لفرقان الحق من الباطل بوساطة شريعته وحجته، وعن إحياء عيسى الموتى إنه وصف لما صنعته تعاليمه بإخراج الجاهل من ظلمات جهله، وعن إبرائه للأعمى بأنه شفاء لعمى القلب... إلخ. وبذلك تحولت النبوات إلى عمليات

إصلاح اجتماعى لا غير يستطيع كل من هب ودب ادعاءه دون أدنى مشاكل واقتلاع الدين فى نفس الوقت من أساسه.

والواقع أن كلامه رحمه الله يستدعى شيئًا من الإضافة عن طريق المقارنة بين النبى محمد صلى الله عليه وسلم وبين أولئك الأنبياء الكاذبين. فصِدْقُ النبى محمد عليه الصلاة والسلام ظاهرٌ من سيرة حياته ومن سمات شخصيته ومن زهده فى الرئاسة والمال ورحمته وصبره وكرمه وإنسانيته العالية ونبل أخلاقه وطهارة سلوكه واستعفافه أمام مغريات الحياة، وكراهيته للاستبداد بالناس، وظاهرٌ كذلك فى المبادئ العالية التى أتى بها ودعا إليها، وكان أول من التزمها فى كل ما يفعل أو يَدَع، كما لم يُؤْخَذ عليه مَغْمَزٌ فى خلق أو سلوك أو ذوق أو لياقة. وكان صريحا لا يعرف المكر ولا الخبث، ومتواضعا صادقا يعلن بكل قوة أنه لا يعلم الغيب ولا يدرى ما يُفْعَل به ولا بقومه.

وحين كان المشركون يطلبون منه معجزة كان يقول: إنْ هو إلا عبدٌ لله ورسولٌ له لا يمكنه أن يأتى من عنده بآية، وإنّ عَصْر الآيات قد مضى وانقضى لأنها لم تأت بثمرتها المرجوّة منها مع الأمم التى استجابت السماء لها وأنزلت عليهم آية. وهذا الموقف من المعجزات برهان ساطع على صدقه وإخلاصه. لقد كان صلى الله عليه وسلم، لو كانت دعواه النبوة من لدنه لا من عند الله، قمينًا أن ينكر وقوع المعجزات على أيدى الأنبياء السابقين كما فعل البهائيون، وكذلك القاديانيون فى العصر الحديث، حتى لا يفتح على نفسه بابا يستحيل إغلاقه، ويوقع نفسه فى مأزق لا يقدر على التفلص منه، إذ المتوقع أن المشركين سوف يطالبونه بمعجزات كالتى وقعت للأنبياء الذين خَلَوْا وذكرها القرآن ذاته. فكان المنطقى، لو أنه نبى كذاب، أن يرفض القول بأية معجزة لأى نبى سابق. وعلى المكذِّب أن يُثْبِت العكس، وهو أمر مستحيل، إذ الأنبياء قد ذهبوا فى التاريخ، ولا يمكن أن يثبت أحد لهم معجزة. بل إنه، حتى بعد مطالبة المشركين له

بإنزال آية ورفضه الانصياع لما يريدون، قد ظل يذكر للأنبياء والرسل الماضين معجزاتهم كما كان يفعل قبل مطالبة قومه له بالآيات.

ولقد كان جديرا، لو كان هو الذى صنع من نفسه نبيا، أن يرجع عن الآيات التى نسبت المعجزات للأنبياء الخالين تحت حجة أو أخرى. لكنه، لصدقه وصراحته واستقامة ضميره وصحة نبوته، جمع بين الأمرين: الاعتراف بمعجزات الأنبياء والرسل القدامى، والاعتذار عن صنع أية معجزة. وهى خطة الكبار الواثقين بأنفسهم وصدقهم المحترمين لذواتهم. أما القاديانية والبابية والبهائية فقد أنكرت المعجزات من جذورها وأوّلَت ما ورد منها فى القرآن وما قبله من الكتب بحيث تُخْرِجها عن إعجازيتها وتلحقها بالأمور الاعتيادية تماما. وقد أورد د. مصطفى محمود بعضا من هذه التأويلات التى قال بها البهاء، وهى نفسها أو قريب منها ما قاله القاديانيون كما أوضحتُ فى الفصل الخاص بالتفسير الذى حرره مَلِك غلام فريد القاديانى من كتابى: "من الطبرى إلى سيد قطب- دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه".

وظل صلى الله عليه وسلم طَوَالَ دعوتِه عانِىَ الوجه لله لا يتجاوز حدوده كعبد لربه ورسول له. وفى القرآن معاتبات له على أشياء. ولو كان هو صاحب القرآن ما ضمَّنه تلك المعاتبات شأن كل دَعِىٍّ كذاب، فإن المدعين الكَذَبَة لا يقرون بأى خطإ يقع منهم حتى لا يطمع فيهم المكذِّبون. كما أنه لم يورِّث الحكم أحدا من أهله، ودعنا مما تقوله الشيعة، فهو لا يقوم على أساس. كذلك كان الرسول واثقا تمام الوثوق من انتصار دينه على الأديان كلها من وثنية ويهودية ونصرانية ومانوية ومزدكية وغيرها، وهو ما تحقق بحذافيره رغم ضعف إمكانات الإسلام إزاء تسلح الأديان الأخرى حتى أضراسها، بَلْهَ وجودَ دولٍ لها راسخة قوية واسعة السلطان ولها جيوش تقف فى وجه الإسلام كفارس والروم. وهذه الثقة وذلك الحسم موجودان منذ وقت مبكر فى الوحى المكى، أى منذ أيام الضعف الشديد الذى لم يكن ينبئ بأن شيئًا فى المعادلات

بين الإسلام وأعدائه سوف يتغير لصالحه. بل إن الإسلام، حتى بعد انتشاره أواخر العهد المدنى، كان بالنسبة لتلك القوى شيئًا ضئيلا لا يمكن أى عين بشرية معه مهما كانت قوة إبصارها ومقدرتها على رؤية ما وراء ظواهر الأشياء أن تجرؤ على التنبؤ بأن ثمة انتصارا ينتظر الدين الجديد بتاتا.

كذلك فالرسول عليه السلام لم يكن مرتبطا بأية قوة أجنبية ترعاه وتعينه وتمده بالمال والرجال والخطط وتدفع عنه البلاء عند اللزوم لقاء أن يكون تابعا لها ويقدم خدماته لهم كما هو الحال بالنسبة لدويلة المناذرة فى شمال شرق بلاد العرب ودويلة الغساسنة فى شمال غربها، اللتين كانتا على الترتيب تابعتين للفرس والروم. بالعكس لقد كان يناجز القوى العالمية فى الشرق الأوسط، وأرسل لكل العواهل والملوك وشيوخ القبائل وحكام المنطقة يدعوهم إلى الإسلام، وملء بُرْدِه وإِهَابِه اليقين، وفى لهجة حاسمة تبين لكل منهم أنه لو لم يستجب فذنبه على جنبه لأن الله سوف يعاقبه عقابا شديدا. وكانت النتيجة أنْ هُزِم هؤلاء جميعا وانطوت صفحاتهم منذ ذلك الحين.

والغريب العجيب أن ينكر مثلا عون قاسم الشريف وزير الأوقاف الأسبق للسودان، فى كتابه: "دبلوماسية محمد– دراسة لنشأة الدولة الإسلام فى ضوء رسائل النبى ومعاهداته"، أن يكون الرسول الكريم بعث بأية رسائل إلى ملوك الأرض من حوله، بحجة أنه عليه السلام لم تكن تحت يده فى ذلك الوقت القوة اللازمة لاتخاذ هذه الخطوة. يريد أن يقول: إيش جاب لجاب؟ وأين محمد وإمكاناته من إمكانات الفرس والروم والملوك الآخرين حتى ينسى نفسه ويكتب لهم داعيا إياهم إلى الإسلام؟ وهو تصور فقير الفكر والفهم، فإن أتباع محمد لا محمدا نفسه قد سحقوا بعد قليل من وفاته كل من وقف فى طريق الإسلام وصيروه فى خبر "كان". فعلام يدل هذا؟ يدل على أن ما قاله عون قاسم الشريف وغيره هو مجرد سمادير واهم.

ثم هل كانت لدى محمد فى مكة القوة اللازمة لدعوة قومه الوثنيين إلى نبذ الوثنية المتجذرة فى قلوبهم وعقولهم وضمائرهم ومجتمعاتهم وتاريخهم؟ ومع هذا فقد فعلها وواجه قومه وحيدا إلا من عون ربه وتعضيده له، وتحمل فوق طاقة البشر، ولم يبال أية بالة بوضعه الضعيف تمام الضعف إزاء ما كان يتمتع به قومه من مال وعدد وعدة وتحزب القبائل كلها ضده. ثم لقد عُثِر على بعض هذه الرسائل فى العصر الحديث، وفى أماكن لا تقع تحت سيطرة المسلمين، وعثرت عليها أيد غير مسلمة، وفحصها بعض المستشرقين وأكدوا صحتها كما وضحت ذلك فى الفصل الخاص بـ"محمد صلى الله عليه وسلم" من كتابى: "دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل".

بل إن أتباعه عليه السلام الذين هاجروا إلى الحبشة فى أشد فترات الدعوة حروجةً وعاشوا هناك فى كنف النجاشى يحتمون به من أذى قريش وتضييقها البشع عليهم فى ممارسة دينهم، وكانوا ضعافا لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، وأرسلت قريش فى إثرهم من يؤلب عليهم صدر النجاشى وحاشيته ورجال دينه ويتهمهم بأنهم يقولون فى عيسى قولا عظيما، إذ ينفون عنه الألوهية ويصفونه بأنه عبد ورسول لله ليس إلا، هؤلاء الأتباع لم يفكروا، إِبَّانَ تلك الظروف المدلهمة، فى المداراة والمداورة بل اتفقوا على أن يتلوا ما يقوله القرآن فى ذلك النبى الكريم فى صدر سوة "مريم" كما هو دون أن يخفوا منه شيئًا أو يَلْوُوه عن معناه أو يخففوا وقعه. وقد كان، ولم يفكروا فى العواقب. إلا أن الله سبحانه كان له تقدير آخر، فقد كان رد النجاشى أن ما قالوه لا يختلف عن حقيقة عيسى فى شىء. وفشل الرسولان المكيان وعادا إلى مكة وقفاهما يحمّر عَيْشًا! ونجى الله المسلمين المتغربين فى بلاد النجاشى بفضل صدقهم وإخلاصهم وإيمانهم الراسخ بربهم سبحانه.

فإذا ما انتقلنا إلى الناحية الأخرى، ناحية المتنبئين الكذابين فى تلك الفترة، راعنا مثلا أن أيا منهم لم يكن يتمتع بخلق راق ولا سلوك كريم. وبالنسبة إلى مسيلمة كان يريد من النبى أن يقاسمه أرض العرب على أساس أن له ولقبيلته النصف، ولقريش النصف الآخر. ومعنى هذا أن الأمر لديه أمر حكم وملك وزعامة لا أمر نبوة. لقد كان يؤمن بنبوة النبى، لكن على أساس أن يعطيه النصف ويأخذ النصف. وأما النبى فرفض هذا العرض رفضا تاما باتا. وعلى هذا كان مسيلمة يؤمن بنبوة محمد بينما كان محمد يضع مسيلمة فى الموضع الذى يستحقه، وهو أنه لا نبىٌّ ولا يحزنون. يقول مسيلمة فى رسالة بعث بها إلى النبى عليه السلام: "من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك. أما بعد فإنى أُشْرِكْتُ فى الأمر معك". ثم تزوج مسيلمة من سجاح، ثم انفصلا، وعادت سجاح إلى الإسلام كرة أخرى. أى أنها وصفت نفسها ومسيلمة بلسان الحال بأنهما كذابان ملفقان يزعمان أنهما نبيان، ولا نبوة هنالك. وبالمثل عاد طليحة عن دعواه النبوة وصار عقله فى راسه ويعرف كل خلاصه. وهذا إقرار ضمنى بأنه كان نبيا كذابا، وإلا ما رجع عن نبوته المزعومة وحارب وأبلى بلاء حسنا تحت راية الإسلام مثل سجاح. كما أنهم لم يأتوا بشىء فى مجال العبادة ولا الخلق ولا العقيدة ولا السلوك ولا العلاقات الاجتماعية والإنسانية، إذ كان كل همهم الزعامة والسيادة، ثم على الدنيا الطوفان من بعد ذلك.

وفى "البداية والنهاية" لابن كثير أنه "لَمَّا قدمت وفود بنى حنيفة على الصّديق قال لهم: أسمعونا شيئًا من قرآن مسيلمة. فقالوا: أوتعفينا يا خليفة رسول الله؟ فقال: لا بدَّ من ذلك. فقالوا: كان يقول: "يا ضفدع بنت الضّفدعين، نقّى لَكَمْ تَنقّين. لا الماءَ تكدّرين ولا الشّاربَ تمنعين، رأسك فى الماء وذَنَبُك فى الطِّين. وكان يقول: والمبذّرات زرعًا، والحاصدات حصدًا، والذّاريات قمحًا، والطّاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثّاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالةً

وسمنًا، لقد فُضّلتم على أهل الوَبَر، وما سبقكم أهل المَدَر، رفيقَكم فامنعوه، والمُعْتَرَّ فآوُوه، والنّاعى فواسُوه". وذكروا أشياء من هذه الخرافات التى يأنف من قولها الصّبْيَان وهم يلعبون. فيقال إنَّ الصّديق قال لهم: ويحكم! أين كان يذهب بعقولكم؟ إنَّ هذا الكلام لم يخرج من إلّ. وكان يقول: "والفيل وما أدراك ما الفيل، له زلّوم طويل". وكان يقول: "والليل الدّامس، والذّئب الهامس، ما قطعت أسد من رطب ولا يابس". وتقدّم قوله: "لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاقٍ وحَشًى"، وأشياء من هذا الكلام السَّخيف الرّكيك، البارد السَّميج.

وقد أورد أبو بكر ابن الباقلانى رحمه الله فى كتابه: "إعجاز القرآن" أشياء من كلام هؤلاء الجهلة المتنبّئين كمسيلمة وطليحة والأسود وسجاح وغيرهم مّما يدلّ على ضعف عقولهم وعقول من اتّبعهم على ضلالهم ومحالهم. وقد روينا عن عمرو بن العاص أنّه وفد إلى مسيلمة، فقال له: ماذا أُنزِل على صاحبكم فى هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هى؟ قال: أنزل عليه "والعَصْر * إنَّ الإنسان لفى خُسْر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصَّبْر". قال: ففكَّر مسيلمة ساعة، ثمَّ رفع رأسه فقال: ولقد أُنزِل علىَّ مثلُها. فقال له عمرو: وما هى؟ فقال مسيلمة: "يا وبر يا وبر، إنّما أنت إيرادٌ وصَدَر، وسائرك حفر نقر". ثمَّ قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنّك لتعلم أنّى أعلم أنَّك تكذب". فهذا كل ما جاء به مسيلمة الكذاب!

والملاحظ أن هؤلاء الأنبياء الكذابين لم يقابلهم قومهم بالإعراض والعناد والسخرية والأذى والتكذيب شأن البشر جميعا مع الأنبياء والمرسلين بل انخرطوا فى دينهم على الفور. ذلك أنهم لم يكلفوهم بشىء، بل كانوا يخطبون ودهم فيخففون عنهم فروض الإسلام ولا ينهونهم عن حرام أو ذوق فاسد أو سلوك منحرف. وكان أقوامهم من جانبهم ينظرون إلى الأمر على أنه مقاومة

لحكومة المدينة والدين الذى ترعاه، فكان إقبالهم على أنبيائهم المبطلين نوعا من العصبية، وكأن محمدا نبى قريش ومكة فقط. ولكن عندما جد الجد واشتعلت الحرب بينهم وبين المسلمين وانهزموا طار من دماغهم خُمَار التمرد وفاؤوا للحق ونَسُوا تمام النسيان أولئك النبيين المزيفين، وكأنهم لم يكن لهم يوما وجود.

لقد كان الأسود العَنْسِىّ باليمن كاهنا يمارس طقوس السحر والكهانة، وكان قبيح الوجه غليظ الطبع جاسى النفس. وقد انتهى أمره بالقتل على أيدى زوجته وأقرب المقربين إليه من رجاله. ومثل ذلك الشخص لا يمكن أن يكون نبيا، فالله لا يختار لرسالته كهانا سبق أن خدموا الأصنام ومعابدها وروجوا للكذب والبهتان والشعوذة، وقساة لا تأخذهم بالبشر رحمة. وبالمثل كان طليحة الأسدى كاهنا. وكان مسيلمة يمارس الألاعيب البهلوانية، ويستعين بها فى التأثير على أتباعه، وكانت سجاح عرافة.

وفى العصر الحديث لدينا مثلا القاديانى والبهاء والباب. وكلهم كانوا مرتبطين بقوة عالمية استعمارية تناهض الإسلام: فالقاديانى كان عميلا لبريطانيا، والبهاء لليهود. وقد وضح مصطفى محمود، فى الفصل الخاص بـ"التآمر على الأديان" من كتابه: "من أسرار القرآن"، هذه العمالة ومظاهرها. وقد فشل غلام أحمد القاديانى والبهاء فى أن يقدما للبشرية شيئا نافعا، وظل دين كل منهما محصورا فى نطاق جد ضيق، وليست له قيمة بين أديان العالم، ونَفَيَا المعجزات حتى يهربا من مطالبة الناس لهما بالآيات الخارقة، وأنكرا الآخرة فوق البيعة. فأى دين ذلك الذى جاء به كل منهما إذن؟ وما جدواه؟ وقد أبطل غلام أحمد فريضة الجهاد، التى كانت تؤرق الإنجليز فى الهند، إذ كان المسلمون يقضون مضاجعهم بمقاومتهم إياهم مقاومة عنيفة حتى يرحلوا عن بلادهم، فأرادوا إخماد تلك الروح النضالية، فوَقَعُوا على غلام أحمد ونفخوا فيه وجعلوا منه نبيا أو مسيحا موعودا كما صار يردد، وأعلن أنه أتى بإلغاء فريضة

الجهاد . وهو لا ينكر ذلك، بل يخاطب ملكة بريطانيا معلنا أنه يقف مع دولتها ويعمل على الحفاظ عليها .

وقد ألغى البهاء أيضا فريضة الجهاد، واستحق على هذا من بريطانيا وساما تسلمه فى حيفا سنة ١٩١٧م. كما يخلو دينه من القيامة والآخرة والحساب تقليدا لليهودية. وأقبل اليهود على البهائية منذ تأسيسها وحملوا رايتها وعاش بعضهم حياته كلها بهائيا، لكنه أوصى أن يدفن بعد موته فى مقابر اليهود. ويردد البهائيون فى كتبهم أن أكثر فلاسفة اليونان تعلموا الحكمة من بنى إسرائيل، وأن عمل موسى فى التاريخ لا يساويه أى عمل آخر، وسوف يأتى يوم لا يجد الناس فيه كتابا ينقذهم سوى نواميس موسى. ويلمح من يقارنون بين البهائية واليهودية أن "قرة العين" تؤدى فى ديانة البهاء ذات الدور الذى قامت به أستير فى تاريخ اليهود . وقد ذكر مصطفى محمود هذا وغيره فى فصل "التآمر على الأديان" من كتابه: "من أسرار القرآن" .

وتقول "الموسوعة العربية العالمية" عن البهائية: "البهائية فرقة من الفرق المنحرفة التى أصبحت تمثل ديانة مستقلة، وإن تسمت بالإسلام فى مبدإ أمرها . يزعم أصحابها بأن الوجود المطلق لله لا يتحقق بالأسماء والصفات التى وصف بها نفسه فى كتبه، وخصوصًا فى القرآن الكريم، بل زعموا أن وجوده يحتاج إلى من يظهر أمره ويبشر بمظهره الأبهى الذى اعتقدوا أنه بهاء الله. يقول دعاة هذا المذهب: إن عيسى عليه السلام الذى أشرق على الدنيا يمثل مقام الروح، ومقامه فى السماء الرابعة، على حين أن النبى محمدًا يمثل مقام العقل، ومقامه فى السماء الخامسة، إلا أن نقطة البيان، كما يزعمون، هى سيدنا الأعلى المقدس (الباب)، فإنه أعلى من ذلك، لأن مقامه فى السماء السادسة، وهى مقام العشق. أما بهاء الله الذى تتجمع فيه كل المظاهر والتجليات، على حد زعمهم، فإن مقامه فى السماء السابعة بطريق التجلى

الكامل لمعالم الغيب والذات الإلهية، التى يعجز العقل عن إدراكها . وهذا يعنى أنه الله. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

ويعود تاريخ البهائية أو البابية إلى سنة ١٢٦٠هـ حين أعلن الباب دعوته. والباب عند البهائية هو الشخص الذى يكون واسطة بينهم وبين الإمام الثانى عشر محمد بن الحسن العسكرى، الذى وُلد سنة ٢٥٥هـ، وغاب الغيبة الصغرى سنة ٢٦٠هـ، ويعتقدون أنه المهدى المنتظر ويتوقعون عودته. وقد انتهى تاريخ البابية سنة ١٢٧٩هـ عندما أعلن المرزا حسين على النورى المازندرانى أنه هو المقصود بعبارة "من يظهره الله" الواردة فى كتب الباب، وادعى أن الباب كان مبشرًا به كما كان يوحنا المعمدان مبشرًا بالسيد المسيح. وهذه هى البداية الفعلية لدعوة الملّة البهائية، إذ هى تنسب إلى المرزا حسين على النورى، الذى اتخذ لنفسه اسم بهاء الله.

وقد ادعى البهاء أول الأمر أنه هو الذى بشر به الباب، ثم ادعى أنه هو المهدى المنتظر، ثم ادعى النبوة الخاصة، ومنها تدرج إلى النبوة العامة، ثم ارتقى إلى مرتبة الألوهية المطلقة، فكأنه هو الله فى الأرض. سبحان الله وتعالى عما يشركون. وزعم أن من يدعى أمرًا قبل ألف سنة فإنه كذاب مفترٍ. ومن مزاعمه أن بهاء الله تجلى فى وجهه، وأنه لذلك كان يسدل على وجهه نقابًا عندما كان يمشى فى الطريق لئلا يرى الناس ذلك البهاء . ومن معتقداته أن للأئمة والدعاة فيضاً إلهيًّا وقبسًا من نور الله، وأن المهدى والأئمة من بعده لهم عصمة الأنبياء، وأن الله يتجلى عليهم تجليًا تدريجيًّا يرتقى إلى حد العقل الكلي.

ويقوم المذهب البهائى على الاعتقاد الذى قرره البهاء حسين على المازندرانى (١٢٣٣– ١٣٠٩هـ، ١٨١٧– ١٨٩٢م)، وهو أن الله ليس له أسماء ولا صفات ولا أفعال وأن أسماءه وصفاته وأفعاله رموز لمظاهره من البشر، وآخرهم وأكملهم هو الذى ظهر فى مؤتمر بدشت

ميرزا حسين المازندرانى الملقب باسم "بهاء الله". وهو عند أتباعه مظهر الله الأكمل، وهو الموعود، ومجيئه الساعة الكبرى، وقيامه القيامة، ورسالته البعث، والانتماء إليه هو الجنة، ومخالفته هى النار، وظهوره هو ظهور جمال الله الأبهى. ويسميه أتباعه جميعًا: "ربنا" رغم أنهم يعرفون قصوره وعجزه بوصفه بشرًا، وعقيدتهم فى النبى أو الإمام فى حياته أنه مظهر من مظاهر الله فى الأرض غير المظهر الأكبر، وهو بهاء الله.

وقد غيّروا فى العبادات وزعموا أنهم جددوها لاعتقادهم بوجوب النسخ والتجديد ولأنهم يعتقدون أن من قوانين الحكمة الإلهية فى التشريع الدينى أن يكون الظهور اللاحق، أى الإمام أو الباب اللاحق، أعظم درجة من الظهور السابق، وأن الخلف أكمل من السلف. فعدد صلواتهم ثلاث صلوات بتسع ركعات، وأداء صلاة منها يغنى عن الصلاتين الأخريين، وصومهم تسعة عشر يومًا، وحجهم زيارة البيت الذى أقام فيه المرزا حسين فى بغداد والبيت الذى سكنه بشيراز. ويبيحون الزواج من كل امرأة غير زوجة الأب.

وقد ظهر المذهب فى إيران وانتشر فى أنحاء إيران والعراق. وللمذهب أتباع فى كل من أمريكا وفلسطين، وفى الكثير من الدول الأخرى. ومن أبرز كتبهم كتاب "الأقدس"، الذى يرونه ناسخًا للقرآن والتوراة والإنجيل. ولهم كتاب "الإيقان" وكتاب "الألواح المباركة". وكلها من تأليف المرزا حسين، وهى محشوة ضلالا وكفرًا. أما رأى جمهور المسلمين فى المذهب فهو القول بما قاله الله سبحانه عن نفسه من صفات وأسماء، فذلك هو أساس التوحيد الذى جاء به محمد. والقول بغير ذلك فيه خروج عن ملة المصطفى".

أما القاديانية فتقول الموسوعة ذاتها عنها: "القاديانية فرقة تزعم انتسابها للإسلام. وقد تشكّلت القاديانية فرقة مذهبية بزعامة غلام أحمد، الذى ولد فى إحدى قرى مقاطعات البنجاب عام ١٢٥٦هـ، ١٨٣٩م، وهى قرية قاديان، وإليها نسبت هذه الفرقة. وكان والده أبو

غلام مرتضى بن عطاء محمد القاديانى من الذين لهم روابط وعلاقات مع الاستعمار الإنجليزى فى الهند . وقد تلقى غلام أحمد تعليمه على يد أساتذة غير مشهورين، وعنهم تعلّم اللُّغة الأردية والعربية. ومات غلام مصابًا بالكوليرا سنة ١٣٢٦هـ، ١٩٠٨م، ودفن فى مقبرة يطلق عليها القاديانيون اسم "مقبرة الجنة". ويدّعى القاديانيون أن القاديانية فرقة من فرق المسلمين تختلف فى بعض الفروع عن غيرها . لكن الحق أن الإسلام منها براء . وقد أصدر كثير من علماء العالم الإسلامى والهيئات فتاوى نصت على أن أتباع هذا المذهب خارجون عن الإسلام.

ويمكن عرض ملخص معتقدات القاديانية بإيجاز على الوجه التالى: ١- أن عيسى عليه السلام هاجر بعد موته الظاهرى إلى كشمير فى الهند لينشر تعاليم الإنجيل فى البلاد، وأنه توفى بعد أن بلغ من العمر ١٢٠ عامًا، وأن قبره لايزال موجودًا هناك. ٢- الاعتقاد أن غلام هو المهدى الذى حلّ فيه النبيّان عيسى ومحمد عليهما السلام على السواء، ومن ثم يأتى زعم القاديانيين بأن غلامًا هو المهدى والنبى معًا . ٣- جاء فى كتاب "حقيقة النبوة"، الذى ألفه الميرزا بشير أحمد، الخليفة الثانى أن غلام أحمد، أفضل من بعض أولى العزم من الرسل. ٤- وجاء أيضًا فى صحيفة "الفضل" القاديانية أن الغلام هو محمد، برأه الله وطهرّه مما يقولون. ٥- الاعتقاد بأن الجهاد ليس هو اللجوء إلى القوة واستعمال أدوات الحرب ضد غير المؤمنين، وإنما هو وسيلة سلمية للإقناع. ٦- الاعتقاد بعدم جواز الصلاة على المسلم الميت ما لم يكن قاديانيا، ومن ثم فإنهم يحرّمون دفن المسلمين فى مقابر القاديانيين. ٧- لا يجيزون نكاح المسلم من القاديانية ما لم يؤمن بمذهبهم بدعوى أن غير القاديانى كافر، لأنه فيما زعموا لم يؤمن بالغلام أحمد . وقد جاء فى كتاب "بركات الخلافة" لمحمود أحمد القاديانى أنه لا يجوز لأى قاديانى أن يزوّج ابنته لغير القاديانى لأن هذا أمر جماعته. وقد جاء فى نفس هذا الكتاب أنه يجوز أخذ

بنات المسلمين والهندوس والسيخ للقاديانيين، ولا يجوز إعطاؤهم، ومن أعطى من القاديانيين ابنته لواحد من المسلمين يطرد من الجماعة ويُكَفَّر. ٨- لا تصح الصلاة خلف غير القاديانى، بل ولا تجوز الصلاة فى غير مساجد القاديانيين. وإذا وقعت صلاة خلف غير قاديانى أو فى غير مسجد قاديانى فإنه يتعين إعادتها. وفى هذا يروى ابن الغلام محمود أحمد واقعة حدثت له فى رحلة للحج عام ١٩١٢م، فيقول: "أدركتنا الصلاة أنا وجدى لأمى فسُدَّت الطريق من الازدحام وبدأت الصلاة، فأمر جدى بأن ندخل فى الصلاة، فدخلنا وصلينا، وحينما رجعنا إلى البيت قال جدى: هيا نصلى الصلاة لله التى لا تُصَلّى خلف غير القاديانى".

وبلغ من تشددهم فى ممارسة معتقداتهم أنه عندما مات القائد محمد على جناح وحان ميعاد الصلاة عليه رفض ظفر الله خان، الذى كان وزيرًا للخارجية الباكستانية آنذاك، أن يصلى عليه. والسبب أن ظفر الله خان هذا كان قاديانيا. ومن الناحية الحركية فإن للقاديانيين جانبًا تنظيميًّا محكمًا، فهم يستطيعون دفع عناصر قيادية إلى قمة المراكز والمواقع المهمة. ومركز القاديانية الرئيسى كان فى منطقة تسمى: "الربوة" بباكستان. ولهم مراكز ودعاة فى أمريكا وأوروبا وإفريقيا والشرق الأقصى، ولهم صحف ومجلات وكتب ومدارس ومستشفيات. ومن أشهر رجالات القاديانية نور الدين البهيروى ومحمد أحمد غلام والخواجة كمال الدين وغيرهم".

وهناك أنبياءُ كذابون كُثُرٌ ظهروا ما بين متنبئة الردة وبين متنبئة العصر الحديث الذين يقف وراءهم الاستعمار والصهيونية نشرا للفتن وإرباكا لعقول المسلمين وبذرا للشقاق بينهم. وكان بعض هؤلاء المتنبئين القدماء مجانين أو بسبيل الجنون. وقد تكون بعض حكاياتهم مصنوعة للتفكيه والإضحاك. ونسوق من حكايات أولئك الأنبياء المخلولى العقل شيئًا مما جاء فى "كتاب الجمانة الثانية" من "العقد الفريد" لابن عبد ربه: "قال أبو الطيب اليزيدى: أُخِذ رجل ادعى النبوة أيام المهدى فأُدْخِل عليه، فقال له: أنت نبى؟ قال: نعم. قال: وإلى من

بُعِثْت؟ قال: أوَتركتموني أذهب إلى أحد؟ ساعة بُعِثْتُ وضعتموني في الحبس. فضحك منه المهدي، وخلى سبيله. ادعى رجلٌ النبوة بالبصرة، فأُتِي به سليمان بن علي مقيدًا، فقال له: أنت نبي مرسل؟ قال: أما الساعة فإني نبي مقيد. قال: ويحك، ! من بعثك؟ قال: أبهذا يخاطَب الأنبياء يا ضعيف؟ والله لولا أني مقيَّد لأمرت جبريل يدمدمها عليكم. قال: فالمقيَّد لا تجاب له دعوة؟ قال: نعم، الأنبياء خاصة. إذا قُيِّدَتْ لم يرتفع دعاؤها. فضحك سليمان، فقال له: أنا أطلقك، وأْمُرْ جبريل، فإن أطاعك آمنا بك وصدقناك. قال: صدق الله: "فلا يؤمنوا حتى يَرَوُا العذاب الأليم". فضحك سليمان وسأل عنه، فشُهِد عنده أنه ممرور، فخلى سبيله. قال ثمامة بن أشرس: شهدت المأمون أُتِي برجلٍ ادعى النبوة وأنه إبراهيم الخليل، فقال المأمون: ما سمعت أجرأ على الله من هذا. قلت: أكلمه؟ قال: شأنك به. فقلت له: يا هذا، إن إبراهيم كانت له براهين. قال: وما براهينه؟ قلت: أضرمت له نار وألقى فيها فصارت بردًا وسلامًا، فنحن نضرم لك نارًا ونطرحك فيها، فإن كانت عليك بردًا كما كانت على إبراهيم آمنَّا بك وصدقناك. قال: هات ما هو ألين على من هذا. قال: براهين موسى. قال: وما كانت براهين موسى؟ قال: عصاه التي ألقاها، فصارت حية تسعى وتلقف ما يأفكون، وضرب بها البحر فانفلق، وبياض يده من غير سوء. قال: هذا أصعب. هات ما هو ألين من هذا. قلت: براهين عيسى. قال: وما براهين عيسى؟ قلت: كان يحيي الموتى، ويمشي على الماء، ويبرئ الأكمه والأبرص. فقال: في براهين عيسى جئتَ بالطامة الكبرى. قلت: لا بد من برهان. فقال ما معي شيء من هذا. قد قلت لجبريل: إنكم توجهونني إلى شياطين، فأعطُوني حجة أذهب بها إليهم، وأحتج عليهم. فغضب وقال: بدأت أنت بالشر قبل كل شيء. اذهب الآن فانظر ما يقول لك القوم. وقال: هذا من الأنبياء لا يصلح إلا للحُمُر. فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا هاج به مرار، وأعلام ذلك فيه. قال: صَدَقْتَ. دَعْهُ. . .

وقال ثمامة بن أشرس: كنت فى الحبس فأدخل علينا رجل ذو هيئة وبزة ومنظر، فقلت له: من أنت؟ جُعِلْتُ فداك! وما ذنبك؟ وفى يدى كأس دعوت بها لأشربها. قال: جاء بى هؤلاء السفهاء لأنى جئت بالحق من عند ربي. أنا نبى مرسل. قلت: جعلت فداك! معك دليل؟ قال: نعم، معى أكبر الأدلة. ادفعوا إلى امرأة أحبّلها لكم، فتأتى بمولود يشهد بصدقي. قال ثمامة: فناولته الكأس وقلت له: اشرب صلى الله عليك. محمد بن عتاب قال: رأيت بالرقة أيام الرشيد جماعة أحاطت برجل فأشرفت عليه، فإذا رجل له جهارة وبنية. قلت: ما قصة هذا؟ قالوا: ادعى النبوة. قلت: كذبتم عليه. مثل هذا لا يدعى الباطل. فرفع رأسه إلى فقال: وما علمك أنهم قالوا على الباطل؟ قلت له: وأنت نبى؟ قال: نعم. قلت له: ما دليلك؟ قال: دليلى أنك ولد زنا. قلت: نبى يقذف المحصنات؟ قال: بهذا بعثت. قلت: أنا كافر بما بعثت به. قال: ومن كفر فعليه كفره. فإذا حصاة عائرة جاءت حتى صكت صلعته. قال: ما رماها إلا ابن الزانية. ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: ما أردتم بى خيرًا حيث طرحتمونى فى أيدى هؤلاء الجهال...".

ومما عالجه مصطفى محمود أيضا فى كتابه الذى معنا مسألة العجز عن الوصول إلى الحق الذى جاء به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ومن ثم كان السؤال التالى: ترى ما مصير الشخص الذى لم يسمع بالإسلام، ثم عَبَدَ الله بالكتاب الذى أتيح له أو بما أداه إليه عقله وتفكُّره فى الكون وما فيه من أعاجيب: أهو ناج أم لا؟ د. مصطفى محمود يقول بنجاته يوم القيامة، فـ"جنة الله مفتوحة الأبواب لكل من سعى إليه مجاهدا مخلصا". وهو، فيما نرجح، يعتمد على أن الله سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها، وأن هذا الشخص قد استنفد كل ما فى طاقته ولم يدخر وسعا. بل قد يصل الإسلام إلى شخص ما ويقرأ عنه ويطالع القرآن مخلصا راغبا فى الوصول إلى الحق، لكن عقله لسبب أو لآخر لا يتبين له الصواب، فلا يعتنق الإسلام.

فما العمل؟ يقول الله تعالى فى هذا الأمر فى سورة "النساء": "ومن يُشَاقِقِ الرسولَ من بعدما تبيَّنَ له الهدى ويتَّبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تَوَلَّى ونُصْلِه جهنمَ، وساءت مصيرا" . والآية تقول بكل وضوح إن من يُصْلِيه الله جهنم إنما هو الشخص الذى بلغه الإسلام وكان عنده الوقت والظروف للنظر فيه وتقليبه فى عقله واتضح له أن الإسلام هو دين الحق، ثم لم يؤمن به رغم ذلك كله. أما من لم يبلغه الإسلام أصلا ولم يسمع به، أو بلغه وتأمل ما فيه، لكنه لم يتبين له الهدى فظل على ما كان عليه من دين، لا عنادا وتمردا بل عجزا عن بلوغ الهداية، فهذا تناله رحمة الله.

يقول الشيخ محمود شلتوت فى "تفسير العشرة الأجزاء الأولى من القرآن الكريم" عند تناوله، رحمه الله، قوله تعالى فى سورة"النساء": "وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا" ما معناه أن من سوف يَصْلَى جهنم ممن لم يؤمنوا بالإسلام هو من تبيَّن له الهدى لكنه عاند وكفر كِبْرًا أو خوفًا على مصلحة شخصية زائلة أو اتباعًا لشهوة دنيوية أو تطلعًا إلى كسب مال أو إحراز منصب أو ما إلى ذلك. أما من لم يتبين له الهدى لأنه لم يسمع بالإسلام، أو سمع به لكن على نحو مشوه من شأنه أن ينفر الناس منه، أو اجتهد وفكر لكن حالت ظروفه دون تبين الهدى، فإنه لا يشمله هذا الوعيد . ويدخل فى ذلك على سبيل المثال الأمم التى لم تصلها دعوة الإسلام أصلا، أو وصلت إليها على غير حقيقتها فبغَّضتها فيه، أو وصلت إليها على حقيقتها إلا أنها لم تستطع أن تبصر نور الهداية لسبب أو لآخر رغم إخلاص النية والتجرد فى البحث عن الحق.

وهذا الذى قاله شلتوت، رضى الله عنه، ليس رأيا ينفرد وحده به. فعلى سبيل المثال يقول الإمام الغزالى فى كتابه: "فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة" إن "من كذَّبه صلى الله عليه وسلم من الأمم الأخرى بعدما قرع سمعه بالتواتر عن خروجه وصفته ومعجزاته الخارقة للعادة،

كشق القمر وتسبيح الحصا ونبع الماء من بين أصابعه والقرآن المعجز الذى تحدى به أهل الفصاحة وعجزوا عنه. . .، فإن اشتغل بالنظر والطلب ولم يقصّر، فأدركه الموت قبل تمام التحقيق، فهو مغفور له ثم له الرحمة الواسعة".

ويقول الإمام الرازى صاحب "مفاتيح الغيب"، فى المسألة الخامسة من مسائله فى تفسير آية سورة "النساء" المذكورة، إن "الآية دالة على أنه لا يمكن تصحيح الدين إلا بالدليل والنظر والاستدلال، وذلك لأنه تعالى شَرَط حصولَ الوعيد بتبيُّن الهدى. ولو لم يكن تبين الهدى معتبَرا فى صحة الدين لم يكن لهذا الشرط معنى". وفى تفسير ابن كثير: "قوله: "وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَى"، أى ومن سلك غير طريق الشريعة التى جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، فصار فى شق، والشرع فى شق، وذلك عن عَمْدٍ منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له. . .".

ويكتب سيد قطب بملء قلمه أنه "قد اقتضت رحمة الله بالناس ألا يحق عليهم القول ولا يَصْلَوْا جهنم وساءت مصيرا إلا بعد أن يرسل إليهم رسولا، وبعد أن يبين لهم، وبعد أن يتبينوا الهدى ثم يختاروا الضلالة. وهى رحمة الله الواسعة الحانية على هذا المخلوق الضعيف. فإذا تبين له الهدى، أى إذا علم أن هذا المنهج من عند الله، ثم شاقّ الرسولَ صلى الله عليه وسلم فيه، ولم يتبعه ويطعه ولم يرض بمنهج الله الذى تبيَّن له، فعندئذ يكتب الله عليه الضلال، ويوليه الوجهة التى تولاها، ويلحقه بالكفار والمشركين الذين توجه إليهم. ويحق عليه العذاب المذكور فى الآية بنصه: "ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم. وساءت مصيرا". . .".

وفى تفسير "المنار" لمحمد رشيد رضا: "قَالَ الاسْتَاذُ الامَامُ: لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِى الآيَةِ الَّتِى قَبْلَ هَذِهِ وَعْدَهُ بِالْجَزَاءِ الْحَسَنِ لِلَّذِينَ يَتَنَاجَوْنَ بِالْخَيْرِ وَيَبْتَغُونَ بِنَفْعِ النَّاسِ مَرْضَاةَ اللهِ عَزَّ

وَجَلَّ، أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ فِى هَذِهِ الآيَةِ وَعِيدَهُ لأُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَنَاجَوْنَ بِالشَّرِّ، وَيُبَيِّتُونَ مَا يَكِيدُونَ بِهِ لِلنَّاسِ فَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ أُولَئِكَ الْقَوْمَ مُشَاقُّونَ لِلرَّسُولِ إِذَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتْ لَهُمُ الْهِدَايَةُ عَلَى لِسَانِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ بِحَقِيقَةِ مَا جَاءَ بِهِ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ تَتَبَيَّنْ لَهُمُ الْهِدَايَةُ فَلا يَسْتَحِقُّونَ هَذَا الْوَعِيدَ. وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ: فَمَنْ نَظَرَ مِنْهُمْ فِى الدَّلِيلِ فَلَمْ يَظْهَرْ لَهُ الْحَقُّ وَبَقِى مُتَوَجِّهًا إِلَى طَلَبِهِ بِتَكْرَارِ النَّظَرِ وَالاسْتِدْلالِ مَعَ الاخْلاصِ فَهُوَ مَعْذُورٌ غَيْرُ مُؤَاخَذٍ كَالَّذِى لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ. وَعَلَيْهِ جُمْهُورُ الاشَاعِرَةِ. وَالْمُشَاقَّةُ بَعْدَ تَبَيُّنِ الْهُدَى إِنَّمَا تَكُونُ عِنَادًا وَعَصَبِيَّةً أَوِ اتِّبَاعًا لِشَهْوَةٍ تَفُوتُ بِهَذِهِ الْهِدَايَةِ".

أسماء الله

فى كتاب د. مصطفى محمود الذى فى أيدينا فصل عنوانه "أسماء الله" لا يدور فى الواقع على أسماء الله إلا فى نطاقٍ ضيقٍ وتناولٍ عارض، لينتقل سريعا إلى موضوعات أخرى معظمها يتصل بالتصوف والمتصوفة. فأما فيما يتعلق بأسماء الله فنراه يشير إلى ما هو معروف من أن الأسماء الإلهية ضربان: اسم يختص بالله وحده سبحانه ولا يستعمل لسواه أبدا، وهو اسم "الله"، والباقى يمكن استعماله للبشر كـ"حليم وكريم وودود وشديد . . ." . وأما الموضوعات الأخرى فأولها استحالة معرفة كنه الله واستحالة رؤيته للبشر وتعاليه سبحانه وتعالى عن الزمان والمكان وعدم وجود شىء يماثله. وهو يستشهد على هذا بالآيات التالية: "عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال" (الرعد)، "يجادلون فى الله، وهو شديد المِحَال" (الرعد)، "وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها ولا حبةٍ فى ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا فى كتاب مبين" (الأنعام)، "ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكَرْهًا" (الرعد).

وبعض هذه النصوص، كما نرى، ذو علاقة بالموضوع، وبعضها لا علاقة له به كالآية الأخيرة، التى تعنى كما جاء فى تفسير الطبرى مثلا، أن "الله شديدةٌ مُمَاحَلَتُه فى عقوبة مَنْ طَغَا وعَتَا وتمادى فى كفره. و"المِحَال" مصدرٌ مِنْ قول القائل: "ماحَلْتُ فلانًا فأنا أُمَاحِلُه مماحَلةً ومِحَالا" . . . إذا عَرَّض رجلٌ رجلا لما يهلكه". ثم إن بقية الفصل كلها تقريبا قد اتجهت اتجاها صوفيا كما ألمحنا.

ومن ذلك قول المتصوفة إن وجود الله عز وجل ليس بحاجة إلى إثبات، واستشهاده رحمه الله على هذا بكلام لهم يدور حول هذا المعنى. ولا أحب أن أناقش براهينهم على ما

يقولون، بيد أنى لا أستطيع أن أملك نفسى من التنبيه إلى ما فى القرآن من آيات كثيرة تدلل على وجود الله ووحدانيته مما يعرفه كل من له صلة بكتاب الله الكريم. أى أن دعواهم لا تتسق مع القرآن المجيد .

ومن بين ما جاء فى هذا الفصل أيضا عن الصوفية قولهم إنهم "يطلبون القرب من الله حبا، وليس خوفا من نار أو طلبا لِجَنَّة" . وهو كلام يحتاج إلى وقفة. فالقرآن الكريم يفيض بالكلام عن الجنة والنار والترغيب فى الأولى والتخويف من الأخيرة. والإنسان بطبيعته يرغب فى النعيم ويكره الحرمان، بَلْهَ التعذيبَ. والصوفية يقولون، كما جاء عقب ذلك، إن العبادة من عابد مزهوّ بعبادته تحجبه عن ربه. ولست أريد شيئا غير محاكمتهم إلى كلامهم ذاته. ومن ثم أتساءل: ترى أى زهو أشد من زعم الشخص بأنه لا يبالى بجنة أو نار؟ إن المعنى هو أنه أكبر من الجنة والنار. وإن لم يكن هذا زهوا فما الزهو إذن؟ إن آيات الترغيب والترهيب كثيرة جدا فى القرآن كما قلنا، فكأنهم يقولون إننا أكبر من كل تلك الآيات وأعلى من أن يؤثر فينا ترغيب أو ترهيب. فهل هذا يليق من مؤمن أو بمؤمن؟

أإذا أعطى الأب ابنه هدية أيصح أن يردها إليه قائلا: "أنا لا أبالى بهداياك. أنا أحبك فقط لوجه الحب"؟ أو إذا حذره من الخطإ حتى لا يتعرض لغضبه وعقابه كان جوابه: "أنا لا أبالى بتهديداتك. أنا أحبك فقط لوجه الحب"؟ الحق أن هذا الكلام معناه أن الأب فى ترغيباته وتهديداته لم يكن موفقا ولم يأخذ القرار السليم إذ لم يعرف قدرات ابنه، ومعناه كذلك أن الابن قد أساء الأدب مع أبيه إذ اتهمه بأنه لا يفهم من شخصيته شيئا . ثم إن آيات القرآن فى الجنة والنار كانت موجهة أول ما وُجِّهَت إلى الصحابة، ولم نسمع أحدهم يقول هذا الكلام المتنطع الخشن، بل الكل كان يعلن تعلقه بالجنة ونعيمها، وخوفه من النار وعذابها . فهل الصوفية من طينة أرقى وأفخم؟ أين الدليل؟

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو من هو؟ يدعو ربه فيقول: "أعوذُ بكَ من عذاب جهنمَ، وأعوذُ بكَ من عذاب القبرِ، وأعوذُ بكَ من فِتْنَةِ المَسيحِ الدَّجَّالِ، وأعوذُ بكَ من فِتْنَةِ المَحْيا وفِتْنَةِ المَمَاتِ، وأعوذُ بكَ من فِتْنَةِ القبرِ"، ويقول: "اللهم قِنِى عذابَك يوم تبعث عبادَكَ"، ويقول: "اللهمَّ آتِنا فى الدُّنيا حسنةً، وفى الآخرةِ حسنةً، وقِنَا عذابَ النار"، ويقول: "اللّهم أَحْسِنْ عاقبَتَنا فى الأمور كلّها، وأَجِرْنا من خِزْى الدنيا وعذاب الآخرة"، فهل الصوفية أقوى من الرسول إيمانا، وأشد احتقارا منه للنار؟ وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "إنه لم يُقْبَض نبى قطُّ حتى يرى مقعدَه من الجنةِ"، فهل الأنبياء أدنى درجةً فى الفهم والتقدير من السادة الصوفية؟ وكان يقول: "أَسأَلكَ مُوجباتِ رحمتِكَ، وَعزَائم مَغفِرتكَ، والسَّلامَةَ مِن كُلِّ إثْم، والغَنِيمَةَ مِن كُلِّ برٍ، وَالفَوْزَ بالجَنّةِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النّارِ"، ويقول: "اللهم إنى أسألك الجنة وما قَرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قَرَّب إليها من قول أو عمل"، ويقول: "أسألك نعيما لا يَنْفَد"، ويقول: "أسألك الدرجات العُلَى من الجنة"، ويقول: "اللَّهُمَّ إِنّى أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِى لا يَحُولُ ولا يَزُولُ. اللَّهُمَّ إِنّى أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ، والأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ"، فهل أخطأ صلى الله عليه وسلم حين سأل مولاه الفوزَ بالجنة والنجاة من النار ولم يقل له: إنى لا أرغب فى جنتك ولا أرهب نارَك، بل أُحِبُّك فَحَسْب؟

وهناك أيضا ما يقوله المتصوفة عن الهجرة. فهم، بنص كلام د. مصطفى محمود، "يقولون إنهم فى هجرة دائمة إلى الله: من الأكوان إلى المكوّن، وهى غير الهجرة المعروفة على الأرض من مكان لآخر. وهذه عندهم أشبه بدوران حمار الرحى: يبرح المكان ليعود إليه. أما الهجرة الحقيقية فهى الانتقال من وطن الملك إلى وطن الملكوت، ومن وطن الحس إلى وطن المعنى". ومرة أخرى ها هم أولاء يُزْهَوْن بأنفسهم وعبادتهم، إذ يشبّهون المهاجرين من مكان لآخر بحمار الرحى. يا لرقة ألفاظهم وتواضع نفوسهم! وهم ألم يكونوا يهاجرون من مكان لآخر ليَلْقَوْا

مشايخهم الذين يعيشون بعيدا عنهم؟ وما القول فى هجرة الصحابة إلى الحبشة؟ مع مراعاة أنهم لم يقوموا بها من تلقاء ذواتهم بل بتوجيه الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام؟ ثم ما القول فى هجرة الرسول والمسلمين معه إلى يثرب؟ مع مراعاة أنها كانت بأمر الله سبحانه. وحتى بعد الهجرة الجماعية إلى يثرب كان الرسول يحث المسلمين على الهجرة من بلادهم وقبائلهم لِيَسْلَم لهم دينهم بابتعادهم عن مواطن الشرك وعن التعرض للإكراه عليه. وفى سورة "النساء" تَوَعُّدٌ بنار جهنم لمن يبقى من المسلمين بين ظَهْرَانَىْ قومه الكفار متعرضا للفتنة ومستسلما لها، وإقامةٌ للحجة عليهم بأن أرض الله واسعة كان يمكنهم أن يهاجروا فيها، لكنهم لم يفعلوا وآثروا البقاء وما جَرَّه البقاء وراءه من كفرٍ خضوعا للضغط والإكراه: "إن الذين تَوَفَّاهم الملائكة ظالمى أنفسِهم قالوا: فِيمَ كنتم؟ قالوا: كنا مستضعَفين فى الأرض. قالوا: ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم، وساءت مصيرا". فكما ترى فالمهاجر ينتقل فى هذه الحالات أيضا من المكان إلى المكوِّن برطانة الصوفية المغرمين باستعمال المصطلحات البراقة ضحكا على الذقون. وحتى بعدما استتبت الأمور لصالح الإسلام بفتح مكة وأعلن الرسول أنه "لا هجرة بعد الفتح، ولكنْ جهاد ونية" فإنه صلى الله عليه وسلم لم يقل إن المهاجر يشبه حمار الرحى. أستغفر الله. لقد قيل حقا: "الملافظ سَعْد". ثم يقول الصوفيون رغم هذا إنهم متواضعون، ويحقرون من شأن أنفسهم!

ثم ماذا حدث لمسلمى الأندلس الذين فضلوا البقاء فى شبه الجزيرة الأيبيرية على الانتقال إلى بلاد الإسلام بعد انتصار الكنيسة على المسلمين فى أواخر القرن الخامس عشر؟ ألم ينته أمر الإسلام فى تلك البلاد إلى الانقراض إما بقتلهم أو موتهم حتف أنوفهم أو إجبارهم على التنصر؟ إنهم لو كانوا قد هاجروا لَنَجَوْا من التنصر أو التعذيب الوحشى والقتل على أيدى محاكم التفتيش. لكنهم لم يفعلوا فكانت تلك المصائب. وفى هذه الأيام يتعرض المسلمون هنا

وهناك تحت سطوة الحكومات الغاشمة أجنبيةً ووطنيةً للظلم والتعذيب والعسف والحرق والقتل والاعتقال، فماذا ينبغى أن يفعلوا ؟ بعضهم لا يرى حلا سوى الهجرة إلى أماكن يأمنون فيها على أنفسهم ويتنفسون بشىء من الحرية.

وهناك أيضا الهجرة بحثا عن الرزق والعمل، وهناك الهجرة طلبا للعلم، وهناك الهجرة تجنبًا للملل وبحثًا عن الجديد الطريف وتوسعةً لآفاق الفهم والذوق، وهناك الهجرة لإقامة الدول كما حدث مع الفتح الإسلامى لكثير من البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وكما حدث مثلا لصقر قريش، ذلك الفتى الأموى الذى أنشأ دولة لبنى أمية فى جنوب غرب أوربا . وكل تلك الهجرات مشروعة مشروعية تامة ويباركها الله عز وجل ما دام المهاجر يحتفظ بإيمانه. وهناك المهاجرون الأوربيون الذين اكتشفوا أمريكا وامتلخوها من أيدى أصحابها واستولَوْا على ذهبها وصارت لهم خيراتها كلها لا يشاركهم فيها أحد بعدما قضوا على سكانها، وأسسوا دولتين لهم هناك. وهو ما يصدق بنحو أو بآخر على أستراليا، وكذلك على اليهود، الذين انتزعوا أجزاء كبيرة من فلسطين وأقاموا عليها دولة كانت ولا تزال مقصدا لكل من يريد من يهود من جميع أرجاء العالم، وإن كانت تلك الهجرات الأوربية بعيدة عن موضوعنا، لكنها الاستطرادات قاتلها الله.

وكم وضع المهاجرون كتبا رائعة سجلوا فيها ما شاهدوه وسمعوه وجربوه فى عالمهم الجديد وقارنوا بينها وبين نظائرها فى عالمهم القديم، فأمتعونا وأَغْنَوْا أفكارنا وصقلوا أذواقنا ووسعوا آفاق أذهاننا وأرهفوا أحاسيسنا وأشعلوا طموحنا وحركوا أحلامنا وأضافوا إلى الأدب إبداعات عظيمة. ولمصطفى محمود مشاركة طيبة فى الرحلات والكتابة عنها، ومن بين ما تركه فى هذا السبيل "مغامرة فى الصحراء" و"الغابة" و"الطريق إلى الكعبة" و"حكايات

مسافر" و"من أمريكا إلى الشاطئ الآخر" . وله رحلة، أو قل: "هجرة روحية" عنوانها "من الشك إلى الإيمان" .

ويبقى كلام المتصوفة، طبقا لما قاله المؤلف، عن الهجرة الحقيقية فى نظرهم، وأنها "الانتقال من وطن الملك إلى وطن الملكوت، ومن وطن الحس إلى وطن الروح" . ولكن هل يستطيع أى إنسان أن يترك الأرض والناس والحس إلى عالم الملكوت؟ وأين عالم الملكوت يا ترى؟ إن الإنسان قادر على الارتقاء الروحى من خلال عمله واختلاطه بالناس ومعاناة الحياة وخوض بحورها الهائجة المائجة، ومن خلال ذلك ليس إلا، ولا يمكن أن يتم ارتقاءٌ بعيدا عن العالم، وإلا فليخبرونا كيف، ومن أين يحصل الإنسان فى هذه الحالة على المال والطعام والماء، ويجد الأنس والعلاج إذا ما مرض؟ ومن يوفر له التعليم ويمده بالأخبار إذا ما قاطع الآخرين وعاش وحده بعيدا عنهم؟ هذا ما لا يمكن أن يكون.

نعم هناك روبنسون كروسو، الذى عاش وحده نحو ثلاثين عاما فى جزيرة منعزلة لا تطؤها قدم بشر، ومضت به الحياة سهلة بوجه عام حتى إنه مثلا لم يمرض قط سوى مرة يتيمة أصابته فيها نزلة برد سرعان ما عُوفِىَ منها فى يسر، وكان يصنع كل ما يحتاجه بنفسه وبغاية السلاسة، وبخاصة أنه كان قد حصل على ما كفاه لأعوام طوال من الملابس والطعام والسلاح والبارود وأدوات النجارة وغيرها من السفينة التى كان على متنها مع رفقائه البحارة فتحطمت، وغرقوا وتركوه وحيدا . ولكنى لما قرأت قصة البحار الحقيقى الذى حوّل دانييل ديفو حكايته إلى روايته الرائعة البديعة ألفيته قد عانى معاناة شديدة، ولم يمكث بجزيرته المنعزلة إلا عدة سنوات لا غير، وحين عاد إلى مجتمعات البشر كان محطم الروح مكتئبا حزينا، وكثيرا ما كان يبكى بلا سبب، ولا يستطيع بل لا يحب الاندماج مع البشر لا من أقاربه ولا من الأباعد . وهذا كله متاح فى كتابى: "روبنسون كروسو- دراسة فى الأدب المقارن" . إذن

فرواية "روبنسون كروسو" لم تقل الحقيقة بل ترك صاحبها لخيالاته العِنَان، فأبدع شيئًا ساحرا فاتنا مثيرا، لكنه بعيد عن الواقع.

إن الكلام النظرى سهل، وباب المزاعم مفتوح على مصراعيه فى وجه كل من يريد . لكن الحياة ليست كلاما نظريا بل واقعا حقيقيا . وأنا لا أدرى، ولست إخال أدرى، كيف يمكن هجرة عالم الحس إلى عالم الروح. إن هذا لا يحدث إلا بموت الشخص، أما وهو لا يزال حيا يدب على الأرض فكيف يمكنه بالله الانتقال من وطن الحس إلى وطن المعنى؟ أتراه سيغلق عينيه ويسد أذنيه ومنخريه ويخدر أعصاب جلده فلا تنقل له إحساسات اللمس أو السمع أو الشم أو البصر؟ الواقع أن مصيره فى هذه الحالة ليس شيئًا آخر غير الموت، على الأقل: لأنه لن يجد هواء يتنفسه. ثم لو أن هذا قد حدث، ولا أعرف كيف يمكن أن يحدث، فهل يقدر على التخلص من ذكرياته الحسية التى تملأ ذهنه؟ وأين يهرب من غرائزه وشهواته التى ركبها الله فيه فلا مناص له منها ؟ أم تراهم قد توصلوا إلى طريقة يحولون بها أنفسهم إلى كائنات أثيرية؟ إن الصوفية حريصون على تصوير أنفسهم بشرا خارقين روحيا وجسديا، ولكن عبثا، لأن الواقع يفقأ عين كل مكابر. وهم أضعف من الضعف، لكنهم قوم نفّاجون!

وينص مصطفى محمود، نيابة عن الصوفية، على أن أول خطوة للمتصوف كى يصل إلى الله هى التغلب على النفس. "فالنفس حجاب، والعقل حجاب، والعرف حجاب، وكل هذه الأشياء هى جلد الإنسان الخارجى وليست حقيقته، ولا بد من تجاوز هذه الأسوار حتى يستشرف على روحه فى بكارتها ويضع قدمه على عتباتها ليرى ما لا عين رأت ويسمع ما لا أذن سمعت. والتصوف إدراك عن طريق المدارك العالية. والمتصوف عارف، ولكن هدف معرفته هو الله فى كماله، وليس طلب المعارف الجزئية كالطبيعة والكيمياء والجغرافيا

والتاريخ. إنه يسعى إلى معرفة كلية بحاسة مختلفة ووسيلة مختلفة عن وسيلة المنطق وأدوات العلم الطبيعى المألوفة.

ولهذا كانت أول عقبة أمام المتصوف هى نفسه ذاتها ومألوف عاداته: "فلا اقتحم العقبة؟ * وما أدراك ما العقبة؟" (البلد). وفى بعض أخبار داود أنه قال: يا رب، أين أجدك؟ فقال: اترك نفسك وتعال. غِبْ عنها تجدنى. وفى هذا يفسر بعض المتصوفة كلام الله لموسى فى القرآن: "فاخلع نعليك، إنك بالوادى المقدَّس طُوًى" (طه). إن المقصود بالنعلين هما النفس والجسد، هوى النفس وملذات الجسد. فلا لقاء بالله إلا بعد أن يخلع الإنسان النعلين: نفسه وجسده بالموت أو بالزهد. والله يصورهما كنعلين لأنهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح فى عالم المادة، وعن طريقهما نزلت من سماواتها إلى الأرض".

ونبدأ بآخر شىء فى هذا النص، وهو تفسير النعلين فى الآية الكريمة بالنفس والجسد. يا ترى من أين استمدوا هذا التفسير؟ هل استمدوه من آيات أخرى فى القرآن المجيد؟ لا، فالقرآن لم ترد فيه عبارة "خلع النعلين" إلا فى هذا الموضع من سورة "طه". أم هل استمدوه من كلام النبى صلى الله عليه وسلم؟ لا أيضا، ففى الحديث نص واحد ليس إلا يقول: "نظرَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ إلى رجلٍ يمشى فى نعليهِ بينَ المقابرِ فقالَ: يا صاحبَ السِّبْتيَّةِ، اخلع نعليكَ". وواضح أن النعلين هما الحذاء لا الجسد والنفس. وفى حديث آخر عن صاحب النعلين: "فنظَر الرَّجلُ، فلمَّا عرَف رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خلَعَهما فرَمَى بهما"، أى خلَع النَّعلَينِ مِن رِجلَيْه امْتِثالا لأمرِ النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم". والنعلان فيه هما النعلان كما نعرفهما.

كما أن هذين النعلين فى العهد القديم هما النعلان اللذان نعرفهما ونلبسهما فى أقدامنا لا ريب فى ذلك قط. جاء فى الإصحاح الثالث من "سفر الخروج": "٢وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ

بِلَهِيبِ نَارٍ مِنْ وَسَطِ عُلَّيْقَةٍ. فَنَظَرَ وَإِذَا الْعُلَيْقَةُ تَتَوَقَّدُ بِالنَّارِ، وَالْعُلَّيْقَةُ لَمْ تَكُنْ تَحْتَرِقُ. ٣فَقَالَ مُوسَى: «أَمِيلُ الآنَ لأَنْظُرَ هذَا الْمَنْظَرَ الْعَظِيمَ. لِمَاذَا لاَ تَحْتَرِقُ الْعُلَّيْقَةُ؟». ٤فَلَمَّا رَأَى الرَّبُّ أَنَّهُ مَالَ لِيَنْظُرَ، نَادَاهُ اللهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلَّيْقَةِ وَقَالَ: «مُوسَى، مُوسَى!». فَقَالَ: «هأَنَذَا». ٥فَقَالَ: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى ههُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ». ٦ثُمَّ قَالَ: «أَنَا إِلهُ أَبِيكَ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ»".

ثم هل إذا خلع الشخص نفسه وجسده يتبقى منه شىء؟ إننا لا ندرك شيئا من أشياء الحياة إلا عن طريق الحواس الخمس. والحواس الخمس هى حواس الجسد بطبيعة الحال. أى أنه إذا لم يكن ثم جسد فلا حواس. فإذا خلع هذا الشخص نفسه مع جسده، وهى مناط الإدراك، كان معنى ذلك أنه لم يعد يوجد منه شىء بتاتا، ومن ثم لا يتم إدراك أى شىء من الأشياء. وعلى هذا فتعبير: "اخلع نعليك" لا يمكن أن يكون له شرح سوى الشرح الذى نعرفه جميعا لا المعنى الذى ألصقه الصوفية من عندهم به اختراعا وابتداعا لا استنادا إلى تقاليد لغوية أو بلاغية أو تاريخية.

وأخيرا فكيف يدل هذا التعبير على ذلك المعنى دلالة كنائية؟ متى كان النعلان يشيران إلى الجسد والنفس؟ وعلى أى أساس؟ المعروف أن الكناية، كما جاء فى "الإيضاح" للقزوينى، "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ كقولك: "فلان طويل النّجَاد"، أى طويل القامة، و"فلانة نؤوم الضحى"، أى مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعى بنفسها فى إصلاح المهمات. وذلك أن وقت الضحى وقت سعى نساء العرب فى أمر المعاش وكفاية أسبابه وتحصيل ما يحتاج إليه فى تهيئة المتناولات وتدبير إصلاحها فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها فى السعى لذلك. ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طول النجاد والنوم فى الضحى من غير تأويل". وهذا مما لا ينطبق على "خلع النعلين"، فخلعهما عند العرب لا

يدل على خلع الجسد والنفس فعلا أو مجازا، بل يقصدون من خلعهما إبداء الاحترام للمكان تقديسا أو حرصا على نظافته أو على ملامسته ملامسة مباشرة دون حائل من حذاء. وهذا موجود فى قوله جل شأنه: "اخلع نعليك. إنك بالوادى المقدس طُوًى". فالأمر إذن أمر احترام وتقديس وحث على نيل البركة لا أمر تجرد من الجسد والنفس، وإلا فكيف وَعَى موسى كلامَ ربه إليه وفهمه ورد عليه؟

وفى الطبرى مثلا أن الله أراد بخلع النعلين أن تمس قدماه الوادى المقدس حتى تنالا بركة ذلك الوادى. وفى الزمخشرى فوق ذلك "أن الحفوة (أى الحفاء) تواضع لله، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافِين. ومنهم من استعظم دخول المسجد بنعليه، وكان إذا ندر منه الدخول منتعلا تصدَّق. والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها وتشريف لقدسها". وفى "البيان والتبيين" للجاحظ عن قول اللّه تبارك وتعالى لموسى: "اخلَعْ نعلَيْك إنَّك بالوادِ المقدَّسِ طُوًى": "قال بعض المفسّرين: كانت من جلد غير زكيّ. وقال الزُّبَيْرى: ليس كما قال، بل أعْلَمَه حقَّ المقام الشريف والمدخل الكريم. ألا ترى أنّ الناس إذا دخلوا إلى الملوك ينزِعون نعالهم خارجا؟".

أما المتصوفة فعلاوة على التأويل الذى ساقه مصطفى محمود نجد القشيرى مثلا يقول: "ويقال: الإشارة فى الأمر بخلع النعلين تفريغ القلب من حديث الدارَيْن، والتجرد للحقِّ بنعت الانفراد. ويقال: "اخلع نعليك": تَبَرَّأْ عن نَوْعَى أفعالك، وامْحُ عن الشهود جِنْسَى أحوالِك من قُرْبٍ وبُعْدٍ، ووَصْلٍ وفَصْلٍ، وارتياح واجتياح، وفناء وبقاء، وكُنْ بوصفنا، فإنما أنت بحقنا". وفى "عرائس البيان فى حقائق القرآن" للبقلى: "لما غاب فى الغيب فى طلب الرب ناداه الحق وقال: إيش الطلب؟ أنا ربك، أى ما ترى يسرك وروحك وعقلك فهو جمال ربك، وإن كنت فى تلبيس الفعل والصفة. لو تريد أن ترانى صِرْفًا فاخلع نعليك، أى نعلى الكونين، فإنك بالواد

المقدس، وادى الأزل المقدس عن غبار الكون والحسبان وأنفاس النفس والشيطان، ولا ينبغى أن تأتى قدس القدم بآثار أهل العدم حتى يطوى لك وادى الآزال والآباد وينكشف سرائرها لهمتك وقلبك وروحك وسرك. وأيضا اخرج أنت منك حتى تتصل بى، فأنا لمن لم يكن لنفسه".

وعند ابن عربى فى تفسيره: "فاخلع نعليك، أى نفسك وبدنك أو الكونين لأنه إذا تجرّد عنهما فقد تجرّد عن الكونين. أى كما تجرّدت بروحك وسرّك عن صفاتهما وهيئاتهما حتى اتصلت بروح القدس تجرّد بقلبك وصدرك عنهما بقطع العلاقة الكلية ومحو الآثار والفناء عن الصفات والأفعال. وإنما سماهما: "نعلين"، ولم يسمهما: "ثوبين" لأنه لو لم يتجرّد عن ملابسهما لم يتصل بعالم القدس والحال حال الاتصال، وإنما أمره بالانقطاع إليه بالكلية كما قال: "وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا" (المزمل). فكأنه بقيت علاقته معهما، والتعلق بهما يسوّخ قدمه التى هى الجهة السفلية من القلب المسماة بـ"الصدر"، فهما بعد التوجه الروحى والسرى نحو القدس، فأمره بالقطع عنهما فى مقام الروح. ولهذا علل وجوب الخلع بقوله: "إنك بالواد المقدّس طوى"، أى عالم الروح المنزّه عن آثار التعلق وهيئات اللواحق والعلائق المادية، المسمى: "طوى" لطى أطوار الملكوت وأجرام السموات والأرضين تحته". واضح أن المتصوفة بارعون فى الكلام الإنشائى الرنان الفارغ مع هذا من المعنى الحقيقى، وأنهم اخترعوا هذه التفسيرات اختراعا على عادتهم دون الاستناد إلى شىء يسوّغ ما يقولون.

أما محمود محمد طه صاحب كتاب "القرآن ومصطفى محمود والفهم العصرى" فى الرد على مفسرنا فيقول فى فصل "أسماء الله" إن النعلين فى الآية "هما نفسه وزوجته. فقد كان فى المكان الأول مشغولا بزوجته، إذ تركها فى الظلام الدامس، وكان البرد عليها شديدا، فلما أتى النار وسمع الخطاب انزعج وخاف وانشغل بنفسه، فخوطب أن "اترك هَمَّك بنفسك

وهَمَّك بزوجك، وفرِّغ بالك منهما جميعا" . وعجيب وغريب أن يقال إن المراد بالنعلين هما موسى وزوجته. أفلم يكن هناك شىء آخر يمكن الكناية به عن النبى الكريم وامرأته غير النعلين؟ ألا إن هذا لتحقير شديد . ثم كيف يوصف الإنسان بأنه نعل نفسه؟ إنه أمرٌ يصعب بل يستحيل تصوره. وقد أورد الكاتب السودانى ما يقوله بعض المتصوفة عن النعلين بأنهما الدنيا والآخرة وما نُسِب إلى أبى يزيد البسطامى من قوله: "الزهد عندى ليس بشىء، فقد مكثت فيه ثلاثة أيام: ففى اليوم الأول زهدت فى الدنيا، وفى اليوم الثانى زهدت فى الآخرة، وفى اليوم الثالث زهدت فى كل ما سوى الله، فقيل لى: ما تريد؟ فقلت: أريد ألا أريد" . وهو كلام بهلوانات، إذ الزهد ليس قرارا إداريا يؤخذ ويُفْرَغ منه وينفذه أصحاب الشأن وينتهى عندئذ أمره، بل هو رغبات وشهوات ينبغى أن يحاربها الإنسان طوال الوقت لأن الشهوة ليست شيئًا ماديا يقتلعه الإنسان من جسده ويرميه ويرتاح إلى الأبد بل هى نبض دائم فى القلب، وخواطر فى العقل لا تستكن ولا تستكين، ووساوس لا تهدأ أبدا، وعلى الإنسان التيقظ لها دائما، وكثيرا ما يضعف أمامها ويستسلم لها أو يكاد . إن كلام البسطامى، إن صح أنه له، معناه أن حضرته لم يكن يجوع ولا يعطش ولا يشتاق لزوجته ولأولاده ولا يفكر فى مرتبة يصبو إليها ولا تتعلق نفسه بأصدقاء يحب مجالستهم ومحادثتهم ولا يجد فى نفسه حاجة إلى كتاب يقرؤه ولا تتمرر نفسه لإزعاج أو عدوان يقع عليه من أحد وليس له حق عند أحد تنشغل نفسه بالتفكير فى الحصول عليه ولا يبالى بملابسه بل لا يبالى بأن تكون له ملابس أصلا ولا يشعر بحر أو برد ولا يعتريه ضيق أو ملل أو فتور همة أو مرض أو وجع . . . إلخ. إنه السوبرمان! وهذا كله كذب غبى لا يصدقه إلا غبى أبله. إن البسطامى حتى لو تحول إلى شىء مادى فالأشياء المادية تتسلط عليها عوامل التعرية.

هذا عن خلع النعلين، أما كلام المتصوفة عن أن "النفس حجاب، والعقل حجاب، والعرف حجاب، وأنه لا بد من تجاوز هذه الأسوار حتى يستشرف المتصوف على روحه فى بكارتها ويضع قدمه على عتبتها ليرى ما لا عين رأت ويسمع ما لا أذن سمعت" فهو كلام عجيب لا حقيقة له، إذ لو تجاوز الإنسان عقله ونفسه فماذا سيبقى منه؟ وهل يمكن أن تقوم الروح بمعزل عن الشخص، فضلا عن أن تكون بكرا، أى نقية طاهرة لم تلوث بعد، فى الوقت الذى يكون هو فيه ملوثا غير صاف ولا نقى؟ ترى كيف يكون ذلك؟ إن عقل الإنسان ونفسه هما عمودا شخصيته، وبدونهما لا كيان للشخص.

ونصل إلى الدعوى بأنه فى هذه الحالة سوف يرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهى دعوى غير مقبولة ولا صحيحة لأن هذا إنما يكون فى الجنة لا فى الحياة الدنيا على الأرض، التى خُلِق الإنسان فيها فى كَبَدٍ ومعاناة. قال عليه السلام: "يقول اللهُ: أَعْدَدْتُ لعبادى الصالحين ما لا عينٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ. فاقرأوا إن شِئْتُم: "فلا تعلم نفسٌ ما أُخْفِى لهم من قُرَّة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون". وفى الجنةِ شجرةٌ يَسِيرُ الراكبُ فى ظلّها مائةَ عامٍ لا يَقْطَعُها. واقرَأُوا إن شِئْتُم: "وظلٍّ ممدود". وموضعُ سوطٍ فى الجنةِ خيرٌ مِن الدنيا وما فيها. واقرَأُوا إن شِئْتُم: فمَنْ زُحْزِحَ عن النار وأُدْخِل الجنةَ فقد فاز. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور".

وهناك أيضا القول بأن المتصوف عارف، ولكن هدف معرفته هو الله فى كماله، وليس طلب المعارف الجزئية كالطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ، وأن العقبة التى ينبغى أن يتخطاها والتى ورد الحديث عنها فى سورة "البلد" هى نفس المتصوف ذاتها. وبدايةً ينبغى أن نعرف أننا لا نعرف الله إلا من خلال خلق الله، أما أن نعرف الله فى كماله بعيدا عن خلقه فكيف يكون؟ كما أننا نحن المسلمين فى العصر الحديث متخلفون علميا، أى فى الطبيعة

والكيمياء والطب والجيولوجيا . . . إلخ، ومن ثم فنحن متخلفون عسكريا واقتصاديا، وضعفاء ضعفا مزريا . وعلى هذا فأنا غير مرتاح إلى التقليل من شأن العلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية، وكأننا قد شبعنا من هذه العلوم حتى بَشِمْنا، بل وكأننا يمكن أن نكون أقوياء بدون تلك العلوم. ترى ألم نشبع بَعْدُ من التخلف حتى يردد بعضنا هذا الكلام العجيب؟ لقد قال الرسول إن العلماء لا المتصوفة هم ورثة الأنبياء، وإن فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب، وإن من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع، وقال لرجل بقى فى المسجد بعد الصلاة يظن أنه يعبد الله إن أخاه الذى انصرف بعد الصلاة من المسجد ويقوم بالإنفاق عليه هو أعبد منه. كما أن القرآن، طوال حديثه إلينا، إنما يخاطب عقولنا ويطالبنا بالتفكير والتفقه لا بالمواجيد والغياب عن العالم وإلغاء العقل والعلم. وهذا مما لا يمكن أن يشاحّ فيه أحد، فهو مبثوث فى كل أرجاء القرآن بحيث إنك أينما توجهت وجدته أمامك لا يمكنك تجاهله أو الغفلة عنه. فماذا نريد أكثر من ذلك حتى نفهم أن ما يقوله المتصوفة هو كلام ساذج لا يسمن ولا يغنى من جوع أو عطش ولا من برد أو حر؟

أما العَقَبة التى ذكرتْها سورة "البلد" فليست عقبةَ النفس كما يقول الصوفية بل هى عقبة الأعمال الصالحة والأخذ بيد المساكين المسحوقين المعوزين الضائعين، إذ من الصعب على النفس إخراج المال، فإخراجه عقبة كؤود . يقول جل جلاله: "وما أدراكَ ما العَقَبَةُ؟ * فَكُّ رقبةٍ * أو إطعامٌ فى يومٍ ذى مَسْغَبَةٍ * يتيما ذا مَقْرَبَةٍ * أو مسكينا ذا مَتْرَبَةٍ * ثم كان من الذين آمنوا وتَوَاصَوْا بالصبر وتَوَاصَوْا بالمَرْحَمَة * أولئك أصحاب المَيْمَنَة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المَشْأَمَة * عليهم نارٌ مُؤْصَدَة" . وكما هو واضح بل ساطع فإن بعض الصوفية، على الأقل، يعملون على إشاعة الاضطراب فى تفسير القرآن ويحمّلونه أوهامهم

ودعاواهم الطنانة الفارغة التى لا يقوم عليها دليلٌ ولاوِين رقابَ الآيات إلى جهة معاكسة للجهة التى تتجه الآيات الكريمة إليها .

ولدن حديثه عن الدعاء وتأثيره وعلاقته بالتصوف يقول مصطفى محمود: "الوسيلة إليه (أى إلى الله) ليست مجرد شقشقة باللسان بأن نقول: يا رب. فكل واحد يقول: "يا رب" بعقل فارغ تماما عن مدلول الكلمة. إنما النداء على الله أمر جليل. وهو صميم التصوف، بل هو التصوف ذاته، ولا يقدر عليه إلا أصحاب القلوب والبصائر والهمم العالية. وهذا لا يعنى أنه لا بد أن تكون درويشا لتدعو الله فيستجيب، وإنما طُهر القلب وخلوص الضمير والتوجه بجُمْع الهمة هو الشرط.

أما الذى يقول: "يا رب، ارزقنى مائة جنيه" فهو رجل يمزح مزاحا سخيفا، فهذه أمور يمكن أن يسعى إليها بأسبابها الدنيوية المعروفة، وليس طريقها التصوف. وكشك سجاير على ناصية عماد الدين يحل المشكلة. والمتصوف متجرد، وهو قد نفى المطلب الدنيوى من باله لأنه يريد مطلبا أعظم. والمتصوف متأدب، وهو يمرض فلا يسأل الله الشفاء حياء وأدبا، ويقول: كيف أجعل لنفسى إرادة إلى جانب إرادة الله فأسأله ما لم يفعل، وأنا الذى لا أعلم ما ينفعنى مما يضرنى؟ كيف يعترض الذى لا يعلم على الذى يعلم؟ ومن يدرينى أن مرضى وآلامى ليست الوسية إلى خلاصى؟ وهذه مبالغة غير مطلوبة من المسلم، فالله يحب منا أن نسأله. ولكن الصوفى من باب الخوف والأدب لا يطلب من الله إلا ما يطلبه الله منه، فيقول كما قال النبى إبراهيم: "ربِّ، اجعلنى مُقِيمَ الصلاة" (إبراهيم)، فهو يجعل من إرادة الله إرادته الخاصة ومسعاه حبا واحتراما لخالقه. والحب هدف المتصوف الأسمى:

ليس لى فى الجِنَان والنار حظٌّ أنا لا أبتغى بحبى بديلا"

لكن هل لا بد أن يكون الإنسان الذى ينادى ربه من أصحاب القلوب والهمم العالية حتى يستجاب له؟ إن الله هو رب الجميع، وهو يرزق ا لجميع، ويفيض نعمه على الجميع، فلم عند الدعاء لا يستجيب إلا لصاحب القلب والهمة العالية والمطالب الضخمة؟ ألا يجيب سبحانه المضطر المكروب حتى لو لم يكن من أصحاب الهمم العالية؟ إن هذا لتضييق للواسع لا معنى له، وبخاصة أننا لسنا مجيبى الدعوات وفكاكى الكروب بل نحن مجرد عبيد ضعفاء لا حول لنا ولا طول ولا طاقة، ونمد أيدينا كما يمدها كل مكروب راجين رحمة ربنا منتظرين عفوه واستجابته.

وغريب أن يتهم د. مصطفى من يطلب من الله مائة جنيه بأنه يمزح مزاحا سخيفا. ترى هل آلة الصرف الإلهى تخلو من الأوراق المالية فئة المائة جنيه؟ ولنلاحظ هنا أن هذا المبلغ كان مبلغا كبيرا فى وقت تأليف الكتاب فى أول سبعينات القرن المنصرم. إن كل برغوث على قدر دمه كما يقال. والمائة الجنيه إذا كانت لا تمثل شيئا لسين من الناس فإنها كل شىء بالنسبة لصاد. والله هو الرب الذى يعطينا من أول المليم إلى التريليونات.

بل إن مصطفى محمود نفسه فى الفصل الموسوم بـ"لم يلد ولم يولد" من كتابه: "حوار مع صديقى الملحد" يرد على من ينكر وجود الله وينتقد متهكما تدخله فى كل شىء من أمور الحياة حتى التافه منها قائلا: "هل الرب الجدير فى نظره هو رب عاطل مغمًى عليه لا يسمع ولا يرى ولا يستجيب ولا يعتنى بمخلوقاته؟ ثم من أين للسائل بالعلم بأن موضوعا ما تافه لا يستحق تدخل الإله، وموضوعا آخر مهم وخطير الشأن؟ إن الذبابة التى تبدو تافهة فى نظر السائل فلا يهم فى نظره أن تسقط فى الطعام أو لا تسقط، هذه الذبابة يمكن أن تغير التاريخ بسقوطها التافه ذلك. فإنها يمكن أن تنقل الكوليرا إلى جيش وتكسب معركة لطرف آخر تتغير بعدها موازين التاريخ كله... إنما الإله الجدير بالألوهية هنا هو الإله الذى أحاط بكل شىء

علما، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، الإله السميع المجيب المعتنى بمخلوقاته".

وانطلاقا من هذا فإن المسلم حتى حين يدخل الحمام يدعو ربه قائلا: اللهم إنى أعوذ بك من الخُبُث والخبائث. أفتراه يصح أن نعترض على مثل هذا الدعاء المرتبط بقضاء الحاجة، وهو أمر غير لائق يتجنب الناس عادة الحديث عنه؟ كذلك فالمسلم يستخير الله فى كل ما ينوى الإقدام عليه مهما تكن تفاهته، وليس هناك من ينكر عليه استخارته لربه فى محقرات الأمور.

أما قول مصطفى محمود، غفر الله لنا وله، إن كشك سجاير على ناصية عماد الدين يحل المشكلة فإنه يغفل عدة أمور هامة: فالمسلم أولا لا يبيع اللفائف لأنها ضارة ضررا شديدا. وكشك السجاير يمثل معضلة لا تعد مشكلة الجنيهات المائة شيئًا إزاءها، فكيف يحصل الفقير البائس الذى يحتاج إلى المائة جنيه على كشك كامل؟ وأين؟ فى ناصية عماد الدين حيث كل شىء أغلى منه فى غيره. إن ذلك معناه أن يتجه الرجل البائس إلى ربه يطلب منه كشك سجائر بدلا من مائة جنيه، وبالتالى تزداد المعضلة عضولا بتفكير مصطفى محمود. أم تراه يظن أن الله سبحانه قد قسم استجابات الأرزاق: فأكشاك الحلوى والسجائر ليست من اختصاصه، أما سائر الأشياء الأخرى فمنه تُطْلَب، وبها يستجيب؟

ونأتى إلى المرض، الذى يقول د. مصطفى عن المتصوفة إنهم يخجلون أن يطلبوا من ربهم الشفاء منه. والسؤال: لم؟ وهل هناك إله آخر يمكن أن نتجه إليه فى المرض طالبين الشفاء؟ فأين هو ذلك الإله؟ ترى أهذا أدب من المتصوف كما يظن؟ أبدا، فالله سبحانه يحب من عباده أن ينادوه ويدعوه ويبتهلوا إليه. ولم يحدد قائمة بمطالب معينة لا يصح أن ندعوه من أجلها. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللهَ تعالى أنزل الداءَ والدواءَ، وجعل لكلِّ

داءٍ دواءً، فتداوَوْا ولا تداوَوْا بالحرامِ" . أى أن الرسول عليه السلام يأمرنا بأن نبحث عن الدواء ونتداوى به ولا نترك أنفسنا فريسة للمرض ينهشنا ويقضى علينا أو يحول حياتنا جحيما بحجة الاستحياء من الله سبحانه، وهو كلام المنافقين الكذابين، نعوذ بالله من كل منافق كذاب.

وكان رسول الله يدعو ربه قائلا: "اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدين والبدن"، "اللهم عافنى فى بدنى. اللهم عافنى فى سمعى. اللهم عافنى فى بصرى"، وإذا مرض أحد من أصحابه دعا له بالشفاء والتخلص من الآلام، ولم يقل إنه يستحى أن يدعو الله له كما يزعم الصوفيون كذبا أنهم يفعلون. وفى الحديث أنَّ "النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دخل على سعدٍ يعودُه بمكةَ، فبكى. قال: ما يُبكيك؟ فقال: قد خشيتُ أن أموتَ بالأرضِ التى هاجرتُ منها كما مات سعدُ بنُ خولةَ. فقال النبى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: اللهم اشفِ سعدًا ! اللهم اشفِ سعدًا ! ثلاثَ مرار"، و"كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا اشتكى منا إنسانٌ مسحَه بيمينِه، ثم قال: أَذْهِبِ الباسَ ربَّ الناسِ، واشفِ أنت الشافى، لا شفاءَ إلا شفاؤُكَ، شفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا" .

وكان يحض على عيادة المرضى للتخفيف عنهم ورفع روحهم المعنوية، ولم يقل بتركهم يقاسون مرضهم وحدهم لأنه لا يصح أن نطلب من الله الشفاء لأنفسنا ولا للآخرين حسب دعاوى الصوفيين الفارغة المتنطعة. جاء فى الحديث: "يقولُ اللهُ جلَّ وعلا: يا ابنَ آدَمَ، مرِضْتُ فلَمْ تَعُدْني. فيقولُ: يا ربّ، وكيف أعُودُكَ وأنتَ ربُّ العالَمينَ؟ فقال: أمَا علِمْتَ أنَّ عبدى فُلانًا مرِضَ؟ فلو كُنْتَ عُدْتَه لَوجَدْتَ ذلكَ عندى" .

وكان صلى الله عليه وسلم يحتجم، وحين يمرض يتداوى بما كان متاحا فى عصره وبيئته من علاج: "حجم أبو طَيْبةَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فأعطاه صاعًا من تمرٍ وكلَّم مواليه

أن يخفّفوا عنه من ضربِته، فدخل عليه عيينةُ أو الأقرعُ فقال: ما هذا الذى يبطُّك؟ قال وهو يَمُصُّه بقرنٍ ويبطُّه بشفرةٍ، فقال: هذا الحجمُ، وهو خيرُ ما يتداوى به". وكان الصحابة إذا أصيبوا فى معركة أو مرضوا التمسوا العلاج والدواء، فهل نكون أفضل من النبى وصحابته الكرام؟ ألا إن القول بهذا لكذب وبهتان عظيم.

ثم إننا بهذا المنطق لا ينبغى أن ننظف أجسادنا، فقد قمنا من النوم فوجدنا رائحتها غير طيبة بناء على قوانين الله وسننه الكونية، أى مشيئته، ومن ثم لا يصح أن نغتسل لأننا لا يصح أن تكون لنا مشيئة بجانب مشيئته سبحانه، فضلا عن أنه قد يكون ابتلاؤه لنا برائحة الجسم المزعجة لفائدة لا نعرفها. وقس على ذلك كل ما نحتاجه أو ننفر منه فى هذه الدنيا الصعبة.

إن الصوفى، كما يقول مؤلفنا رحمه الله، لا يطلب شيئًا من أشياء الدنيا لأن له مطلبا أعظم. فهل يستطيع أحد، كائنا من كان، أن يدير ظهره لمطالب الدنيا؟ هل يستطيع أحد، حتى لو كان أكبر صوفى فى الكون، أن يعلو فوق حاجة بطنه إلى الطعام والشراب، وجسده إلى الملابس التى تدفئه فى الشتاء وتقيه حرارة الشمس فى الصيف وتستر عورته فى كل الفصول، وفرجه إلى الزواج، وقلبه إلى السرور، وعقله إلى إرضاء فضوله طبقا لرتبته الإنسانية من علو أو انحطاط؟ فهذه هى الدنيا.

ونحن لا يمكننا أن نتجه إلى الله كى ننال رضاه ونقترب منه ونفوز برضوانه إلا إذا كنا أحياء، ونحن لا نكون أحياء إلا بالأكل والشرب واللبس والجنس. والأكل والشرب والجنس هو الدنيا. ومن هذا كله يتبين أن الصوفية مغرمون غراما مَرَضِيًّا بالدعاوى الطويلة العريضة التى إذا جئتَ تفتشها ألفيتَها خاوية لا معنى لها ولا مضمون. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو ربه كثيرا بهذا الدعاء: "اللهمَّ أَصلِحْ لى دينى الذى هو عصمةُ أمرى، وأَصلِحْ لى دنياى التى فيها معاشى، وأَصلِحْ لى آخرتى التى فيها مَعادى، واجعلِ الحياةَ زيادةً لى فى كلِّ خيرٍ،

واجعلِ الموتَ راحةً لى من كلِّ شر"، فها هو ذا يدعو ربه، ولا ينسى الدنيا عليه الصلاة والسلام.

ولا تتوقف دعاوى القوم لدن هذا الحد بل تتخطاه إلى آماد أخرى. يقول مصطفى محمود إن الصوفى "يقول للفقهاء: أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت. تقولون مثلا: "حدثنا فلان عن فلان"، وكلهم موتى. والواهب الحق علام الغيوب أقرب إليكم من حبل الوريد، وهو معكم أينما كنتم. ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم. فكيف تتركونه وتأخذون العلم عن سواه؟ ولهذا يقول المتصوفة عن علمهم بأنه علمٌ لَدُنِّىٌّ، من لدن الله، لا علم نقل من الكتب".

والواقع أن العلم علمان: علم يأتينا عن طريق الأنبياء والرسل. وهذا لا علاقة له بالصوفية لأنهم ليسوا بأنبياء أو رسل بل ناسا مثلى ومثلك رغم كل طنطناتهم الفارغة. وعلم يأتينا عن طريق الحواس والعقل والطبيعة التى نتخذ منها غرضا للدراسة معملين فيها حواسنا، ومخضعين إياها للعقل وملاحظته وتفكيره واستنتاجاته. وهذا العلم يتنفج الصوفية فينفون عن أنفسهم الاستفادة منه كما رأينا . وعلى هذا فلو صدق الصوفى فى كلامه لكان معناه أنه جاهل لا يتلقى علما من أية جهة: لا من جهة الله ولا من جهة البشر.

أما أننا نحن البشر العاديين نأخذ علمنا ميتا عن ميت فهذا هو المسار الطبيعى لتلقى العلم. إن البشر إنما يتلقون علومهم ومعارفهم عن بشر مثلهم لا عن جن أو عفريت أزرق، وهم يفتخرون بهذا، ويَنْصَبُون فى الاستفادة منه ويتعبون ويسهرون الليالى ويقلبون الفكر فى سبيل ذلك. والميت الذى يأخذ علمه عن ميت مثله إنما يجرى على السنة التى تركها لنا الرسول عليه السلام، فكل ما نتعلمه عن ديننا فمأخوذ من النبى عليه السلام ثم صحابته وتابعيهم وتابعى تابعيهم. وهؤلاء هم الموتى الذين أخذنا عنهم العلم. فكيف يعيب المتصوف ذلك؟ ثم

إن هؤلاء الموتى قد أخذوا علمهم عن الله سبحانه قرآنا من خلال الرسول عليه السلام، والله سبحانه ليس من الأموات ولا يمكن أن يكون. وحتى لو صدقنا هذا البكش الصوفى فهل كل المتصوفة يتلقون علمهم عن الله مباشرة؟ طبعا لا، إذ هناك فى ميدان التصوف الشيخ والمريد، والمريد يتعلم من الشيخ بغض النظر عما يتعلمه عنه. أى أن من المتصوفة من يتلقون علمهم ميتا عن ميت حسب رطانتهم.

وتستمر المغالاة فى الحديث عن المتصوفة فنقرأ أنهم "يصفون أنفسهم بأنهم أهل الحضرة، ويأخذون أنفسهم بالرياضات الروحية العنيفة والصيام والعبادة المتصلة إلى درجة إفناء الذات فى الله. وسيلتهم إلى الله أسماؤه الحسنى ومحبته القصوى التى تملأ كل ذرة من القلب فلا يعود لهم شاغل إلا ذكره. لا يرون شيئًا إلا رأو الله فيه. هؤلاء هم أهل السر والقرب والشهود والأولياء الصالحون حقا".

فما معنى "الحضرة"؟ وما معنى "أهل الحضرة"؟ كلام فضفاض لا يمكن فهمه أو استيعابه. ولِمَ يأخذون أنفسَهم بالرياضات العنيفة، والله سبحانه يقول: "ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟"؟ إن تعذيب الذات ليس من الإسلام فى شىء. ورسول الله لم يكن يعذب نفسه ولم يطلب من صحابته أن يعذبوا أنفسهم، بل أباح لهم مثلا القَصْرَ والجَمْعَ فى الصلاة، والإفطارَ فى رمضان فى حالات معينة تخفيفا عنهم. ورفض أن يصوم المسلم الدهر كله، كما حذر المسلم من إهمال زوجته وبيته وأولاده تحت عذر العبادة، وأكد أن الأخ الذى يجرى على أخيه المكثر من الصلاة خير من أخيه ذاك. . . وهكذا. ثم هل تُبْقِى الرياضة العنيفة فى الشخص طاقة يعى بها ثمارها ويتلذذ منها؟ إن سقف التحمل البشرى قريب: "وخُلِق الإنسان ضعيفا" كما قال القرآن الكريم، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها كما نقرأ فى آية

أخرى. أما الصوفية فيزعمون عكس ذلك، ويصورون أنفسهم وكأنهم كائنات من طينة أخرى غير طين البشر. وهى مزاعم لا تدخل عقل قطة.

"جاء ثلاثُ رهطٍ إلى بُيوتِ أزواجِ النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَسأَلونَ عن عبادةِ النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلما أُخبروا كأنهم تقَالُّوها، فقالوا: أين نحن منَ النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قد غفَرَ اللهُ له ما تقدَّمَ من ذنْبه وما تأخَّر. قال أحدُهم: أما أنا فإنى أُصلِّى الليلَ أبدًا. وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطِرُ. وقال آخَرُ: أنا أعتزِلُ النساءَ فلا أتزوَّجُ أبدًا. فجاء رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: أنتمُ الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما واللهِ إنى لأخشاكم للهِ وأتقاكم له. لكنى أصومُ وأُفطِر، وأُصلِّى وأرقُدُ، وأتزوَّجُ النساء. فمَن رغِب عن سُنَّتى فليس منى".

"دخَلتِ امرأةُ عثمانَ بنِ مظعونٍ على نساءِ النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فرأَينَها سيِّئةَ الهيئةِ فقُلْنَ: ما لكِ؟ ما فى قريشٍ رجلٌ أغنى مِن بَعْلِك! قالت: ما لنا منه شىء: أمَّا نهارُه فصائمٌ، وأما ليلُه فقائمٌ. قال: فدخل النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذكَرْنَ ذلك له، فلقيه النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: يا عثمانُ، أمَا لك فِى أسوةٌ؟ قال: وما ذاك يا رسولَ الله، فداك أبى وأمّى؟ قال: أمَّا أنتَ فتقومُ اللَّيلَ وتصومُ النَّهارَ، وإنَّ لأهلِكَ عليك حقًّا، وإنَّ لجسدِك عليك حقًّا. صَلِّ ونَمْ، وصُمْ وأفطِرْ. قال: فأتَتْهم المرأةُ بعدَ ذلك عطِرةً كأنَّها عروسٌ، فقُلْنَ لها: مَهْ، ! قالت: أصابنا ما أصاب النَّاسَ".

وتقول زوجة أبى الدرداء: "أتانى سَلْمَانُ الفارسى يُسلِّمُ علَى، وعليه عَباءةٌ قَطَوانيَّةٌ مُرتَدِيًا بها، فطرَحْتُ له وسادةً، فلَمْ يُرِدْها ولفَّ عَباءةً فجلَس عليها فقال: بحَسْبِكِ ما بلغكِ مِن المحَلِّ. ثمَّ حمِد اللهَ ساعةً وكبَّر وصلَّى على النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثمَّ قال: أينَ صاحبُكِ؟ يعنى أبا الدَّرْداءِ. فقُلْتُ: هو فى المسجدِ. فانطلَق إليه، ثمَّ أقبَلا جميعًا، وقد

اشتَرى أبو الدَّرداءِ لحمًا بدِرْهمٍ، فهو فى يدِه مُعلّقُه، فقال: يا أُمَّ الدَّرْداءِ، اخبزى واطْبُخي. ففعَلْنا ثمَّ أتَيْنا سَلْمَانَ بالطَّعامِ، فقال أبو الدَّرْداءِ: كُلْ مع أُمِّ الدَّرْداء، فإنِّى صائمٌ. فقال سَلْمانُ: لا آكُلُ حتَّى تأكُلَ. فأفطَرَ أبو الدَّرْداءِ وأكَل معه، فلمَّا كانتِ السَّاعةُ الَّتى يقومُ فيها أبو الدَّرْداءِ ذهَب ليقومَ أجلَسَه سَلْمَانُ، فقال أبو الدَّرْداءِ: أتنهانى عن عبادةِ ربِّى؟ فقال سَلْمَانُ: إنَّ لِعَيْنكَ عليكَ حقًّا، وإنَّ لأهلِكَ عليكَ نصيبًا. فمنَعه حتَّى إذا كان فى وجهِ الصُّبحِ قامَا فركَعَا ركَعاتٍ وأوتَرَا ثمَّ خرَجَا إلى صلاةِ الصُّبْحِ، فذكر أمرَهما للنَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما لِسَلْمَانَ، ثكِلَتْه أُمُّه؟ لقد أُشْبِع مِن العِلْمِ".

وقال رسولِ الله لعبد الله بن عمرو بن العاص: "يا عبدَ الله بنَ عمرٍو، تصومُ النَّهارَ وتقومُ اللَّيلَ؟ قال: فقلتُ: نعم. قال: إنَّك إذا فعلتَ ذلك هجمت العينان ونقِمت النَّفسُ. إنَّ لعينك عليك حقًّا، وإنَّ لجسدِك عليك حقًّا، وإنَّ لأهلِك عليك حقا. فقُمْ ونَمْ، وصُمْ وأفطِرْ: صُمْ ثلاثةَ أيامٍ من كلِّ شهرٍ، فذلك الدَّهرُ. قال: قلتُ: إنِّى أقوَى من ذلك. فقال: لا صام من صام الأبدَ، فإن كان ولا بُدَّ فصُمْ صوْمَ رسولِ الله داودَ: كان يصومُ يومًا ويُفطِرُ يومًا، ولا يفِرُّ إذا لاقَى".

ويا ترى كيف يفنى الإنسان فى ربه؟ كيف يمتزج البشرى فى الإلهى؟ وإذا فَنِىَ فى ربه فكيف يحس بذاته ويقوم بواجباته نحو نفسه وأسرته ومجتمعه وأمته؟ إن هذا كله كلام جميل لكنه لا محصلة وراءه. مجرد كلام، والسلام. وهل تكون العبادة فى الإسلام مجرد ترديد لأسماء الله؟ من قال ذلك؟ لقد أمرنا الرسول أن نردد عبارات مثل "سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر" على سبيل التنفل لا على سبيل الوجوب، ولم يفرضها عليه السلام، ولم يتركها مفتوحة بل جعلها عددا محدودا من المرات لا تستغرق أكثر من دقيقتين أو ثلاث لمن يحب. ولم نسمع قط

أن رسول الله دخل فى ترديد "يا لطيف يا لطيف يا لطيف" مثلا دون انقطاع حتى يدركه الإرهاق فلا يدرى ما حوله. ثم كيف يا ترى ينشغل الإنسان بربه فلا يتسع عقله لشىء آخر؟

هذا مستحيل، فحاجات الإنسان لا تنتهى من جوع وعطش وتوق إلى زوجته وتعلق بأولاده ورغبة فى الدخول إلى الحمام ليتخلص من فضلاته ورغبة فى النوم قاهرة لا يملك إزاءها شيئا، فالنوم سلطان قاهر كما نعرف جميعا. وحين تعن للإنسان حاجة فكيف يا ترى يتجاهلها ويمضى فى حياته لا يفكر فيها ولا يبالى بإشباعها ويستمر فى حياته على هذا النحو دون توقف؟ ثم هناك عمله الذى يأكل منه عيشا ولا بد له من تأديته، اللهم إلا إذا كان من تنابلة السلطان الذين ينتظرون أن يعلفهم الآخرون بينما هم لا يعملون شيئا بالمقابل بحجة أنهم يعبدون الله، مع أن العبادة فى الإسلام ليست صلاة وصياما فحسب بل السعى على الرزق وطلب العلم وإتقان العمل والتفكر فى مجال التخصص والتأمل فى الكون، كل هذا وغيره عبادة ذات أجر عظيم. وقد كان الرسول وصحابته يقضون أيامهم على هذا النحو لا فى التطوح وترديد كلمة "يا لطيف يا لطيف يا لطيف" دون انقطاع، إن كان ذلك ممكنا، ولا أظنه ممكنا.

إن عالما يقضى وقته فى معمله يجرى تجربة يكتشف بها مرضا أو يبحث عن دواء أو يحسّن سلالة من سلالات النبات أو يبلور قانونا من قوانين الطبيعة مثلا، وإن أستاذا ينفق وقته فى إعداد محاضرته أو ناقدا يجتهد فى النظر فى عمل أدبى وتناوله بالشرح والتحليل والتذوق وتقديم ذلك كله للقارئ غنيمة باردة، أو مؤرخا يعكف على تأمل وقائع المعارك والسياسة والحركة الاجتماعية فى مجتمع ما لفهم وضع ذلك المجتمع والخروج بما يبغيه من النتائج السليمة، وإن زارعا يصرف سويعاته فى حرث أرضه وبذر الحب والرى، وإن حِرْفيًّا يسلِّك مواسير الصرف الصحى للناس حتى لا تغرق شققهم، وإن نجارا يركب الكوالين حتى لا تسرق البيوت، وإن كواء يهندم الملابس حتى يبدو الناس بها فى منظر حسن، وإن طالبا يعكف على كتبه

وكراريسه يقرأ ويكتب ويستذكر ويتعلم ويرقّى عقله وذوقه لأفضل مليون مرة من المتطوحين الذين لا يفعلون شيئًا سوى ترديد اسم من أسماء الله.

ونختم هذا الفصل بما كتبه مصطفى محمود فى نفس الموضوع فى فصل "لغز الزمن" من كتابه: "من أسرار القرآن" حيث يقول أثناء كلامه عن الزمن وتغيره بتغير الكوكب أو المجرَّة: "ويمكن للإنسان أن يعيش أيضا فى مرتبة أعلى فيخرج من زمن الشهوة إلى زمن العقل ويعيش فى تأمل وسكينة وهدوء. كما يمكنه أن يرتفع فيعيش كالصوفية فى تسرمد روحى مع الواحد، وذلك بالخروج تماما من هموم الدنيا ورغباتها وترك عالم التعدد والشتات إلى جمعية قدسية مع الله فيشم رائحة الجنة وهو ما زال على الأرض". وهذا كلام جميل لكن بلا رصيد فى عالم الواقع، فالإنسان لا يمكنه نسيان الدنيا أبدا حتى لو رزق قوة شمشون وصبر أيوب، إذ الدنيا وشهواتها إنما تجرى فى عروقه وتمازج دماءه، ولا مفر له منها مهما عمل وتكلف واجتهد. إن هذا تصوير مزيف لإمكانات المتصوفة يتسم بالغلوّ الساذج المضحك، فهم بشر عاديون يجوعون ويعطشون ويحتاجون إلى دخول الحمام كل قليل ويحنون ويشتهون ويقلقون ويطمعون ويسيل لعابهم كما يسيل لعاب أى منا نحن الغلابى الذين لا نبرع مثلهم فى الكلام الفاضى الذى لا يروح ولا يجىء.

عالم الغيب فى كتاب مصطفى محمود

أول ما أحب التوقف إزاءه فى هذا الموضوع قول د . مصطفى محمود، فى بداية الفصل المعنون: "الغيب" تعليقا على ما جاء فى القرآن من حديث عن عالم الغيب ووجوب إيمان المسلمين به رغم أنه ليس عليه دليل ملموس، إن "الدين إحساس قبل أن يكون نظرية تؤخذ بالبرهان، وهو حالة قلبية أولا قبل أن يكون فلسفة عقلية . وكامتحان لهذه الحالة القلبية وهذا الموقف القلبى يطرح علينا الله فى القرآن من الطلاسم الغيبية ما لا يمكن أن نقيم عليه برهانا بالسلب أو بالإيجاب. وبهذا يكشفنا أمام نفوسنا ، فإذا نحن نرفض ونكذّب بالرغم مما تصورناه فى أنفسنا من إيمان لأنه لم يكن أكثر من إيمان قشرة. كان مجرد جدل عقلى. وأمثال هذه الطلاسم الملائكة والجن والساعة والعرش والكرسى والصراط والروح والميزان واللوح والقلم والبرزخ" . وبعد قليل يضيف قائلا: "وهذه إشارة بأن حكاية القرين من الجن هى أيضا أمر غيبى لن يُفْهَم الآن، ولكن سوف يتضح فى ميقاته وزمانه . ولكن علينا أن نؤمن إذا كان لنا قلب وإحساس وفطرة وروح تَذْكُر ما كان لها فى عالم الملكوت. والحقيقة أن الإيمان بالجن والملائكة قلبا هو دليل كاشف على نوع من التذكر الغامض لعالم القدس والملكوت وأنه إيمان دال على شىء، وليس مجرد تسليمٍ خاوٍ" .

هذا ما قاله المرحوم مصطفى محمود . لكن هل الإيمان إحساس وحالة قلبية فعلا؟ لو كان الأمر كذلك لكانت كل الديانات مقبولة لأن أصحابها يرتاحون إليها بقلوبهم ولا يُعْمِلون فيها عقولَهم. ثم إن الله سبحانه وتعالى، حين يخاطب عباده داعيا إياهم إلى الإيمان به وبرسله وكتبه، يخاطب عقولهم ويستفز المنطق فيهم، ويلفتهم إلى الآيات المبثوثة فى الكون من حولهم وموضع العبرة والبرهان فيها ، ولا يقول لهم: اتبعوا إحساساتكم وميول قلوبكم. ودائما ما نقرأ

فى القرآن الكريم: "إن كنتم تعقلون"، "إن كنتم تعلمون"، "لقوم يعلمون"، "لقوم يعقلون"، "لقوم يَذَّكَّرون"، "أفلا تعقلون؟"، "لعلكم تعقلون"، "لعلهم يفقهون"، "لعلهم يتذكرون"، "فاعتبروا يا أولى الأبصار"، "وما يَذَّكَّرُ إلا أولو الألباب" . . . إلخ، ويدعوهم إلى استعمال عقولهم وتفكيرهم، ويطالبهم بالدليل على ما يتمسكون به. وهذا كله معروف لا حاجة بنا إلى إطالة الوقوف إزاءه.

كذلك إذا ما كان الإيمان بالجن والملائكة يرتكز على تذكُّر ما كان فى عالم القدس والملكوت فمعنى ذلك أن من يكفر بهما لن يعاقب إذا لم يتذكر، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها . ثم لم يا ترى يتذكر ناس ولا يتذكر آخرون؟ لكن هل المؤمنون بالجن والملائكة يتذكرون شيئًا مما يتحدث عنه مصطفى محمود؟ الواقع أنه لم يقل واحد من البشر على مدى القرون المتطاولة إنه قد تذكر حياته فى عالم القدس والملكوت التى كان يحياها قبل إتيانه إلى عالمنا هذا . وهذا إن كانت لنا حياة قبل هذه الحياة الأرضية، وهو أمر لم يذكره القرآن ولا أشار إليه. ولو كان الأمر كما قال فلماذا لا نجد القرآن يذكِّرنا بهذا الماضى بدلا من أن يدعونا إلى الإيمان بالغيب مباشرة؟ ولماذا لم يسجل لنا التاريخ محاولات الصحابة تذكُّر هذا العالم القديم عندما دعاهم الرسول عليه السلام إلى الإيمان به فاستجابوا له؟ وهل يصح أن يسمى هذا العالم: "غيبًا"، وقد كنا نحيا فيه ونستطيع أن نتذكره؟ كذلك لو كان الأمر كما يقول مصطفى محمود لما كان إتياننا إلى الدنيا ليتمّ عن طريق الجماع والحمل والولادة بل عن طريق اختراقنا الحاجز الذى يفصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة. ثم إن الأمر يصبح على هذا النحو تذكرا لا إيمانا . أليس كذلك؟

والطريف أن د . مصطفى محمود، الذى يتحدث هنا عن عالم القدس بكل ثقة وأريحية، هو هو نفسه الذى يقول فى فصل "مخيَّر أم مسيَّر؟" عن قوله تعالى فى أوائل سورة "البقرة"

حول الحوار الذى دار بين الله من جهة وبين الملائكة وآدم من جهة أخرى ما نصه: "ولا نعرف كيف تم هذا العرض على الإنسان بأن يكون حرا أو لا يكون ولا متى تم هذا العرض: هل حدث فى مبدإ الخلق مع آدم أم مع الأرواح قبل نزولها إلى الأرحام؟ فهذا غيب مطلق".

وكنت أحب أن يتبع هذه السبيل فى الحديث عما سماه: "عالم القدس"، ذلك العالم الذى لم يرد له ذكر فى القرآن أو فى الحديث، وليس إلا من بُنَيَّات خياله رحمه الله.

وقد تناول الكثيرون موقف القرآن المجيد من العقل وإعماله، ومنهم المرحوم العقاد، الذى يقول فى كتابه: "التفكير فريضة إسلامية" عن هذا الموضوع ما نصه: "من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين لأنها تَثْبُت من تلاوة الآيات ثبوتًا تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ اليسير قبل الرجوع فى تأييدها إلى المناقشات والمذاهب التى قد تختلف فيها الآراء. وتلك المزية هى التنويه بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التَّبِعة والتكليف. ففى كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو إلى التمييز، ولكنها تأتى عَرَضًا غير مقصودة، وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئًا من الزِّرَاية بالعقل أو التحذير منه لأنه مزلَّة العقائد، وباب من أبواب الدعوى والإنكار. ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضَبة فى سياق الآية، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يُحَثّ فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يُلام فيها المُنْكِر على إهمال عقله، وقبول الحَجْر عليه.

ولا يأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنًى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة، بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته، فلا

ينحصرخطاب العقل فى العقل الوازع ولا فى العقل المدرِك ولا فى العقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح، بل يعم الخطاب فى الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنسانى من خاصة أو وظيفة، وهى كثيرة لا موجب لتفصيلها فى هذا المقام المجمل، إذ هى جميعًا مما يمكن أن يحيط به العقل الوازع، والعقل المدرِك، والعقل المفكر الذى يتولى الموازنة والحكم على المعانى والأشياء".

كذلك لا يصح أن نُغْفِل المحور الذى يدور عليه كتاب مصطفى محمود الذى بين أيدينا، وهو أنه رحمه الله يحاول أن يفسر القرآن العظيم مستعينا بالعلوم العصرية لا بالأحاسيس ولا بالحالات القلبية. فكيف ينسى هذا ويقول إن الإيمان إنما يقوم على تلك الأحاسيس وهذه الحالات؟ صحيح أنه ليس هناك دلائل ملموسة على وجود هذه الغيبيات كما يقول، لكن لا ينبغى أن يغيب عن بالنا عدة أمور: الأول أننا قد سبق أن أعملنا عقولنا فى الإيمان بوجود الله وصدق رسوله وإلهية المصدر القرآنى. ومن ثم فالنتيجة التى تترتب على هذا هى الثقة فيما يتحدث عنه القرآن المجيد من تلك الغيبيات. لقد وضعنا الأساس لإقامة العمارة، ولا يعقل أننا كلما أردنا أن نبنى طابقا من طوابق العمارة متبعين التصميم الذى وضعه المكتب الهندسى عُدْنا ففحصنا القواعد والأساسات من جديد قبل أن نبنى الطابق المذكور، ثم لا يتوقف الأمر عند هذا بل يركبنا الوسواس فنعيد النظر فى الموضوع كل حين دون أى داع. والأمر الثانى هو أن الله سبحانه كثيرا ما يضرب لنا الأمثال لتقريب هذه العقائد وتعريفنا أنها منطقية تماما. والثالث أننا فى عصرنا هذا قد اكتشفنا كثيرا من العوالم الخفية التى كانت غائبة عن الإنسان منذ آدم عليه السلام كعالم الميكروبات والجراثيم والفيروسات والطاقة الكهربية والذرة والموجات الصوتية والموجات الضوئية وغير هذا، وهو ما من شأنه تعريفنا بأننا إذا كنا لا نرى الملائكة والجن وما إلى ذلك فهذا ليس دليلا على أنهم غير موجودين، بالضبط مثلما أن خفاء العوالم

المشار إليها أعلاه عن حواسنا طوال تلك المدة لا يعنى أبدا أنها لم تكن موجودة فى تلك الأثناء . وهذا مجرد مثال لتقريب الفكرة ليس إلا . ثم إن المسلم يؤمن بقدرة الله على خلق عوالم لا يطولها إدراكه بنفس الطريقة التى يخلق بها العوالم المادية التى تلتقطها الحواس.

وفى نفس الفصل يقف مصطفى محمود أمام قوله تعالى فى الكلام عن الشيطان وتبرؤ الإنسان منه يوم القيامة على النحو التالى: "يا ليت بينى وبينك بُعْدَ المَشْرِقَيْن. فبِئْسَ القَرِين"، ويفسرها بأنها "آية شديدة اللطف والخفاء، فنحن نعرف أن أبعد نقطتين على الأرض هما ما بين المشرق والمغرب. ولكنه فى هذه الآية يقول: "يا ليت بينى وبينك بُعْدَ المَشْرِقَيْن"، يقصد بذلك أقصى البعد . وهو أمر لا يمكن تفسيره إلا أن يكون مغرب الشمس هو فى نفس الوقت مشرقا لها على مكان آخر . وهو أمر لا يكون إلا على أرض كروية تدور، فتصبح بذلك كلمة "بعد المشرقين" على أنهما أبعد نقطتين بالفعل، أبعد حتى مما بين المشرق والمغرب" .

وهذا كلام جميل، لكن د . مصطفى محمود، رحمه الله، لم يقف أمام استبدال عبارة "بُعْد المشرقَيْن" بعبارة "بُعْد المشرق عن المغرب" . وتفسيرها أن العرب هكذا تقول فى مثل تلك الحالة: فهى تقول: "العُمَرَان" بدلا من "أبى بكر وعمر"، و"الحَسَنان" بدلا من "الحسن والحسين"، و"الزهدمان" بدلا من "زهدم وقيس من بنى عوير بن رواحة" و"الأحوصان" بدلا من "الأحوص بن جعفر بن كلاب وعمرو بن الأحوص"، و"الحُرَّان" بدلا من "الحُرّ وأُبَىّ، وهما أخوان"، و"الأقرعان" بدلا من "الأقرع بن حابس ومرثد أخيه"، و"الطُّلَيْحَتان" بدلا من "طُلَيْحَة بن خُوَيْلد الأسدى وأخيه"، و"المُصْعَبان" بدلا من "مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله"، و"الذُّهْلان" بدلا من "ذهل وشيبان"، و"العَمْران" بدلا من "عمرو بن جابر وبدر بن عمرو"، و"الأَبَوَان" بدلا من "الأب والأم"، و"القمران" بدلا من "الشمس والقمر"، و"الأسودان" بدلا من "التمر والماء"، و"الأبيضان" بدلا من "اللبن والتمر"، و"العصران" بدلا من "الظهر

والعصر"، و"الأذانان" بدلا من "الأذان والإقامة"، و"الدُّحْرُضان" بدلا من "دحرض ووشيع، وهما ماءان"، و"البصرتان" بدلا من "البصرة والكوفة"، و"الأخرجان" بدلا من "الأخرج وساج، وهما جبلان" . . . وهكذا فى كل اثنين متشابهين، إذ يُثَنَّيَان اسم أحدهما بدلا من ذكر الاسمين واحدا وراء الآخر.

ولدن كلامه عن السحر يشير مصطفى محمود إلى صنع السامرى العجل الذهبى بوصفه سحرا مع أن القرآن لم يقل إنه سحر لا على لسان السامرى نفسه ولا على لسان موسى حينما حَرَّق العجل ونسفه فى اليم كما جاء فى سورة "طه". بل إنه يعد سحر سحرة فرعون وسحر النفاثات فى العقد وما أشبه هو علما قديما اندثر، أما ما بقى بيننا فهو شعوذات. ولا أدرى كيف عرف أنه كان هناك علم للسحر قديم اندثر، وأن هناك فرقا بينه وبين ما نراه ونسمع به حولنا من شعوذات؟ أين الدليل؟ ألم يصف القرآن سحر سحرة فرعون بالبطلان وأنه ليس سوى تخييلات لا حقيقة لها؟ ثم إننا إذا وصفنا السحر بأنه علم فهو إذن ليس سحرا، إذ العلم والسحر نقيضان لا يلتقيان. أما آية سورة "البقرة" التى تتحدث عن الشياطين وتعليمهم الناس السحر وعن مَلَكَىْ بابل: هاروت وماروت فأرى أنها من المتشابه الذى لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه، فلا ينبغى أن نخوض فيها، إذ تتسم بالإيجاز ولم يأتنا عن الرسول تفسير لها.

وهو، رحمه الله، يتحدث عن الغيب كما لو كان من الممكن الكشف عنه لنا متى ما قرأنا القرآن وعملنا به وطبقنا كل حرف فيه ونادينا على الله بأسمائه فى خشوع وطلبنا العلم والعمل وانتظرنا الفتح مصداقا لقوله تعالى: "والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا" كما يقول، مع أن سياق الآية لا يدل على أن هذا هو المقصود، بل المقصود النجاح فى الدنيا والنجاة فى الآخرة، وليس شهود الغيب. وها هى ذى حياة الصحابة الكرام أمام أعيننا: لم نسمع أن أحدا منهم كان يتطلع إلى مشاهدة الغيب أو يعمل على الوصول إليه. والمجاهدة فى الله هى أن نجتهد

للتفوق فى الدنيا والخلاص فى الآخرة. والمسلمون الآن متخلفون علميا وحضاريا، وينبغى أن يضعوا الانعتاق من هذا التخلف الشائن نُصْبَ أعينهم، ويعرفوا أن هذا هو الميدان الذى ينبغى أن يتنافس فيه المتنافسون للتقرب إلى الله والفوز بفلاح الأرض والسماء.

الواقع أننا نقرب من الله، بعد إيماننا به وعبادتنا له وشكرنا إياه، متى ما بذلنا جهدنا وارتقينا بحياتنا فجعلناها نظيفة جميلة منظمة وملأناها علما ومعرفة وعملا وإنتاجا وانتقلنا من خانة الأمم الضعيفة المهينة إلى قائمة الأقوياء المقتدرين الذين يحظَوْن باحترام الدول والشعوب والمؤسسات العالمية. أما الانشغال بعالم الغيب ومحاولة الاتصال به وإدراكه فهو تضييع وقت. علينا أن ننشغل بالواقع الذى حولنا ونعمل على كشف أسراره كما يفعل الغربيون، الذين سادوا الدنيا منذ قرون بهذه الكشوف، ونفيد منها أنفسنا والبشرية من حولنا ولا نبقى مجرد مستهلكين لثمار الحضارة نمد أيدينا فى ذلة وخزى وهوان للحصول على بعض نتائجها بثمن باهظ ندفعه من كرامتنا واستقلالنا وأموالنا، التى نحن جديرون بتوفير الكثير جدا جدا منها لو شاركنا فى صنع الحضارة وتقدمنا علميا واقتصاديا وعسكريا وذوقيا.

وقد أكد د. مصطفى محمود نفسه هذا حين قال فى فصل "العلم والعمل": "إن العالم الغربى الأوربى بما فيه من علم وعمل وفكر ونشاط دائب خلاق هو أقرب إلى جوهر الإسلام وجوهر القرآن من هذا الشرق الكسول المتخاذل الغارق لأذنيه فى الجهل المزرى... والذين يمسحون كسلهم وجهلهم فى عباءة التصوف ويقول الواحد منهم، وقد أخلد إلى خلوة فارغة وتأمل خاوٍ: "أنا متصوف"، ينسى أن الهجرة إلى الله عند المتصوف لا تكون إلا بالعلم والعمل وأن المتصوف عليه أولا أن يطلب العلم، فإذا عَلِم كان عليه أن يعمل بما عَلِم... والمتصوفون الأوائل كانوا مرابطين يحملون السلاح ويدافعون عن الأوطان: المصحف فى يد، والسلاح فى يد... إن الشجاعة والشهامة والصدق وقتال الباطل وإحقاق الحق والعمل على عمارة الدنيا

بالخير والعدل بين الناس ومحاربة الاستغلال ونصرة الضعيف هى من صميم الدين، بل هى الدين ذاته".

وفى بداية الفصل المعنون بـ"الساعة" من كتابه الذى نناقشه الآن يتناول رحمه الله علامات تلك الساعة، فيذكر أول شىء فيها "الدخان"، ويسوق قوله تعالى فى سورة "الدخان": "فارتَقِبْ يوم تأتى السماءُ بدخانٍ مبينٍ * يغشى الناسَ: هذا عذاب أليم * ربنا، اكشف عنا العذاب، إنا مؤمنون * أَنَّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسولٌ كريمٌ؟ * ثم تَوَلَّوْا عنه وقالوا: معلَّمٌ مجنونٌ * إنا كاشِفُو العذابِ قليلا. إنكم عائدون * يوم نبطش البطشةَ الكبرى. إنا منتقمون"، ثم يتبعها بنص من رؤيا يوحنا اللاهوتى يشير إلى تصاعد دخان من بئر يتعذب الناس به خمسة أشهر.

وفى تفسير الطبرى: "اختلف أهل التأويل فى هذا الذى أمر الله عزّ وجلّ نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرتقبه، وأخبره أن السماء تأتى فيه بدخان مبين: أى يوم هو؟ ومتى هو؟ وفى معنى الدخان الذى ذُكِر فى هذا الموضع، فقال بعضهم: ذلك حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش ربه تبارك وتعالى أن يأخذهم بسنين كسِنِى يوسف، فأُخِذوا بالمجاعة. قالوا: وعَنَى بالدخان ما كان يصيبهم حينئذٍ فى أبصارهم من شدة الجوع من الظلمة كهيئة الدخان. ذِكْرُ مَنْ قال ذلك: حدثنى عيسى بن عثمان بن عيسى الرملى، قال: ثنا يحيى بن عيسى، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: دخلنا المسجد، فإذا رجل يقص على أصحابه ويقول: "يَوْمَ تأْتِى السَّماءُ بِدُخان مُبِينٍ". تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة فيأخذ أسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شِبْهُ الزكام؟ قال فأتينا ابن مسعود، فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعًا، ففزع فقعد فقال: إن الله عزّ وجلّ قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: "قُلْ ما أسأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ، وَما أنا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ". إن من العلم أن يقول

الرجل لما لا يعلم: الله أعلم. سأحدثكم عن ذلك، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان. قال الله تبارك وتعالى: "يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَاسَ: هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ"، فَقَالُوا: "رَبَّنا، اكْشِفْ عَنا العَذَابَ. إنَّا مُؤْمِنُونَ". قال الله جلّ ثناؤه: "إنَّا كاشِفُو العَذَابِ قَلِيلا إنَّكُمْ عائِدُونَ * يَوْم نَبْطِش البَطْشَةَ الكُبْرَى. إنَّا مُنْتَقِمُونَ". قال: فعادوا يوم بدر، فانتقم الله منهم".

وبعد أن ناقش مفسرنا الكبير الرأيين ووازن بينهما أعطانا حكمه قائلا: "وأَوْلَى القولين بالصواب فى ذلك ما رُوِى عن ابن مسعود من أن الدخان الذى أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرتقبه هو ما أَصاب قومه من الجهد بدعائه عليهم على ما وصفه ابن مسعود من ذلك إن لم يكن خبر حُذيفة الذى ذكرناه عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحًا. وإن كان صحيحًا فرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما أنزل الله عليه، وليس لأحد مع قوله الذى يصح عنه قول. وإنما لم أشهد له بالصحة لأن محمد بن خلف العسقلانى حدثنى أنه سأل روّادًا عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا. فقلت له: فقرأته عليه؟ فقال: لا. فقلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر، فأقرّ به؟ فقال لا. فقلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءنى به قوم فعرضوه على وقالوا لى: اسمعه منا. فقرأوه على ثم ذهبوا، فحدّثوا به عنى، أو كما قال. فلما ذكرت من ذلك لم أشهد له بالصحة، وإنما قلت القول الذى قاله عبد الله بن مسعود: هو أولى بتأويل الآية، لأن الله جلّ ثناؤه توعَّد بالدخان مشركى قريش وأن قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم: "فارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ" فى سياق خطاب الله كفار قريش وتقريعه إياهم بشركهم بقوله:"لا إلَهَ إلا هُوَ يُحْيِى ويُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأوّلِينَ * بَلْ

هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ"، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام: "فارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ" أمرًا منه له بالصبر إلى أن يأتيهم بأسه وتهديدًا للمشركين. فهو بأن يكون، إذ كان وعيدًا لهم قد أحله بهم، أشبه من أن يكون أخره عنهم لغيرهم. وبعد فإنه غير منكر أن يكون أحلّ بالكفار الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم، ويكون مُحِلا فيما يستأنف بعد بآخرين دخانا على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا كذلك، لأن الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تظاهرت بأن ذلك كائن، فإنه قد كان ما رَوَى عنه عبد الله بن مسعود. فكلا الخبرين اللذين رُوِيَا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح".

ومن الواضح البين من الآيات الكريمات أن الكلام عن دخان فى الدنيا لا فى يوم القيامة بغض النظر عن الأحاديث التى وردت فى هذا الموضوع، فإنما حديثى هنا عن النص القرآنى الذى أورده د. مصطفى محمود بوصفه كلاما عن اليوم المذكور. ذلك أن السياق هو سياق عذاب دنيوى، ومن ثم سمعنا المشركين يجأرون إلى الله أن يكشف عنهم العذاب. ولو كان الأمر فى العالم الآخر لقال كل واحد فيهم كما فى سورة "المؤمنون": "ربّ، ارْجعون لَعَلّى أعملُ صالحًا فيما تركتُ"، أما هنا فنسمعهم يدعون بتخفيف العذاب. ويؤكد هذا أن الله سبحانه يعدهم بأنه سيكشف العذاب عنهم قليلا. ولو كان العذاب عذابا أخرويا فلا كشف ولا تخفيف. وثالثا يقول ربنا عز شأنه لهم مهددا: "إنكم عائدون * يومَ نَبْطِش البطشةَ الكبرى. إنا منتقمون" إشارة إلى هزيمتهم الساحقة المذلة يوم بدر. والمهم أنه قال إنكم عائدون ثانية، وهذا لا يكون إلا فى الدنيا، أما فى الآخرة فلا عودة. وعلى هذا فاستشهاد مصطفى محمود بهذه الآيات على دخان أخروى يحدث يوم القيامة لا يصح حتى لو كان هناك فعلا دخان قبل يوم القيامة، إذ الآيات لا تتعلق إلا بدخان الدنيا.

ثم ما معنى استشهاد د. مصطفى محمود برؤيا يوحنا اللاهوتى؟ هل يصح أن نضعها مسامتة للقرآن؟ فى الجواب عن هذا السؤال نحيل القراء الكرام إلى "دائرة المعارف الكتابية" حيث نقرأ تحت عنوان "رؤى – كتابات الرؤى" أن "هناك سلسلة من المؤلفات تحمل أسماء مستعارة، وهى فى غالبيتها من أصل يهودى، ظهرت خلال الفترة بين ٢١٠ق. م– ٢٠٠م، وهذه الكتابات لها سمات مشتركة أبرزها أن هناك تشابها بين هذه المؤلفات جميعها وسفر دانيال، حيث تستخدم معظم هذه المؤلفات أسلوب الرؤى كأسلوب أدبى لتقدم من خلاله مفاهيمها أو تصوراتها عن المستقبل البعيد. وقد صاحب هذه الحركة ظهور الكتابات السبلينية، وبخاصة فى الإسكندرية. وأسلوب الرؤى فى الكتابات الأدبية استخدمه فرجيل فى "الإنيادا"، فقد كان معاصرًا لظهور عدد كبير من تلك المؤلفات. ومما يستلفت النظر أن معظم هذه الكتابات كان معروفا عند الكتّاب المسيحيين فى القرون الأولى، ولكنها اختفت فى العصور الوسطى وظلت مجهولة حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر". أى أن رؤيا يوحنا اللاهوتى ليست سوى نص أدبى تخيلى يعكس تطلعات الكاتب إلى المستقبل ورغباته التى يريدها أن تتحقق فيه. وإلا فأية رؤيا هذه التى تطول عشرات الصفحات وتفيض بالأحداث المتشابكة الغامضة التى تقبل عشرات التفسيرات ويظل رائيها متذكرا لكل دقائقها كأنه كان يسجلها بالصوت والصورة؟ وعلاوة على هذا فيوحنا اللاهوتى لم يكن نبيا أصلا. وهذا إن صح أنه هو صاحب السِّفْر.

ومن بين العلامات التى ذكر د. مصطفى محمود أيضا أنها من علامات القيامة يأجوج ومأجوج، الذين وردت قصتهم فى سورة "الكهف". وقد سخرتْ من كلامه فى هذا الأمر د. بنت الشاطئ فى فصل "بيت العنكبوت" من كتابها عنه قائلةً إن يأجوج ومأجوج الذين جاء ذكرهم فى سورة "الكهف" لا علاقة لهم بالآخرة. ولا أظن مصطفى محمود قد أخذ هذه

الحكاية على أنها ذات صلة بالآخرة إذ هو يعرف أنها فى الدنيا ، وإن كان قد حاول تفسيرها تفسيرا رمزيا كقوله إن السد الذى بناه لهم ذو القرنين هو سد الجهل والتخلف الذى كان يحجزهم خلفه والذى سوف يهدمونه حين يتقدمون علميا وحضاريا . ومع هذا فإن القرآن سرعان ما أضاف أن السد سوف ينهدم ويتدفق يأجوج ومأجوج من كل اتجاه ليقترب عندئذ الوعد الحق، أى يوم القيامة. فسخرية بنت الشاطئ من الدكتور مصطفى محمود سخرية فى غير موضعها ، وبخاصة أنه لم يقل إن هذا تفسير قاطع بل عبر عن حيرته وحيرة المفسرين الآخرين أمام هذه الآيات، مؤكدا أن المسألة كلها رجم بالغيب، وأن كل ما قيل فيها تخمين فى تخمين، وأن أحدا لا يستطيع تفسيرها إلا حين يعاينها عند وقوعها . أما قبل ذلك فلا .

ومرة أخرى نرى الدكتور مصطفى محمود هنا يستشهد بسفر يوحنا اللاهوتى، مؤكدا أنه يقول نفس ما يقوله القرآن مع أن الكلام هنا غيره هناك، ولا صلة بين الاثنين سوى ذكر يأجوج ومأجوج. ففى سفر يوحنا اللاهوتى نقرأ: "متى تمت الألف سنة يُحَلّ الشيطان من سجنه ويخرج لِيُضِلّ الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض: يأجوج ومأجوج ليجمعهم للحرب، وعددهم مثل رمل البحر" . فهل فى القرآن تحديد للوقت الذى سينصرم قبل تدفق يأجوج ومأجوج بألف سنة؟ بطبيعة الحال لا، إذ ها هى ذى أحداث حكايتهم المذكورة فى القرآن وبناء ذى القرنين السد لهم قد وقعت منذ أكثر من ألف سنة بأزمان طوال، ومع هذا لم يحدث أن انهار السور وتدفقت يأجوج ومأجوج. كذلك ففى نص يوحنا اللاهوتى كلام عن الحرب لا وجود له فى النص القرآنى الشريف. وبالمثل ليس فى نص القرآن أية إشارة إلى الشيطان الذى سيحل من سجنه ويخرج ليضل أمم الأرض التى هى يأجوج ومأجوج.

من هنا أرى أن مصطفى محمود لم يكن عنده أى حق فى إقحام رؤيا يوحنا اللاهوتى فى هذا السياق، وبخاصة أن هذه الرؤيا مختَلف حولها عند النصارى أنفسهم سواء فى ذلك

مؤلفها وطبيعة شخصيته وتاريخ تأليفها والظروف التى تم فيها ذلك التأليف، وتفسير المعانى التى تشتمل عليها، بالإضافة إلى ما فيها من أخطاء لغوية. . . إلخ طبقا لما نقرأ فى مادة "رؤيا يوحنا" بـ"دائرة المعارف الكتابية" . فكيف يساوى مصطفى محمود بين القرآن وتلك الرؤيا ؟ ألا إن ذلك لعجيب! ليس هذا فحسب، إذ نراه فى كتاب "التوراة" يسخر من حكاية يأجوج ومأجوج فى العهد القديم وما يقوله ذلك الكتاب عنهم من أن الله سوف ينكل بهم أيما تنكيل ويقضى عليهم من أجل عيون بنى إسرائيل، وهو ما يجعل الله إلها قبليا لليهود وحدهم دون الأمم الأخرى يحارب أعداءهم بنفسه نيابة عنهم. ثم يمضى فيأتى من التوراة (العهد القديم) بنصوص، وعلى لسان الله ذاته، تدل على أنها تم تحريفها .

فإذا تحولنا إلى فصل "البعث" لفت نظرى فى مفتتحه تفسير د . مصطفى محمود قوله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: "إنك ميتٌ، وإنهم ميتون" على أساس أنه فى ذلك الوقت لم يكن حيا بل ميتا وليس على أساس أنه سوف يموت، وإلا لقال بدلا من ذلك: "إنك سوف تموت، وإنهم سوف يموتون" . ويقصد مصطفى محمود من وراء ذلك إلى القول بأن الإنسان ليس له وجود بذاته بل بالله سبحانه، فهو الذى خلقه، وهو الذى يقوم على أموره، ولو رفع يده عنه لصار عدما . ونحن معه بطبيعة إيماننا فى أن الله سبحانه وتعالى هو خالقنا ورازقنا والمنعم علينا، ولولا هو لما كنا . لكن العبارة القرآنية لا تعنى هذا بل تشير إلى أن الرسول وقومه سوف يموتون. لقد ظن د . مصطفى محمود أن استخدام اسم الفاعل فى الخبر يعنى أنهم ميتون الآن. لقد فاته أن هذا التركيب، وإن دل فى الظاهر على الحالية، إنما يشير إلى المستقبل كما نقول مثلا: "أنا مسافر غدا"، و"أنا قادم الأسبوع المقبل"، و"المرض زائل بمشيئة الله" . . . بل إن الآية التى تلى ذلك تستعمل الفعل المضارع الذى يدل على الزمن

الحاضر: "ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون"، ومع هذا فالمقصود أن الاختصام سوف يتم يوم القيامة، أى فى أبعد مستقبل، إذ ستكون الدنيا كلها قد انتهت وصارت فى خبر كان.

ومثلها فى القرآن قوله سبحانه فى سورة "البقرة" مخاطبا الملائكة قبل خلق آدم: "إنى جاعلٌ فى الأرض خليفةً". ومثلها قوله جل جلاله فى سورة العنكبوت": "كُلُّ نفس ذائقةُ الموت". ومثلها قول قوم عاد حين رأوا عارضا فى السماء بعد أن أنذرهم هود بأنهم سوف تنزل بهم صاعقة إن لم يرعووا ويكفّوا عن كفرهم وتمردهم: "هذا عارضٌ مُمْطِرُنا" غافلين عن أنها ريح فيها عذاب إليم وتحمل لهم الدمار. ومثلها قوله عز وجل فى سورة "آل عمران" مخاطبا عبده ونبيه عيسى عليه السلام: "إذ قال الله: ياعيسى، إنى مُتَوَفّيك ورافعُك إلَىَّ ومُطَهّرك من الذين كفروا وجاعلُ الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة"، إذ يتم الحديث عما سوف يقع فى المستقبل حتى يوم القيامة باستعمال اسم الفاعل. ومثله قوله تعالى فى أول سورة "المؤمنون" عن المؤمنين المفلحين: "أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون" مع أنهم إنما سيرثون الفردوس فى العالم الآخر لا فى اللحظة الراهنة. ومثله قوله عز شأنه عن قوم لوط: "إنا مُنْزِلون على أهل هذه القرية رِجْزًا من السماء بما كانوا يَفْسُقون". ومثله قوله جلت قدرته على لسان المؤمنين فى أواخر سورة "آل عمران: "ربنا، إنك جامعُ الناس ليومٍ لا ريب فيه". ومثله قوله تعالى جَدُّه فى أواخر سورة "النساء": "إنّ الله جامعُ المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا". ومثله قوله سبحانه عن الخاشعين: "الذين يظنون أنهم مُلاقُو ربّهم". ومثله كذلك قول المولى العظيم فى سورة "النمل" على لسان ملكة سبإ عن الهدية التى سوف ترسلها إلى سليمان: "وإنى مُرْسِلةٌ إليهم بهديةٍ فناظرةٌ بِمَ يرجع المرسَلون". ومثله قوله تعالى فى سورة "هود" عن يوم الحساب: "ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ، وذلك يومٌ مشهودٌ". ومثله

قوله سبحانه فى سورة "الحِجْر" عن أهل النار: "وما هم منها بمُخْرَجين"، وإن كانت الصفة فى الآيتين الأخيرتين اسم مفعول لا اسم فاعل. إلا أن العبرة واحدة.

ثم إنه لم يحدث أنْ عبر القرآن عن قيومية الله عز وجل بالقول إن البشر ميتون، وإلا لما قصرها على الرسول والمشركين، بل عَمَّ بها البشرَ جميعا. وقد وردت الآية فى سياق الحديث عن الصراع بين الرسول والمشركين، وهو ما يناسبه أن تفسر بأن الموت فيها هو الموت الحقيقى الذى يُقْبَر عقبه الإنسان لِيُبْعَث يوم القيامة للحساب والثواب والعقاب. ومعنى الآية أنه سوف يأتى يوم يقف الطرفان أمام ربهما ويختصمان وتظهر الحقائق وينال كل منهما ما يستحقه من الجزاء. قالت الآية هذا قطعا للجدال الذى لا ينتهى من جانب المشركين حيث لا يريدون بتاتا التسليم بالحق والاعتراف بأنهم فى كفرهم وشركهم مخطئون. بل إن القرآن، كما هو معروف، كثيرا ما يستخدم الفعل الماضى للدلالة على أحداث القيامة والعالم الآخر مثل قوله سبحانه وتعالى على سبيل المثال فى سورة "ق": "ونُفِخ فى الصُّور: ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائقٌ وشهيد"، وفى سورة "النبأ": "وفُتِحَت السماءُ فكانت أبوابا * وسُيِّرَت الجبالُ فكانت سرابا". فكيف غاب هذا عن مصطفى محمود؟

جاء فى تفسير الطبرى للآية الكريمة: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إنك يا محمد ميت عن قليل"، وقال أيضا: "وأَوْلَى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال: عُنِى بذلك أنك يا محمد ستموت، وأنكم أيها الناس ستموتون". وفى "فتح القدير" للشوكانى: "أخبر سبحانه رسولَه صلى الله عليه وسلم بأن الموت يدركه ويدركهم لا محالة، فقال: "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ"...". وفى الإنجليزية يقولون مثلا: "Eyad is coming home tomorrow" و"Lalah is flying to London next month"... إلخ.

وفى بداية فصل "الجنة والجحيم" يصف د. مصطفى ما نقرؤه فى القرآن عن أوصاف الجنة والنار بأنها مجرد أمثال تُضْرَب، وليست أوصافا حقيقية لأن الجنة والنار هما من عالم الغيب، الذى لا نعرف عنه شيئًا . ثم ضرب مثلا فقال إن الأمر هنا يشبه جوابك على الطفل حين يسمعك تتحدث عن اللذة الجنسية فيسألك عنها، فلا تجد مناصا من أن تقول له على سبيل التقريب إنها "شىء مثل السكر" مع أن الأمرين بعيدان تماما . ومرتكَزه فى هذا أن القرآن قد قال فى سورة "محمد" عن نعيم الجنة": "مَثَلُ الجنة التى وُعِد المتقون: فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعمه، وأنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفًّى . . . "، ففهم "المَثَل" فى الآية على أنه المثل المضروب لتقريب الفكرة أو الصورة لا غير. وفاته أن المثل هنا وفى معظم المواضع فى القرآن الكريم معناه "الحال أو الوصف أو القصة" . وقد كرر ذات الكلام فى كتابه: "حوار مع صديقى الملحد" فى الفصل الخاص بـ"الجنة والنار" قائلا إن الجنة "ليست سوق خضار وبلح ورمان وعنب، وإنما تلك الأوصاف القرآنية هى مجرد إشارات وضرب أمثلة وتقريب إلى الأذهان: "مَثَلُ الجنةِ التى وُعِد المتقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيرْ طعمُه" (محمد) . "مَثَلُ الجنةِ"، أى أننا نضرب لهم مثلا يقرّب فهم الجنة إليك، ولكن الحقيقة أن التفاصيل غيب" .

ورغم هذا فلست أختلف معه فى أن أوصاف الآخرة كلها للتقريب، إذ هى أمر لم يمر لنا فى خبرة، والأوضاع هناك مختلفة تماما عن أوضاع الدنيا، فلسوف تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات. كما أن ما يقوله القرآن عنها يدل دلالة قاطعة على أنها شىء آخر. لكن هذا شىء، والقول بأن ما يقوله القرآن عن الجنة والنار مجرد ضرب مثل شىء آخر. وبالمثل يقول إن أوصاف الجحيم فى كتاب الله هى للتخويف، لكنه التخويف الذى يشبه تخويفك لابنك الصغير عاقبة إهمال تنظيف أسنانه بالفرشاة والمعجون، إذ تقول له: "إذا لم تنظف أسنانك

بالفرشاة فإن السوس سوف يأكل أسنانك" مع أنه لا سوس ولا يحزنون بل ميكروبات وفيروسات غير مرئية، ولكنها قد تتسبب فى آلام رهيبة نعرف أنها ألعن من كل سوس وأسوأ من كل ما سمع من تحذيرات. وعلى نفس الشاكلة قال، فى الفصل المذكور من كتابه: "حوار مع صديقى الملحد"، إن النار ليست فرنا لِشَىِّ اللحوم.

وتعترض بنت الشاطئ على كل هذا الكلام، وتَعُدّه إفتاءً بدون علم وخوضًا فيما لا علم له ولا لأحد به، ومن ثم لا تقبل منه هذه التأويلات البتة، بل وتسخر منها ومنه. ولست معها فى ذلك، فالرجل لم ينكر الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب. كل ما فيها أنه، لمعرفته بأن أمورها غير أمور الدنيا، يحاول أن يقربها إلى القراء حتى يجنبهم الحيرة التى أصابته فى شبابه ونفَّرته من الدين بسبب هذه الأوصاف الأخروية التى لا تتسق مع ما نعرفه من أحوال الدنيا. وهو فى هذا ليس بدعا بين المفكرين المسلمين، ومن ثم يَسَعُه ما وَسِعَهم دون أدنى حرج. وهو اجتهاد منه يؤجر عليه إن شاء الله حتى لو كان خطأ. ويرى القارئ بنفسه أننى لست مع الرجل على طول الخط، بل أخذت عليه أشياء غير قليلة. فمن الصعب جد الصعب أن يظن ظان أننى أنصره بالباطل. ولقد مر علينا فى شبابنا فترة كنا نتساءل فيها: ألا يمكن أن يكون الشيطان هو قوانين الهدم والتفكيك فى الكون، وتكون الملائكة هى قوانين البناء والتركيب؟ ثم عبرنا تلك المرحلة، وما زلنا جميعا لا نستطيع أن نتصور كيف يكون عالم الغيب. والذهن بطبيعته طُلَعَة، ولا يكف أبدا عن محاولة التخيل والتصور.

قال ابن رشد فى "مناهج الأدلة فى عقائد الملة" (فى المسألة الخامسة من الفصل الخامس، وهى عن المعاد): "نجد أهل الإسلام فى فهم التمثيل الذى جاء فى ملتنا فى أحوال المعاد ثلاث فرق: فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذى ها هنا من النعيم واللذة. أعنى أنهم رَأَوْا أنه واحد بالجنس، وأنه إنما يختلف الوجودان بالدوام والانقطاع. أعنى

أن ذلك دائم، وهذا منقطع. وطائفة رأت أن الوجود متباين. وهذه انقسمت قسمين: فطائفة رأت أن الوجود الممثَّل بهذه المحسوسات هو روحانى، وأنه إنما مُثِّل به إرادةَ البيان. ولهؤلاء حجج كثيرة من الشريعة، فلا معنى لتعديدها. وطائفة رأت أنه جسمانى، ولكن اعتقدت أن تلك الجسمانية الموجودة هنالك مخالفة لهذه الجسمانية لكون هذه بالية، وتلك باقية. ولهذه أيضا حجج من الشرع. ويشبه ابن عباس أن يكون ممن يرى هذا الرأى لأنه رُوِىَ عنه أنه قال: "ليس فى الدنيا من الآخرة إلا الأسماء".

ويشبه أن يكون هذا الرأى هو أَلْيَق بالخَوَاصّ. وذلك أن إمكان هذا الرأى ينبنى على أمور ليس فيها منازعة عند الجميع: أحدها أن النفس باقية. والثانى أنه ليس يَلْحَق عن عودة النفس إلى أجسامٍ أُخَر المُحَالُ الذى يلحق عن عودة تلك الأجسام بعينها. وذلك أنه يظهر أن مواد الأجسام التى ها هنا توجد متعاقبة ومنتقلة من جسم إلى جسم. وأعنى أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة فى أوقات مختلفة. وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل لأن مادتها هى واحدة. مثال ذلك أن إنسانا مات، واستحال جسمه إلى تراب، واستحال ذلك التراب إلى نبات، فاغتذى إنسان آخر من ذلك النبات، فكان منه مَنِىٌّ تَوَلَّد منه إنسان آخر. وأما إذا فُرِضَت أجسامٌ أُخَر فليس تَلْحَق هذه الحال".

ومعروف كذلك التياران الرئيسيان الموجودان فى فهم آيات الصفات الإلهية من الوجه واليد والعين والعرش والكرسى والاستواء: فتيار يأخذها كما هى مع تفويض أمر تفسير اليد والوجه والعين والعرش والاستواء والكرسى إلى الله سبحانه. فهو يقول إن لله يدا ووجها وعينا . . . إلخ، لكنها ليست كأيدينا ولا كوجوهنا ولا كأعيننا. وتيار يؤوّل هذه الصفات: فاليد تشير إلى القدرة والقوة، والعين تشير إلى العناية والرحمة. . . وهكذا. وكلٌّ مصيب إن شاء الله. والناس مشارب: فمنهم من يريح دماغه ويتقبل النص كما هو تاركا تفسيره له

سبحانه، ومنهم من يتمتع بالجرأة فيقول إنه سبحانه لا يد له ولا عين ولا وجه ولا ولا لأنه ليس مثله شىء. ونحن البشر شىء، ولنا يد ووجه وعين وعرش وكرسى، ومن ثم لا يمكن أن يكون لله شىء من هذا، وإلا كان كمثله شىء. ومنهم من يقف موقفا وسطا، فيقول إن لله يدا وعينا ووجها، لكنها ليست كأيدينا وأعيننا ووجوهنا، بل يد وعين ووجه تليق به سبحانه ولا نستطيع أن نتخيلها أو نفسرها. وجميع هذه التيارات تتقبل النصوص القرآنية الخاصة بالصفات ولا تنكرها، وتؤمن بالله سبحانه وتنزهه وتوقّره، كلٌّ بطريقته. فنحن البشر مختلفون، ومن هذا الاختلافِ الاختلافُ فى فهم مثل تلك الآيات. ولا حرج على أى من هذه التيارات بمشيئة الواحد الأحد.

وبمناسبة العرش والكرسى فقد اتهمت د. عائشة عبد الرحمن د. مصطفى محمود متهكمة بأنه قد "كُشِف له الحجاب عن ذلك الغيب كله، فنشر فى فتاويه بالمجلة ردا على بريد القراء أن العرش الإلهى هو قلب المؤمن، وأن الكرسى هو العقل، أما اللوح المحفوظ فهو جسد الإنسان يكتب فيه الله أو ملائكته أقدارنا على الجينات الوراثية، ويقدم معه تأويلا لقوله تعالى: "يمحو اللهُ ما يشاء ويُثْبِت، وعنده أُمّ الكتاب"، وهو كلام محير يفهم من ظاهره أن الله مثلنا يكتب ويشطب ويراجع النفس، وهو غير صحيح، والتفسير الأصح أن الآية دلالة على سعة المغفرة والرحمة بدرجة تصل إلى اللامعقول، إلى محور القدر المقدور". وهذا الكلام ورد مفصلا بعض الشىء فى فصل "الغيب" من كتابها: "القرآن وقضايا الإنسان"، أما فى فصل "بيت العنكبوت" من كتابها: "القرآن والتفسير العصرى" فقد جاء موجزا.

والحقيقة أن قائل هذا الكلام، طبقا لما جاء فى المناقشات الخاصة برسائل القراء والرد عليها بالفصل الأخير من كتاب مصطفى محمود، هو قارئ سورى رمز لنفسه بالحرفين: م. ح، وليس مصطفى محمود نفسه. بل إن مصطفى محمود قد اعترض على هذا التفسير قائلا إن

"رأى الأخ السورى هو رأى صوفى، ولكن لا أدرى كيف يكون تفسير الآية: "ويحمل عرشَ ربّك فوقهم يومئذٍ ثمانيةٌ" . إذا كان العرش هو القلب فكيف تتصور القلب محمولا على ثمانيةٍ (يوم القيامة)؟ وثمانية ماذا؟ . . . التفسير هو مجرد تفسير ظنى لا يرتقى إلى يقين. وأجمل من ذلك ما يقوله ابن عباس عن كرسى الله: الله كرسيه علمه. فجعل من الكرسى كلمة وصفية تعنى علم الله الشامل. وأفضل من ذلك التفسير أن نقول: الله أعلم" . وأضيف أنا: هل كان هناك إنسان فى أول الكون حين انتهى سبحانه من خلق السماوات والأرض واستوى على العرش حتى يكون العرش هو قلب ذلك الإنسان، ويكون الكرسى هو عقله؟

وفى هذا الفصل أيضا نجد مصطفى محمود يستشهد على نعيم الجنة بنص من سفر إِشَعْيَاء من العهد القديم موضحا أن إشعياء فى هذا النص إنما يصف يوم الرضوان على النحو التالى: "يصنع رب الجنود لجميع الشعوب فى هذا الجبل وليمة سمائن مُمِخَّة ووليمة خمر، ويمسح السيد الرب الدموعَ من كل الوجوه" . وهذا هو شرح "دائرة المعارف الكتابية" للإصحاح الرابع والعشرين من سفر إشعياء فى المادة المخصصة لذلك النبى: "وفى الإصحاح الرابع والعشرين يعلن النبى عن الدينونة العامة للأرض (أرض يهوذا)، ثم بعد ذلك سيشرق يوم أفضل (١: ١٥) . ونرى وكأن النبى يستمع تسابيح الخلاص، ولكن للأسف لم يكن قد جاء أوانها، إذ لا بد أن تتوالى الدينونات. ففى الأصحاح الخامس والعشرين ينتقل النبى إلى زمن ما بعد الكارثة الأشورية، ويعتبر نفسه واحدا من المَفْدِيّين واضعًا فى أفواههم تسبيحات الحمد والشكر من أجل خلاصهم. وتصف الأعداد ٦-٨ وليمة الرب، وليمة السمائن على جبل صهيون لكل الشعوب والأمم الذين (طبقا لما جاء فى ٢: ٢-٤) يجيئون إلى أورشليم ليصنع لهم "وليمة سمائن ممخة"، وبينما يكون الشعب فى الوليمة يشفى الرب بنعمته الغنية عماهم الروحى حتى يَرَوْه الواهب الحقيقى للحياة والنعمة. كما أنه يقضى على العنف القاتل، أى الحروب (٢: ٤)

وما يتبعها من "دموع"، حتى لا تصبح الأرض (أرض يهوذا) فيما بعد ميدانا لمعارك الأمم والشعوب، بل مسكنًا مباركًا للمَفْدِيّين يعيشون فى سلام وسعادة. ولم يكن هدف النبى من كل هذا سياسيًّا بل دينيًّا".

ومن هذا النص يتبين أن الكلام فيه هو كلام عن الدنيا والتطورات الروحية والسياسية التى سوف تؤول إليها أحوال اليهود فى زمن إشعياء وليس كلاما عن الآخرة والجنة وما أعده الله فيها لعباده الطيبين من نعم وإكرامات. ويبدو أن د. مصطفى محمود قد نقل هذا النص من الفصل الأخير: "الأخلاق والآداب" فى كتاب العقاد: "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه"، وإن لم يقل العقاد إنه فى تصوير نعيم الجنة. والذى دفعنى إلى هذا الاستنتاج أن النص المذكور متاح فى كتاب العقاد ومعه النص الآخر الذى استشهد به د. مصطفى محمود من كلام القديس أفرايم عقب كلام إشعياء. وقد ألف مصطفى محمود فيما بعد كتابا عن "التوراة" (والمقصود العهد القديم) قرر فيها أن التوراة عُبِث بها وتم تحريفها، وأن السامريين لا يقرون إلا بالأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم معتبرين الباقى، وهو معظم العهد القديم، تأليفا بشريا. كما أن البروتستانت يُخْرِجون منه عددا من الأسفار ولا يعترفون بها.

وفضلا عن هذا فإنه يصف التوراة بأنها تحتوى على قليل من الحكمة والكلام الغالى، والباقى حَشَفٌ وخُشَارٌ لا يليق بكتاب مقدس، علاوة على ما تعجّ به من تناقض. وكثير من نصوصها منقولة من هنا ومن هناك. وفوق هذا فإن الله تُنسَب إليه كثير من الأشياء التى لا تليق بجلال الألوهية. كما يُحكَى عن كثير من الأنبياء تصرفات لا تصدر عن أشخاص أسوياء الخلق والعقيدة، ومنها الكفر نفسه. وفيها أخطاء علمية فاضحة. فالتوراة إذن لا يمكن أن يخرج منها الإنسان بأنها من عند الله. فكيف يعطى، رحمه الله، ذلك الكتاب هذه الأهمية وكأنه وحى إلهى فعلا؟ اللهم إلا إذا قيل إنه، حين ألف كتابه عن القرآن، لم يكن قد تبحر فى

موضوع العهد القديم ولم يكن يعرف هذه الأسرار عنه، فلهذا قال فى شأنه ما قال، وكأنه كتاب جدير بالاستشهاد منه جنبا إلى جنب مع القرآن المجيد .

بل إنه ليقول عن التوراة (العهد القديم): "ودائما مكافأة الله لعباده وعقابه يكون فوريا ودنيويا: لا ذكر لبعث وجنة ونار وحساب وآخرة. وكل ما تقوله التوراة حينما يضطجع أنبياؤهم ليموتوا إنهم يذهبون إلى أرض شول، التى لا رجعة منها . والجنة التى تَعِدُ بها التوراةُ هى نعمة دنيوية. . . أما الجحيم فهو لعنة تنزل بصاحبها فى الدنيا" . وكلامه هذا كافٍ تماما فى نقض كل ما قال عن يوم الرضوان، الذى استشهد به بوصفه نعيم الجنة.

ومما يحتاج التريث إزاءه من حديث مصطفى محمود عن الآخرة والثواب والعقاب أن مصير كل منا سوف يحدده ما عمله فى الدنيا ثم يستمر ملازما له إلى أبد الآبدين. وهو يستشهد على هذا بقوله تعالى فى آخر سورة "الفرقان" للمشركين المعاندين المتمردين: "فقد كَذَّبْتم، فسوف يكون لزاما" . أى ما دمتم لا تريدون الانصياع للحق وتصرون على التكذيب العنادى والتمرد على الحق فلسوف يقع بكم العذاب. هذا ما أفهمه من الآية الكريمة. وهو ما وجدت الطبرى مثلا يقول به: "قوله: "فَقَدْ كَذَّبْتُمْ": يقول تعالى ذكرُه لمشركى قريش قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقد كذّبتم أيها القوم رسولَكم الذى أُرْسِلِ إليكم وخالفتم أمر ربكم الذى أمر بالتمسك به. لو تمسكتم به كان يعبأ بكم ربي. فسوف يكون تكذيبكم رسول ربكم، وخلافكم أمر بارئكم، عذابًا لكم ملازمًا: قتلا بالسيوف وهلاكًا لكم مفنيًا يُلْحِق بعضَكم بعضًا . . . ففعل الله ذلك بهم، وصَدَقَهم وعدَه، وقتّلَهم يوم بدر بأيدى أوليائه، وألحق بعضهم ببعض، فكان ذلك العذاب اللِّزَام" .

لكن مصطفى محمود يفهم "اللِّزَام" فيها بمعنى الملازمة، ملازمة النعيم والعذاب لصاحبيهما دائما أبدا دون انتهاء . صحيح أن القرآن كلما تحدث عن أى من أهل الجنة وأصحاب النار

أكد أنهم خالدون فيها أبدا . إلا أن علماءنا رغم ذلك انقسموا بشأن "الخلود فى النار": فبعضهم أخذه على حرفيته قائلا إن فريق النار سيظل فيما هو فيه إلى الأبد دون انقطاع أو تغير، وبعضهم قال إن الأبدية هنا معناها الزمان الطويل ليس غير.

وفى "مقالات الإسلاميين" للأشعرى فى ثنايا الحديث عن المرجئة، وتحت عنوان "اختلافهم فى تخليد الكفار"، نقرأ قوله: "اختلفت المرجئة فى تخليد الله الكفار على مقالتين: فقالت الفرقة الأولى منهم، وهم أصحاب جهم بن صفوان: الجنة والنار تَفْنَيَان وتَبيدَان، ويَفْنَى أهلُهما حتى يكون الله موجودًا لا شىء معه كما كان موجودًا لا شىء معه، وأنه لا يجوز أن يخلِّد الله أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار. وهذا رد ما اتفق المسلمون عليه ونقلوه نصا: وقال المسلمون كلهم إلا جهما إن الله يخلّد أهل الجنة فى الجنة، ويخلّد الكفار فى النار".

وتحت عنوان "اختلافهم فى فُجّار أهل القبلة" يقول الأشعرى أيضا: "واختلفت المرجئة فى فُجّار أهل القبلة: هل يجوز أن يخلدهم الله فى النار إن أدخلهم النار؟ على خمسة أقاويل: فزعمت الفرقة الأولى أصحاب بشر المريسى أنه محال أن يخلّد الله الفجار من أهل القبلة فى النار لقول الله عز وجل: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة/ ٧، ٨) وأنهم يصيرون إلى الجنة إن أدخلهم الله النار لا محالة. وهو قول ابن الراوندي. وزعمت الفرقة الثانية منهم أصحاب أبى شمر ومحمد بن شبيب أنه جائز أن يدخلهم الله النار، وجائز أن يخلدهم فيها إن أدخلهم، وجائز ألا يخلدهم. وقالت الفرقة الثالثة إن الله عز وجل يُدْخِل النار قومًا من المسلمين، إلا أنهم يخرجون بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصيرون إلى الجنة لا محالة. وقالت الفرقة الرابعة، وهم أصحاب غَيْلان: جائز أن يعذبهم الله، وجائز أن يعفو عنهم، وجائز ألا يخلدهم. فإن عذب أحدًا عذب من ارتكب مثل ما ارتكبه، وكذلك إن خلده. وإن عفا عن أحد عفا عن كل من كان مثله. وقالت الفرقة الخامسة منهم: جائز أن

يعذبهم الله، وجائز ألا يعذبهم، وجائز أن يخلدهم ولا يخلدهم، وأن يعذب واحدًا ويعفو عمن كان مثله. كل ذلك لله عز وجل أن يفعله".

وعلى أية حال فلدينا الحديث التالى، وهو واضح الدلالة على أن أهل النار سوف يخرجون منها حتما ناسا بعد ناس حتى تفرغ تماما منهم، أما الجنة فيفهم منه أنها باقية لن تفنى ولن تفرغ من أهلها: "إذا فَرغَ اللهُ مِنَ القَضاءِ بينَ العبادِ وأَراد أن يُخْرِجَ بِرَحمتِه مَنْ أراد مِن أهلِ النَّار أَمَر المَلائكةَ أن يُخْرجوا منَ النَّارِ مَن كان لا يُشركُ باللهِ شَيئًا مِمَّن أَراد اللهُ أنْ يَرحَمَه مِمَّن يَشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، فيَعرفونَهم فى النَّارِ بأَثرِ السُّجودِ، تَأكلُ النَّارُ ابنَ آدمَ إلا أَثرَ السُّجودِ، حرَّم اللهُ على النَّارِ أن تأكُلَ أَثَرَ السُّجودِ، فيَخرُجونَ منَ النَّارِ قدِ امتَحَشوا، فيُصَبُّ عَليهم ماء الحياةِ، فيَنبُتونَ تَحته كما تَنبتُ الحَبَّةُ فى حَميلِ السَّيلِ، ثُمَّ يَفرَغُ اللهُ مِنَ القَضاءِ بينَ العِبادِ، ويَبْقَى رجلٌ مُقبلٌ بوَجهِهِ على النَّارِ هوَ آخِرُ أهلِ النَّارِ دُخولا الجَنَّةَ، فيَقولُ: أَى ربِّ، اصْرِفْ وَجهى عنِ النَّارِ، فإنَّه قد قَشبَنى ريحُها، وأَحرَقَنى ذَكاؤُها. فيدعو اللهَ بما شاء أن يَدْعُوَه، ثُمَّ يَقولُ اللهُ: هل عَسَيْتَ إن أُعْطِيتَ ذلكَ أن تَسألَنى غيرَهُ؟ فيَقولُ: لا وعِزَّتِك، لا أَسأَلُك غيرَهُ. ويُعْطِى ربَّه مِن عهودٍ ومَواثيقَ ما شاءَ، فيَصْرِفُ اللهُ وجْهَه عنِ النَّارِ، فإذا أَقبلَ على الجَنَّةِ ورَآها سَكتَ ما شاءَ اللهُ أن يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقولُ: أى ربِّ، قَدِّمْنى إلى بابَ الجَنَّةِ. فيَقولُ اللهُ لَه: أَلستَ قد أَعطيتَ عُهودَكَ ومَواثيقَك ألا تَسأَلَنى غيرَ الَّذى أُعْطِيتَ أبدًا؟ وَيْلَكَ يا ابنَ آدمَ! ما أَغدَرَكَ! فيَقولُ: أَى ربِّ. ويَدْعو اللهَ حتَّى يَقولَ: هل عَسَيْتَ إنْ أُعْطِيتَ ذلكَ أن تَسأَلَ غيرَه؟ فيَقولُ: لا وَعِزَّتِك لا أَسأَلُك غيرَه. ويُعطى ما شاء مِن عهودٍ ومَواثيقَ، فيُقدِّمُه إلى بابِ الجَنَّةِ، فإذا قام إلى بابِ الجَنَّةِ انفَهَقت له الجَنَّةُ، فرَأى ما فيها منَ الحَبْرةِ والسُّرورِ، فيَسكتُ ما شاء اللهُ أنْ يَسكتَ، ثُمَّ يَقولُ: أى ربِّ، أَدخِلْنى الجَنَّةَ. فيَقولُ اللهُ: أَلستَ قد أَعطيتَ عُهودَكَ ومَواثيقَكَ ألا تَسأَلَ غيرَ ما أُعْطِيتَ؟ فيَقولُ: وَيْلَك يا ابنَ آدمَ! ما أَغدَرَكَ!

فيَقولُ: أى ربّ، لا أَكُونَنَّ أَشْقى خَلقِك. فَلا يَزالُ يدعو حتَّى يَضحَكَ اللهُ منه. فإذا ضَحِك منه قال له: ادخُل الجنَّةَ. فإذا دَخَلها قال اللهُ له: تَمَنَّهْ. فسأَلَ ربَّه وتَمنَّى، حتَّى إنَّ اللهَ لَيُذكِّرُه، يَقولُ: "كَذا وَكذا" حتَّى انقَطعتْ به الأَمانيُّ. قال اللهُ: ذلك لكَ، ومِثْلُه مَعَه. قال عَطاءُ بنُ يَزيدَ: وأبو سَعيدٍ الخُدرى مَع أَبى هُريرةَ لا يَردُّ عليه مِن حَديثِه شيئًا، حتَّى إذا حَدَّث أبو هُريرةَ: أنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعالى قال: ذلكَ لكَ، ومِثْلُه مَعه. قال أَبو سَعيدٍ الخُدْرى: وعَشرةُ أَمثالِه مَعَه يا أَبا هُريرةَ. قال أَبو هُريرةَ: ما حَفِظتُ إلا قَولَه: ذلكَ لكَ، ومِثْلُه مَعه. قال أَبو سَعيدٍ الخُدْرى: أَشهدُ أَنِّى حَفِظتُ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قولَه: ذلكَ لكَ وعشرةُ أَمثالِه. قال أَبو هُريرةَ: فذلكَ الرَّجلُ آخِرُ أَهلِ الجنَّةِ دُخولا الجَنَّةَ".

ولا ينبغى أن ننسى فى هذا السياق أن هناك شيئًا اسمه الشفاعة، وهى من مظاهر رحمة الله بعباده، إذ سوف يقوم النبى عليه السلام يوم الحساب بالشفاعة لمن قضى الله بخروجه من النار. ومعروف أن للدكتور مصطفى محمود موقفا من الشفاعة، فقد كان ينكرها ويرى أنها لون من الوساطة لا يرحب الإسلام بها، فضلا عن أنها ستتسبب فى ركون طوائف من المسلمين إلى الكسل والتبلد اعتمادا على أن الرسول سوف يتدخل لصالحهم عند اللزوم، وبدلا من أن يدخلوا النار ويقاسوا لهيبها وآلامها ولظاها ودخانها وخزيها سوف يغفر الله لهم ويرحمهم بتدخل رسوله محمد من أجلهم. كما أنها، فى نظره، دليل على غياب العدل، إذ لو كان ثمة عدل لحوسب المذنبون وأخذوا عقابهم، وإلا فسوف يختلط الحابل بالنابل ويكون الجزاء شيئًا واحدا للمطيع والعاصى جميعا. لكن فاته، رحمه الله، أن الله لن يخص بشفاعة نبيه طائفة من أمته ويحرم منها طائفة أخرى، بل ستكون متاحة للجميع. وهى مظهر من مظاهر تكريم النبى عليه السلام. فقد كان من السهل أن يغفر الله لعباده المحتاجين للغفران مباشرة، لكنه أراد أن يرفع نبيه درجة أخرى تكريما له.

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يومُ القيامةِ ماجَ النَّاسُ بَعضُهم فى بَعض، فيَأتونَ آدمَ فيَقولونَ: اشفَع لنَا إلى ربِّك. فيَقولُ: لَستُ لَها، ولكن عليكم بإبراهيمَ، فإنَّه خَليلُ الرَّحمن. فيَأتونَ إبراهيمَ، فيَقولُ: لَستُ لَها، ولكن عليكُم بموسَى، فإنَّه كَليمُ الله. فيَأتونَ موسَى، فيَقولُ: لَستُ لَها، ولكن عليكُم بعيسى، فإنَّه رُوحُ الله وكَلِمتُه. فيَأتونَ عيسَى فيَقولُ: لَستُ لَها، ولكن عليكم بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم. فيَأتوننى، فأَقولُ: أَنا لَها . فأَستأذِنُ على ربِّى، فيُؤْذَنُ لى، ويُلهِمُنى مَحامِدَ أَحمَدُه بها لا تَحضُرُنى الآنَ، فأَحمَدُه بتلكَ المَحامِدِ، وأَخِرُّ له ساجدًا، فيُقالُ: يا مُحمَّدُ، ارفعْ رَأسَك، وقُلْ يُسْمَعْ لكَ، وسَلْ تُعْطَ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فَأَقولُ: يا ربِّ، أُمَّتى أُمَّتى ! فيُقالُ: انطلِقْ فأَخرِجْ مِنها مَن كان فى قَلبه مِثقالُ شَعِيرةٍ مِن إيمان. فأَنطلِقُ فأَفعَلُ، ثُمَّ أَعودُ فأَحمَدُه بتلكَ المَحامدِ، ثُمَّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيُقال: يا مُحمَّدُ، ارفَعْ رَأسَك، وقُل يُسْمَعْ لكَ، وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ. فأَقولُ: يا ربِّ، أُمَّتى أُمَّتى ! فيُقالُ: انطلِقْ فأَخرِجْ مِنها مَن كان فى قَلبه مِثقالُ ذرَّةٍ أو خَرْدَلةٍ مِن إيمان. فأَنطَلِقُ فأَفعَلُ، ثُمَّ أَعودُ فأَحمَدُه بتلكَ المَحامدِ، ثُمَّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيُقال: يا مُحمَّدُ، ارفَعْ رَأسَك، وقُل يُسْمَعْ لكَ، وسَلْ تُعطَ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأَقولُ: يا ربِّ، أُمَّتى أُمَّتى ! فيَقولُ: انطَلِقْ فأَخرِجْ مَن كان فى قَلبه أَدنى أَدنى أَدْنى مِثقالِ حبَّةِ خَردلٍ مِن إيمانٍ فأَخْرِجْه منَ النَّار. فأَنطَلِقُ فأَفعَلُ، ثُمَّ أَعودُ الرَّابعةَ، فأَحمَدُه بتلكَ المحامدِ، ثمَّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيُقالُ: يا مُحمَّدُ، ارفَعْ رَأسَك، وقُل يُسْمَعْ، وسَلْ تُعطَهْ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأَقولُ: يا ربِّ، ائذَنْ لى فيمَن قال: لا إله إلا الله. فيَقولُ: وعِزَّتى وجَلالى وكِبريائى وعَظَمَتى لأُخرِجَنَّ مِنها مَن قال: لا إلهَ إلا اللهُ".

وعن عوف بن مالك الأشجعى: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر، فتوسد كل رجل منا ذراع راحلته. قال: فاستيقظت فلم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقمت فذهبت أطلبه، فإذا معاذ بن جبل قد أفزعه الذى أفزعني. قال: فبينما نحن كذلك إذا

هدير كهدير الرحى بأعلى الوادي. فبينما نحن كذلك إذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال: أتانى آتٍ من ربى فخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة. فقلنا: نَنشُدك الله والصحبة يا رسول الله لَّمَا جعلتنا من أهل شفاعتك. قال: أنتم من أهل شفاعتي. قال: ثم انطلقنا إلى الناس، فإذا هم قد فزعوا حين فقدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال: إنه أتانى آتٍ من ربى فخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة. قالوا: يا رسول الله، نَنشُدك اللهَ والصحبةَ لَّمَا جعلتَنا من أهل شفاعتك. قال: فأنتم من أهل شفاعتي. فلما أَضَبُّوا عليه قال: شفاعتى لمن مات من أمتى لا يشرك بالله شيئًا".

لقد كنت أتمنى لو أن د. مصطفى محمود، وهو يتحدث عن رتب أهل الجنة والنار مؤكدا أن كلا منا سوف يبعث على رتبته ودرجته التى كان عليها فى الدنيا، قد وضح مع ذلك أن الحساب لن يكون ميكانيكيا فلا يأخذ فى الاعتبار قدرات الشخص وظروفه والسياق الذى كانت أعماله تتم فيه. فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها. ورب متصدق بجنيه يحرز عند الله درجة تساوى، وقد تتجاوز، درجة متصدق بالمئات وربما بالآلاف، إذ قد يكون جنيه الأول هو كل ما يملك، وسوف يعانى الكثير والكثير متى أخرجه صدقة، بينما متبرع الألوف يملك الملايين المملينة، فنسبة ما يتبرع به أضأل كثيرا من نسبة ما يتبرع به صاحب الجنيه. ذلك أن نسبة الجنيه إلى ممتلكاته هى ١٠٠٪، أما نسبة الألوف إلى ممتلكات الثانى فهى واحد أو اثنان أو حتى عشرة أو عشرون فى المائة مثلا. كذلك سوف يترتب على تبرع الفقير بجنيهه جوعه وعطشه وربما عُرْيُه أيضا، أما الآخر فالملايين الباقية له تكفيه أزمانا لا يكاد يكون لها انتهاء.

وعلى نفس الشاكلة ينبغى أن ننظر إلى انحراف صبى أو صبية من صبيان الشوارع أو ممن أمهاتهم راقصات أو داعرات، وآباؤهم قوادون أو تجار حشيش، ونظيريهما ممن يعيشون فى بيت آمن ويتعلمون فى المدرسة ولا يخالطون إلا الطيبين المستقيمين، ووالدا كل منهم قد ربياه تربية حسنة. فأى من هذين إذا انحرف مع ظروفه المشجعة على الاستقامة فلسوف تكون عقوبته عند الله رهيبة بخلاف مثيله ممن لم يرزق ظروفه الطيبة الكريمة التى من شأنها حث صاحبها على التزام الصراط الحميد. وعلى نفس الشاكلة نرى مصطفى محمود قد مر بالغفران والتوبة مَرَّ الكرام مع أن للغفران والتوبة مكانتهما المكينة فى دين محمد عليه الصلاة والسلام.

كذلك فات مفسرَنا شىءٌ آخَرُ مُهِمٌّ كرره القرآن مرات، وهو أن السيئة إذا كانت العقوبة عليها بمثلها فى الحساب فإن الحسنة بعشر أمثالها كما هو معروف لمن يقرأ كتاب الله. يقول سبحانه وتعالى فى سورة "الأنعام": "مَنْ جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالِها، ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزَى إلا مثلَها، وهم لا يُظْلَمون". ليس هذا فحسب، إذ يزيد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام الأمر توضيحا بقوله كما جاء فى صحيح مسلم: "قال اللهُ عزَّ وجلَّ: إذا تحدَّثَ عبدِى بأنْ يعملَ حسنَةً فأنا أكْتُبُها لَهُ حسنَةً ما لم يعملْ. فإذا عمِلَها فأنا أكْتُبُها بعشْرِ أمثالِها. وإذا تحدَّثَ بأنْ يعملَ سيئَةً فأنا أغفرُها له ما لم يعمَلْها. فإذا عمِلَها فأنَا أكْتُبُها لَهُ بمثلِها. وقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قالتْ الملائِكَةُ: رَبِّ، ذاكَ عبدُكَ يُريدُ أنْ يعملَ سيّئَةً (وهو أبصرُ بِهِ)، فقال: ارقُبُوهُ. فإنْ عَمِلَها فاكتُبوها لَهُ بمثلِها، وإنْ تركَها فاكتُبُوها لَهُ حسنةً. إنَّما تركَها مِنْ جَرَّايَ. وقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إذا أحسَنَ أحدُكُمْ إسلامَهُ فكُلُّ حسنَةٍ يعملُها تُكْتَبُ بعشْرِ أمثالِها إلى سبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وكُلُّ سيئَةٍ تُكْتَبُ بمثْلِها حتى يلقَى اللهَ".

وشىء آخر أبرزه د. مصطفى محمود فى هذا الفصل إبرازا وأكده تأكيدا، ولكن للأسف دون دليل. فبعد أن فسر معنى التذكر المطلوب من المسلم بأنه التنبه الدائم إلى أن

هناك قوة إلهية نراه يستشهد على ذلك بعدة آيات قرآنية تتحدث عن وجوب التذكر قائلا: "وكلمة "الذكر" فى القرآن كلمة عميقة المعنى والدلالة. فالقرآن نفسه اسمه "ذكر". والتدين والإيمان هو مجرد تذكُّر: "إنما يتذكر أولو الألباب"، "وإذا ذُكِّروا لا يَذْكُرون"، "إنا نحن نَزَّلْنا الذِّكْر وإنا له لحافظون"، "ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْر، فهل من مُدَّكِر"، "فذَكِّرْ. إنما أنت مُذَكِّر * لستَ عليهم بمسيطر"، "ولِيَتَذَكَّرَ أولو الألباب"، "إن الذين اتَّقَوْا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مُبْصِرون".

وهنا ينبغى أن نقف وقفة تأمل طويلة. فما هو هذا التذكر المطلوب؟ إن أحدث النظريات النفسية تقول لنا إن المعارف كلها تكون مخبوءة مكنوزة داخل نفس الإنسان، ولكنْ تحجبها عنه غرائزه وشهواته. ولهذا فالتعلم هو فى حقيقته تَذَكُّرٌ بارتفاع حُجُب النفس وشفوفها، ولا يكون تعلما من عدم. فالطفل لا يتعلم أن ٢+ ٢= ٤، وإنما هو فقط يتذكر حقيقة باطنة فى روحه وُلِد بها. وبالمثل الإحساس بالجمال والطرب هو نوع من التذكر المبهم لعالم القدس وما فيه، عالم الملكوت الذى كنا فيه قبل النزول إلى الأرحام. ولهذا السبب فإن جمال المرأة مثلا هو جمال زائر وليس جمالا مقيما لأنه ليس جمالها هى، وإنما هو ظل ينعكس عليها من الملكوت، ثم ما يلبث أن يفارقها حينما يتغلب قانون المادة والشيخوخة والتراب.

قبل ميلادنا كانت لنا ثمة حياة كأرواح. وفى ذلك تقول الآية القرآنية البديعة: "وأَشْهَدَهم على أنفسهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بَلَى شَهِدْنا". والآية تروى ما كان فى الغيب قبل الخلق الدنيوى. وكل الخلائق مما خلق الله ويخلق وسيخلق مثل الذَّرِّ فى كفه ينظر إليهم ويُشْهِدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ فيقولون: بلى شَهِدْنا. وهو بهذا يأخذ عليهم ميثاقا غليظا لأنه يعلم أنه بعد الهبوط فى الأرحام وانسدال حجاب اللحم الكثيف ونزول غشاوة الحواس والشهوات والغرائز والأهواء أنهم سوف يَنْسَوْن تماما، وسوف يتخبطون فى نكران وكفر

وجهالة. وهو، رحمةً منه، يرسل لهم الأنبياء يذكّرونهم. ويقول لمحمد: "فذَكّرْ. إنما أنت مُذَكّر * لستَ عليهم بمسيطر"، ويقول عن الإيمان إنه حياة: "يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحْيِيكم" لأن اتصال الوجود الدنيوى بالتذكر بالوجود الملكوتى الأول ثم بالوجود الأخروى هو فطنة الإنسان إلى حياته بكاملها، وهى الحياة كل الحياة. والله ليس بحاجة إلى صلاتنا ولا إلى صيامنا، ولكن نحن المحتاجون لعلنا فى صلاتنا العميقة تتذكر، ولعلنا بالعبادة والتوجه نتصل بنبع وجودنا، ونستمد منه حياتنا".

لو أنه رحمه الله قال إن الله قد خلق فى الإنسان استعدادات وقدرات لكى يصنع إنجازاته الحضارية بكل جوانبها من علم وعمل وإبداع لقلنا له: نعم، ونعام عين. لكنه يقول إن لنا حياة سابقة كنا فيها نعرف كل شىء ثم نسيناه، وكل المطلوب هو أن نتذكر ما كنا عليه. الواقع أن الأمر لو كان كذلك لما كان التعلم صعبا على النحو الذى نعرف ولَتَمَّ مرة واحدة بتذكرنا ما فات. إننا حين نتعلم إنما نبدأ من الصفر حيث تكون أمخاخنا صفحات بيضاء لم يُنْقَش عليها شىء بَعْدُ، ثم نترقى قليلا قليلا باذلين جهودا شديدة مؤلمة غاية الإيلام ولا نحس أبدا أننا إنما نتذكر ماضيا كنا فيه نعرف كل شىء، وما علينا سوى استعادته. نعم لو كان الأمر كما يصوره مفسرنا رحمة الله عليه لما كانت هناك حاجة إلى كل هذا العناء وكل تلك المراحل الكثيرة والطويلة التى نقطعها فى سبيل الوصول إلى ما نريد أن نتعلمه، ودون ضمان بأن نصل إلى مبتغانا ولا متى وصلنا أن نظل على ذكر منه، وإلا ضاع وتفلت منا، وكأنك يا أبا زيد لا رحت ولا جئت!

ثم لو كان الأمر كذلك مرة أخرى لكان أفضلَ الناس تعلّمًا المصلُّون المزكُّون، وكان أسوأَهم العصاةُ الكَفَرَة. ولكننا ننظر إلى الغربيين مثلا الآن، وهم ملحدون فى الغالب ويعيشون حياتهم كما يَهْوَوْن دون تقيد بدين أو شريعة، فنجدهم فى منتهى التفوق تعلما وإبداعا

واكتشافا وتوصلا إلى حقائق الطبيعة وقوانينها التى بثها الله فى أرجائها، بينما كثير من المتدينين "مَحَلَّك سِرْ"، بل كثيرا ما يتقهقرون إلى الوراء تقهقرا لأن ذكاءهم قد يكون قليلا، وتحمسهم للعلم خافت، وليس لأن تذكرهم لعالم الملكوت ضعيف. وهذا فى ميدان العلوم. أما فى ميدان الدعوة فهل بلَغَنا عن أحد من الصحابة مثلا أنه كان ناسيا ما سبق أنْ كان يعرفه فى عالم الملكوت ثم شعر بأنه قد تذكر ما كان ناسيه فآمن بمحمد عليه الصلاة والسلام، مثلما يشعر الواحد منا حين يكون ناسيا شيئًا ثم يتذكره؟ أين ذلك يا ترى فى سِيَرهم وأقوالهم؟ وهل حين آمن أبو سفيان مثلا أحس أنه كان مطلسم العقل ثم تذكر ما كان قد سبق منه وله فى عالم الملكوت، ومن ثم آمن؟ لو كان الأمر كذلك لانحصرت دعوة الرسول فى تجميع الكفار حوله وعقد جلسات تذكُّر معهم كما يصنع علماء النفس حين يريدون من المريض أن يغلق عينيه ويذهب فيحاول تذكر رواسب الطفولة والصبا. لكن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن كذلك فى يوم من الأيام.

بل لو كان الأمر كذلك لكان المطلوب من الجيل الأول من البشر أن يجتهد فى استعادة ما كان فى الأزل مرة واحدة وإلى الأبد، وبخاصة أن عالم الملكوت كان قريب العهد آنئذ، ومن ثم يكون التذكر سهلا، فنرتاح من هذه الخَوْتَة التى نبيت ونصبح فيها منذ آدم وحواء إلى العبد لله الغلبان الذى يكلمكم الآن دون أن يلوح فى الأفق أن شيئًا من ذلك له نهاية. إنى حاليا، وأنا أستعد لأن أكتب هذا الذى يقرؤه القارئ، إنما أبحث عن المصادر والمراجع التى تعيننى على فهم ما أكتب عنه وتعضيد ما أصل إليه من أفكار وأشغل مخى تفكيرا وتحليلا ومراجعة، ولا أنتظر ساكتا ساكنا إلى أن تواتينى ذكريات ذلك الملكوت. إن الأمر هو أمر تفكير وإعمال عقل واعتماد على منجزات من سبقونى فى ميدان العلم والفكر والدين والثقافة لا أمر عَصْرٍ للذاكرة وانتظارٍ لما تجود به من خزائنها السابقة على الوجود الأرضى. ثم إن الغرائز والشهوات إذا

كانت تَصرفنا عن التزام الجادة المستقيمة فإنها فى ذات الوقت تدفعنا دفعا إلى بذل جهودنا فى سبيل ما نبغى الوصول إليه. إن أنانيتنا الفردية والوطنية مثلا لتلهب ظهورنا كى نجتهد فى الحصول على ما نريد ونتفوق على غيرنا ونأتى فى المقدمة. ولولا هذه الأنانية ما نشط الواحد منا إلى شىء ولبقى يراوح مكانه راضيا بأقل القليل أو لمات فى موضعه وأنتنت رائحة جثته دون أن يفكر أحد فى مواراته التراب. باختصار: لو كان الأمر كما تقول ما كانت العين بكت يا د. مصطفى محمود!

أما قوله إن معرفتنا بأن ٢+ ٢= ٤ ناتجة عن تذكرنا لما كنا نعرفه فى عالم الملكوت فهو كلام غير صحيح. وصوابه أن الإنسان الأول قد عرف الأرقام وأطلق كلمة "واحد" على تفاحة واحدة، أو كمثراة واحدة، أو إصبع موز واحدة. . . وكلمة "اثنين" على تفاحتين أو كمثريَيْن أو إصبعين. . . وكلمة "أربعة" على أربع تفاحات أو أربع كمثريات أو أربع أصابع. . . وقليلا قليلا شرَعَت الفكرةُ العددية المجردةُ تتكشف للإنسان بعد أن كان قبل ذلك لا يستطيع التجريد ولا يمكنه استخلاص فكرة الرقم الفلانى من المحسوسات المعدودة، وهكذا حتى صار يجد الأمر سهلا. أى أصبح يستطيع جمع العدد "اثنين" و"اثنين" فيكونان "أربعة" بغض النظر عن طبيعة المعدود: تفاحا كان أو كمثرى أو غير ذلك، وكان قبلا لا يمكنه إجراء عملية مثل هذه، بل كان يعرف فقط أن تفاحتين زائد تفاحتين أخريين تساوى أربع تفاحات. ومثلها الكمثريات والخَوْخات والبرقوقات والبطاطسات والباذنجانات. . . إلخ. وهذا أمر يُتَعَلَّم ولا يُتَذَكَّر. صحيح أن الله سبحانه قد أمدنا بالقدرة على التجريد من المحسوسات (طبعا بعد بذل الجهد الطويل والمرور فى تجارب كثيرة مرهقة)، لكن ذلك شىء، والتذكر شىء آخر. شىء أخير هو أننا، إن افترضنا صحة ما يقوله مصطفى محمود، كثيرا ما ننسى ما كنا تذكرناه من عالم الملكوت إن لم نُعِدْ حفظَه كل حين وحين. ولو كان كلامه صحيحا لما نسيناه كرة

أخرى، وإلا فما معنى استردادنا له من عالم الأزل إذا كانت النتيجة واحدة، وهى النسيان فى الحالين؟

ورغم هذا كله نجد محمود محمد طه أيضا يؤكد فى الفصل المسمى: "قصة الخلق" من كتابه: "القرآن ومصطفى محمود والفهم العصرى" أننا "نحن لا نتعلم شيئًا جديدا على الإطلاق. ولكننا، حين نتعلم، إنما نتذكر علما قديما أزليا نسيناه. قال تعالى فى ذلك: "إن الذين اتقَوْا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذَكَّروا، فإذا هم مبصرون". قوله: "إذا مسهم طائف من الشيطان" يعنى: إذا جهلوا. قوله: "تذكروا" يعنى: ذكروا اسم الله. "فإذا هم مبصرون" يعنى: انقشعت عنهم الجهالة". وهو تفسير غريب، فالتذكر هنا معناه التيقظ لما يحيكه الشيطان لنا، والتراجع عما كنا بسبيله من ارتكاب الأخطاء، وليس معناه أننا نتذكر شيئًا من عالم الأزل كنا نسيناه. فمثلا قد يرتكب الواحد منا خطيئة الزنا مرارا غير مقدر العواقب ولا شاعر بأى إثم، ثم فجأة ولسبب من الأسباب يصحو ضميره فيفزع مما يفعل ويعزم على التوبة والرجوع عن هذا الذنب نادما مستغفرا الله مما كان يعكف عليه من إثم. فهذا هو التذكر لا الذى يقصده محمود محمد طه هو ومصطفى محمود رغم اختلافاتهما الشديدة فى معظم الأمور التى تناولاها فى كتابيهما.

لا كهانة فى الإسلام

فى كتاب مصطفى محمود فصل عنوانه "لا كهنوت" يقول فى مفتتحه: "كان القرآن حاسما فى إلغاء الكهنوت والوساطات الكهنوتية، وقرر فى وضوح لا لبس فيه وفى عدة آيات متكررة أن الصلة بين الإنسان وربه صلة مباشرة، وأن الله يرعى شؤون مخلوقاته مباشرة بدون مجلس إدارة وبدون سكرتارية وبدون وسطاء". وهو يستشهد على هذا بالآيات الكريمة التالية: "قل لله الشفاعة جميعا"، "وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ"، "وما جعلناك عليهم حفيظا، وما أنت عليهم بوكيل" وغيرها مما يتسق بعضه مع عنوان الفصل ومضمون الكلام ولا يتسق بعضه الآخر كقوله تعالى فى سورة "سبأ" مثلا: "قل: ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض"، فهذه الآية لا تتحدث عن الكهان ووساطتهم بين الله وعباده بل عن الأوثان التى كان المشركون يتخذونها آلهة مع الله. ثم ينطلق الكاتب رحمه الله من هذا الموضوع إلى موضوع آخر يتعلق به هو بساطة الشعائر الإسلامية. وهذا أمر طبيعى، إذ الكهنوت يقوم، فيما يقوم، على التعقيد والتعنت وتحويل كل شىء إلى متاهات حتى يشعر المتدين بالحاجة العنيفة إلى الكاهن كى يحل له كل تلك المشاكل المتراكمة المعقدة لقاءَ ما يدفعه للكاهن من مال وهدايا وألطاف يأكلها فى بطنه نارا، ويصلاها يوم القيامة سعيرا. ولسوف أجتهد فى إلقاء الضوء على عبقرية الإسلام المتمثلة فى بساطته وفتحه الأبواب على مصاريعها أمام العباد للوصول إلى الله سبحانه آملا أن أضيف شيئا مفيدا إلى ما قاله المرحوم مصطفى محمود فى هذا الفصل.

أما أنه لا كهنوت فى الإسلام فهذا صحيح على عكس الأديان الأخرى. ونبدأ بما جاء فى "دائرة المعارف الكتابية" (مادة "كهن- كاهن- كهنوت") عن الكهانة فى العهد القديم من

الكتاب المقدس: "الكاهن هو الشخص المعيَّن للقيام بالخدمات الدينية، وبخاصة تقديم الذبائح على المذبح والعمل وسيطًا بين الناس والله. والكلمة التى تعبر عن هذه الخدمة فى العبرية هى "كَهَنَ" كما فى العربية. وكان الكهنوت العبرى يشكل أحد المعالم البارزة فى الديانة العبرانية فى العهد القديم. ويبدو هذا واضحًا ليس فقط من الإشارات الكثيرة إليه، ولكن من محتوى العبادة فى العهد القديم وطبقة الكهنة الذين كانوا يمثلون الشعب، وأهمية خدماتهم وعلاقتهم بكل جوانب الحياة. لقد كانت النظرة العبرانية للعالم وللحياة فى العالم تسيطر عليها الغيبية، فضرورة توفر علاقات مقبولة مع الله جعلت لوجود الكهنة وخدمتهم أولوية قصوى. فكان وجود الكهنة أمرًا جوهريًا لحفظ علاقة مستمرة لإسرائيل مع الله، فكان الإسرائيلى يرتبط بالله بعهد قومى فريد، وكان هذا العهد يستلزم وجود الكهنوت لأهمية خدمته الشفاعية وكممثلين للشعب أمام الله، فعمل الكهنة وسطاء بين الله والشعب لحفظ علاقة العهد .

وكان نجاح هذه الخدمة الكهنوتية يتوقف بشدة على معنى وروح القيام بها، وبخاصة من جانب الشعب. فالخدمة الكهنوتية بالنسبة لطبيعتها فى تمثيل الشعب يمكن أن تنزلق لتصبح مجرد طقوس عقيمة بلا معنى مما يلغى أى دور حقيقى للشعب نفسه، وتتحول الأهمية إلى الطقس ذاته، ويتلاشى المضمون. وهذا ما آل إليه فعلا، إلى حد بعيد، الكهنوت العبراني. وكثيرًا ما رفع الأنبياء فى العهد القديم أصواتهم ضد ابتعاد الشعب عن الله، الذى تكلم إليهم من خلال موسى. . .

وكلمة "كاهن"، وإن كان لا يُعْرَف مصدرها على وجه اليقين، إلا أن الأرجح أنها مشتقة من كلمة "كُن" بمعنى "يقف" فى إشارة إلى "وقوف" الكاهن أمام الله خادمًا له أو ممثلا للشعب أمام الله أو ممثلا لله أمام الشعب، فهكذا توصف خدمة الكاهن (عد ١٦: ٩، تث ١٠: ٨، ١٧: ١٢، ١٨: ٥) . قبل أن يقيم موسى كهنة لإسرائيل يذكر الكتاب المقدس كهنوت ملكى

صادق (تك ١٤: ١٨)، وكهنة المصريين (تك ٤١: ٤٥، ٤٦: ٢٠، ٤٧: ٢٢ و٢٦)، وكهنة المديانيين (خر ٢: ١٦، ٣: ١، ١٨: ١) . وأما الكهنة المذكورون فى خر ١٩: ٢٢ و ٢٤، فإمَّا أنها إشارة إلى كهنةٍ مديانيين (حَمِى موسى) أو أنه كان هناك كهنة فى إسرائيل قبل الكهنة اللاويين الذين أقامتهم الشريعة (ارجع أيضاً إلى خر ٢٤: ٥) . أما الخدمة الكهنوتية فكانت موجودة منذ عصر الآباء، وكان يقوم بها رأس العائلة، فقد قام بها نوح (تك ٨: ٢٠ و٢١) وإبراهيم (تك ١٢: ٨، ١٣: ٤ و١٨، ٢٢: ١-١٣) وأيوب (أى ١: ٥) وغيرهم. . .

قام موسى، بأمر من الله، بتكريس هرون وبنيه وناداب وأبيهو وألعازار وإيثامار (خر ٢٨: ١و ٤١، ٢٩: ٩ و٢٩ و٣٠) . أما ناداب وأبيهو فقد ماتا عندما "قرَّبا أمام الرب نارًا غريبة لم يأمرهما بها، فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما، فماتا أمام الرب" (لا ١٠: ١و٢) . وهكذا انحصر الكهنوت فى زمن موسى وهرون فى نسل ألعازار وإيثامار (عد ٣: ٤، ١أخ ٢٤: ٢) . . .

وكانت إجراءات تقديس هرون وبنيه على مدى سبعة أيام بالغة الأهمية وعميقة المعنى (خر ٢٩: ١- ٣٧، لا ٨)، فعلاوة على اختيار الله لهم وتميزهم بالقداسة فإن إجراءات التكريس توضح خصائص الخدمة الكهنوتية. ومما يستلفت النظر فى هذه الإجراءات إلباس الكهنة ثيابهم، وذبائح التكريس وطقوسه. فكانت ثياب هرون المقدسة أكثر تعقيدًا من ثياب الكهنة (خر ٢٨: ٢-٣٩) . فكان لكل الكهنة أقمصة ومناطق وقلانس خاصة، أما هرون فكان يلبس رداء تتصل به صُدْرَة القضاء، وبها اثنا عشر حجرًا كريمًا، وقد نُقِش على كل حجر اسم أحد الأسباط الاثنى عشر، وحَجَرَا جَزْعٍ على الكتفين منقوشٌ عليهما أسماء أسباط بنى إسرائيل، على كل حجر منهما ستة أسماء، وعمامة عليها صفيحة من ذهب نقى تربط إلى العمامة بخيط إسمانجونى، ومكتوب عليها: "قدس للرب" . وكانت هذه الأحجار

والأسماء المنقوشة عليها تبرز صفة رئيس الكهنة كممثل للشعب أمام الرب، فقد كان رئيس الكهنة يحمل هذه الأسماء "للتذكار أمام الرب دائمًا" (خر ٢٨: ١٢ و٢٩ و٣٠) .

وفى إجراءات التقديس كان موسى يغسل هرون وبنيه بماء، ويُلبِس هرون ثيابه الكهنوتية، ويسكب دهن المسحة على رأسه، ثم يُلْبِس بَنِيه الأقمصة، ويمنطقهم بمناطق، ويشدّ لهم قلانس. ثم يقدم "الثور إلى قدام خيمة الاجتماع، فيضع هرون وبنوه أيديَهم على رأس الثور"، ذبيحة الخطية، كما يضعون أيديهم على رأس الكبش، ذبيحة المُحْرَقة. وهكذا تنتقل قيمة الذبيحة إلى هرون وبنيه، وتُعِدُّهم لخدمتهم الكهنوتية.

وكان يجب تقديم ثورٍ ذبيحةَ خطيّةٍ وكبشٍ محرقة رائحة سرور للرب، وكبشٍ آخر ذبيحةَ ملء أو تقديس. وكان يؤخذ من دم الكبش الثانى، ويجعل على شحمة أذن هرون وعلى شحم آذان بنيه اليمنى، وعلى أباهِم أيديهم اليمنى، وعلى أباهم أرجلهم اليمنى. وكان يرش دم هذا الكبش الثانى، كبش ذبيحة الملء، على المذبح من كل ناحية. وهكذا يجمع بين الكهنة والمذبح فى طقوس التقديس. وكان يؤخذ من الدم الذى على المذبح ويخلط بدهن المسحة، ويُنْضَح على هرون وثيابه، وعلى بنيه وثيابهم، فيتقدس هو وثيابه وبنوه وثيابهم (خر ٢٩: ١٩-٢١) . وكان كل ذلك يتكرر لمدة سبعة أيام لكمال تقديسهم (خر ٢٩: ٣٥-٣٧) .

ولا شك فى أن هذا الطقس لتكريس الكاهن العبرانى كان يجعله مفرزاً من الشعب كشخص مقدس اختاره الله، وتكرَّس لله، ويمثل الشعبَ أمام الله كما يمثل اللهَ أمام الشعب. وكان الدم على الأذن اليمنى يعنى إصغاء الكاهن لصوت الله ليسمعه ويطيعه. والدم الذى على إبهام اليد اليمنى كان يعنى تكريس خدمته ككاهن فى المَقْدِس، كشخص مقدَّس يمثل الشعب أمام الله. والدم على إبهام رجله اليمنى كان يعنى تكريسه لخدمة الله فى المَقَادِس فى خيمة الشهادة (وبعد ذلك فى الهيكل حيث لم يكن مسموحًا بالدخول إلا للمكرسين للخدمة)،

كما كان يعنى أيضاً أن يكون كل سلوك الكاهن مطابقًا لكلمة الله (ارجع إلى أم ٢٨: ٦ و١٨، غل ٥: ١٦) . ولا شك فى أن كل هذه الطقوس كانت تعنى أن تكريس الكاهن كان معناه تكريس كل الإنسان وكل سلوكه وكل ما يعمل، إذ كان يجب أن يكون رَجُلَ الله الذى يمثل الله أمام الشعب منفصلا انفصالا تامًا عن كل نجاسة وكل خطيّة (لا ١٠: ٨– ١١) . كما أنه كان يمثل الشعب أمام الله لتقديم ذبائح مقبولة من أجلهم، وأن يؤدى كل واجباته الكهنوتية حسب وصايا الله عن يد موسى. وهكذا كان الكاهن يعمل كوسيط بين الله والإنسان.

وكان على رئيس الكهنة والكهنة ألا ينوحوا على ميت بكشف رؤوسهم أو شق ثيابهم (لا ١٠: ٦) . وكان على رئيس الكهنة ألا يأتى إلى نفس ميت ولا يتنجس لأبيه أو أمه أو يخرج من المَقْدِس لتشييع جنازة (لا ٢١: ١٠–١٢) . ولا يأخذ الأرملة أو المطلقة أو المدنسة أو الزانية، بل يتخذ عذراء من قومه امرأة (لا ٢١: ١٣–١٥) . وكان على الكهنة أيضًا أن يقوموا بتعليم الشعب الشريعة (لا ١٠: ١٠ و١١، تث ٣٣: ١٠، ٢مل ١٧: ٢٧ و٢٨، ٢ أخ ١٥: ٣، ١٧: ٧–٩، إرميا ١٨: ١٨، حز ٧: ٢٦، ٤٤: ٢٣، ملا ٢: ٦ و٧)، وهو واجب لم يقوموا به على الدوام كما يجب (مى ٣: ١١، ملا ٢: ٨) . وكمعلمين كانوا أداة محدودة للإعلان فى بعض المجالات مثل الصحة والقضاء، بما فى ذلك الحكم على حالات البرص والتمييز بينها وطقوس التطهير منها (لا ١٣، ١٤)، وتطهير الرجال والنساء وقطع الأثاث من أى نجاسة سببتها أى إفرازات من أجساد الرجال أو النساء (لا ١٥)، وإجراء طقوس شريعة الغيرة (عد ٥: ١١–٢١)، وكذلك الحكم فى المنازعات وحالات القتل المجهول فاعلها (تث ٢١: ٥)، وبعض القضايا المدنية الأخرى (٢ أخ ١٩: ٨–١١، حز ٤٤: ٢٤) .

وكان الكهنوت العبرى يتكون من ثلاث طبقات أساسية: الكاهن العظيم أو رئيس الكهنة، والكهنة، واللاويين كمعاونين للكهنة، وبخاصة فى حمل الخيمة وكل أمتعتها عند الارتحال

فى البرية (عد ١: ٤٧-٥٣، ٣: ٦-٩، ١٨: ١-٥، تث ١٠: ٨ و٩) . فلم يكن كل اللاويين كهنة كما يتضح هذا جيدًا فى حادثة تمرد قورح وداثان وأبيرام، الذين أهلكهم الرب عندما تذمروا على موسى وهرون، وأرادوا أن يشاركوا هرون وبنيه فى الكهنوت (عد ١٦: ١-٣٣) . وعقب هذه الحادثة أعاد الله تأكيد اختياره لهرون وبنيه من بين كل الأسباط ليكهنوا له عندما أفرخت عصا هرون وأزهرت وأنضجت لوزاً (عد ١٧: ١-١١) . وعلاوة على خدمة اللاويين كحمالين للخيمة وأمتعتها كان منهم أيضاً بوابون ومغنُّون وموسيقيون وخَزَنَة (١أخ ٦: ٣١ و٣٢، ٩: ١٩، ١٦: ٤-٧، ٢٥: ١-٧، ٢٦: ١ و ٢٠، ٢أخ ٨: ١٤) .

ولم يكن لسبط لاوى قسم ولا نصيب مع باقى الأسباط (تث ١٠: ٩)، ولكنهم كانوا يأخذون بعض الأجزاء من الذبائح والتقدمات والعشور (عد ١٨: ٨-٣٢) . وقد أعطيت للاويين ٤٨ مدينة لسكناهم، وكانت مسارحها، أى مراعيها، لبهائمهم، وكان منها ١٣ مدينة ومسارحها لبنى هرون (عد ٣٥: ١-٨، يش ٢١: ٤ و١٣-١٩) . وفى عصر الملكية كان لبعض الكهنة حقول خاصة (١مل ٢: ٢٦، إرميا ٣٢: ٦-٨، عا ٧: ١٧)، وبعد العودة من السبى كان للكهنة أملاك خاصة فى أورشليم وما حولها (نح ١١: ٣ و١٠-٢٣ و٢٦) . وكان للكهنة أيضاً باكورات ثمار الأرض، وباكورات الحيوانات الطاهرة، وفضة الفداء عن أبكار بنى إسرائيل، وأبكار الحيوانات غير الطاهرة (خر ١٣: ١٢ و١٣، عد ١٨: ١٢-١٩)، وكان الكهنة يأخذون المرفوع كل يوم سبت من خبز الوجوه (لا ٢٤: ٥-٩)، ومعظم تقدمات الدقيق (لا ٢: ٣-١٠، ٦: ١٦، ٧: ٩-١٤، ١٠: ١٢ و١٣، عد ١٨: ٩)، ومعظم ذبائح الخطية (لا ٥: ١٣، ٦: ٢٦، عد ١٨: ٩)، وصدور وأفخاذ ذبائح السلامة (خر ٢٩: ٢٦- ٢٨، لا ٧: ٣٠-٣٤، ١٠: ١٤ و١٥)، ومعظم ذبائح الإثم (لا ٧: ١-٨)، وعشر العشور التى يأخذها بنو لاوى من كل الشعب (عد ١٨: ٢٦-٢٨)" .

وفى النصرانية نجد القس أو القسيس، حسبما جاء فى المادة المخصصة له بموسوعة "ويكبيديا"، يقوم بهذا الدور، فمرتبتُه مَرْتَبَةٌ كهنوتيةٌ أسسها، طبقا لما يقولون، يسوع عندما اختار تلاميذه الاثنى عشر ثم السبعين رسولا. وقد تحدث عنها بولس فى رسالته للعبرانيين قائلا: "لا يأخذ أحدٌ هذه الوظيفة من نفسه، ولكن يُدْعَى من الله كمِثْل هارون". والوظيفة الرئيسية للقس هى التعميد والوعظ وإرشاد المسيحيين والسماع إلى اعترافاتهم. فهو كاهن الكنيسة والأب الروحى لشعب المؤمنين، ووجوده هو تطبيق لسر "الكهنوت"، وهو أحد أسرار الكنيسة السبعة المعترف بها لدى الطوائف الأرثوذكسية والكاثوليكية، وتتركز مهامه فيما يلى: ١- إقامة الصلوات والطقوس الدينية، مثل صلاة القداس الالهى وتقديم سر التناول (أفخارستيا)، وطقوس المعمودية (سر المعمودية)، وصلاة الإكليل أو الزواج الدينى، وصلاة التجنيز على الموتى، وصلوات المرضى وتبريك المنازل. ٢- التعليم: الوعظ الدينى والتعليم وتفسير الكتب الدينية. ٣- الإرشاد الروحى: تلقى الاعترافات (سر الاعتراف)، وافتقاد المؤمنين وتقديم الإرشاد الروحى لهم.

وما ذكرناه هنا هو بعض أسرار الكنيسة. وهذه الأسرار لا بد لها من كاهن ليقوم بها، وعددها سبعة: المعمودية، والميرون، والتوبة والاعتراف، والتناول، والزواج، والموت. والكهنوت هو خادم كل الأسرار التى يحتوى كل واحد منها على تفاصيل تدير الرؤوس. أما فى الإسلام فالأمر أبسط من هذا، إذ لا مكان فى دين محمد لأى كهنوت أو كهان كما هو معروف. وقد بلغ الأمر فى النصرانية فى العصور الوسطى أن اخترعت الكنيسة ما سمى بـ"صكوك الغفران"، وهو ما لا وجود له فى ديننا.

كذلك فكلنا نعرف ما قالته تسيبى ليفنى وزيرة الخارجية الصهيونية عن إذن الحاخام الأكبر لها بممارسة الزنا مع المسؤولين العرب لمصلحة إسرائيل، وإقدامها على ذلك بضمير خال

تماما من أى إحساس بالإثم أو العار، بل عدته مفخرة لها . لماذا ؟ لأن الكاهن الأكبر أفتاها بذلك، بينما عندنا لا يكفى أن يفتينا المفتى إذا كان ضمير الشخص المستفتى غير مطمئنّ، فإن الحرام لا يستحيل حلالا بفتوى المفتين بل يظل حراما طوال الحياة. قال رسول الله: "استفت قلبك. البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأَفْتَوْكَ" .

فكما نرى ليس فى الإسلام شىء مما عند اليهود أو النصارى: فلا يوجد فيه كهنة لا من أسرة النبى ولا من غيرها . وليس عندنا سواه صلى الله عليه وسلم نبيا يبلغ ما ينزله عليه ربه من الوحى، فهو لا يعلم الغيب ولا يطالب المؤمنين بأجر على نبوته ولا يستبد بهم ولا يفرض عليهم الإيمان بدعوته بل يشرح ويوضح ويبين ويبشر وينذر ليس غير. وليس فى الإسلام شىء البتة من التعقيدات التى رأيناها عند اليهود أو النصارى وكهانهم، بل كل شىء فيه يتميز بالبساطة والوضوح ولا يحتاج إلى وساطة بين العبد وربه، إذ باب الله مفتوح على آخره ليل نهار، ونهار ليل لا يصد أحدٌ أحدًا عن الدخول فيه أبدا . والرسول مجرد عبد لله سبحانه ونبى كريم من أنبيائه، وليس ابنا له ولا رفيقه فى الحساب بل سوف يحاسَب كما يحاسَب سائر البشر، وإنْ اختصه الله بالشفاعة فى الآخرة كلون من التكريم ليس إلا . وهو لم يضع لوائح هذه الشفاعة، بل مجرد منفذ لها بأمر الله عز وجل.

والآيات التالية ترينا حدود النبوة، فلا جبروت ولا سيطرة ولا إكراه ولا معرفة غيب ولا مزاعم تعلو بالنبى فوق البشرية. كما تبين لنا أن الله سبحانه أقرب إلينا من كل قريب وأنه من ثم لا يحتاج إلى واسطة، بل بابه مفتوح أمامنا أبد الآبدين. قال تعالى: "إن أنت إلا نذير"، "وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو"، "ولا أقول لكم: عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى مَلَكٌ"، "فذَكِّرْ. إنما أنت مُذَكِّر * لستَ عليهم بمسيطر"، "يسألونك عن الساعة: أيان

مُرْسَاها ؟ * فِيمَ أنت من ذِكْراها ؟ * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها"، "قل: لا أملك لنفسى نفعا ولا ضَرًّا إلا ما شاء الله. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنِىَ السوء. إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون"، "ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظا، وما أنت عليهم بوكيل"، "ليس لك من الأمر شىء أو يعذِّبَهم أو يتوبَ عليهم، فإنهم ظالمون"، "ولو تقوَّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذْنا منه باليمين * ثم لقَطَعْنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين"، "إنك لا تهدى من أحببتَ، ولكن الله يهدى من يشاء. وهو أعلم بالمهتدين"، "ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا .أفأنت تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين؟"، "وقال ربكم: ادعونى أستجب لكم"، "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد"، "وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ. فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون"، "قل: يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعا. إنه هو الغفور الرحيم"، "من جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالها. ومن جاء بالسيئة فلا يُجْزَى إلا مثلَها، وهم لا يُظْلَمون"، "إن الحسنات يُذْهِبْن السيئات. ذلك ذِكْرَى للذاكرين".

ثم ها هى ذى نصوص من الحديث الشريف تبين لنا كيف أن الأمر بين العباد وربهم أبسط مما نتصور، فالبيبان مفتحة دائما أبدا لا تحتاج إلى وسيط كى يُسْمَح لهم بالدخول، بل كل ما عليهم أن يخطوا إلى الداخل، فيجدوا ترحيبا كاملا ورحمة عميمة شاملة وغفرانا وكرما غير متصور: "دعْوَتانِ ليس بينهما وبينَ الله حجابٌ: دَعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المرْءِ لأخيهِ بظَهْرِ الغيْبِ"، "والَّذى نفسى بيدِه لو أخطأْتُم حتَّى تَبْلُغَ خطاياكم ما بينَ السَّماءِ والأرض ثُمَّ استغفَرْتُمُ اللهَ لغفَرَ لكم. والَّذى نفسى بيدِه لو لم تُخْطِئُوا لجاء اللهُ عزَّ وجلَّ بقومٍ يُخطِئونَ ثُمَّ يستَغْفِرونَ فيغفِرُ لهم"، "إن اللهَ عز وجل يبسطُ يدَه بالليلِ ليتوبَ مسىء النهارِ، ويبسطُ يدَه

بالنهارِ ليتوبَ مسيء الليل، حتى تطلعَ الشمسُ من مغربِها"، "لن يُدْخِلَ أحدًا عملُه الجنةَ ولا أنا إلا أنْ يتغمدَنى اللهُ بفضْلِ رحمتِهِ. فسَدّدوا وقاربوا، ولا يتمنى أحدُكم الموتَ، وإما مُحْسِنٌ فَلَعَلَّهُ أنْ يزدادَ خيرًا، وإما مُسِيء فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ"، "إذا كان ثُلُثُ الليلِ أو شَطْرُه يَنزلُ اللهُ إلى سماءِ الدنيا فيقولُ: هل من سائلٍ فأُعطيَه؟ هل من داعٍ فأستجيبَ له؟ هل من تائبٍ فأتوبَ عليه؟ هل من مستغفرٍ فأغفرَ له؟ حتى يَطْلُعَ الفجر"، "كفارةُ المجلسِ واللغو إذا قام العبدُ أن يقولَ: سبحانك اللهم وبحمدِك. أشهدُ ألا إله إلا أنت. أستغفرُك وأتوبُ إليك"، "أذنب عبدٌ ذنبًا، فقال: اللهمَّ اغفِرْ لى ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذَنب عبدى ذنبًا، فعلم أنَّ له ربًّا يغفر الذنبَ، ويأخذ بالذَّنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أى ربِّ، اغفرْ لى ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدى أذنب ذنبًا، فعلم أنَّ له ربًّا يغفرُ الذنبَ، ويأخذُ بالذنبِ. ثم عاد فأذنب، فقال: أى ربِّ، اغفرْ لى ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنبَ عبدى ذنبًا، فعلم أنَّ له ربًّا يغفرُ الذنبَ، ويأخذ بالذنب. اعملْ ما شئت فقد غفرتُ لك".

"مَن أذنَبَ ذنبًا فى الدُّنيا فعوقبَ بِهِ فاللَّهُ أعدلُ من أن يُثَنِّى عقوبَتَهُ علَى عبدِهِ، ومن أذنبَ فى الدُّنيا فسترَهُ اللَّهُ عليهِ وعفا عنهُ فاللَّهُ أَكْرَمُ من أن يعودَ عليه فى شيء قد عفا عنهُ"، "الحسنةُ بعشْرِ أمثالِها إلى سَبْعمائَةِ ضِعفٍ، والسيئةُ بمثلِها إلا أن يَتجاوزَ اللهُ عنها"، "من اغتسل يوم الجمعة ولبس من أحسن ثيابه ومَسَّ من طيب إن كان عنده ثم أتى الجمعة فلم يتخط أعناق الناس ثم صلى ما كتب الله له ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يفرغ من صلاته كانت كفارة لما بينها وبين جمعته التى قبلها"، "يَأْتِى اللهُ بالعبدِ يومَ القيامةِ حتى يجعلَهُ فى حجابِهِ فيقولُ له: اقْرأْ صحيفتَكَ. فيقرأ، ويُقَرِّرُهُ بذنب ذنب ويقولُ: أتعرفُ؟ أتعرفُ؟ فيقولُ: نعم يا ربِّ. فيَقْرَأُ، فيَلْتَفِتُ يمنَةً ويسْرَةً فيقولُ: لا بأسَ عليكَ يا عبدِي. إنَّكَ فى سترِي. ليس بيني وبينَكَ أنْ يَطَّلِعَ على ذنوبِكَ غيرِي. اذهبْ، فقدْ غفرتُها لَكَ. فيقالُ له: ادخلِ الجنةَ".

"لَلَّهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه، حين يتوبُ إليه، من أحدِكم كان على راحلتِه بأرضِ فلاةٍ، فانفلتت منه، وعليها طعامُه وشرابُه، فأيس منها، فأتى شجرةً فاضطجع فى ظلّها قد أيس من راحلتِه، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمةٌ عنده، فأخذ بخطامِها، ثم قال من شدةِ الفرحِ: اللهم أنت عبدى، وأنا ربُّك. أخطأمن شدةِ الفرحِ"، "كان رَجُلان فى بَنى إسرائيلَ مُتَواخِيَيْن: فكان أحدُهما يُذنِبُ، والآخَرُ مُجتهِدٌ فى العِبادةِ. فكان لا يَزالُ المجتهدُ يَرى الآخَرَ على الذَّنب، فيَقولُ: أقصِرْ. فوجَده يومًا على ذنب، فقال له: أقصِرْ. فقال: خَلِّنى وربِّي. أَبُعِثْتَ علَى رَقِيبًا ؟ فقال: واللهِ لا يَغفِرُ اللهُ لك أوْ لا يُدخِلُك الجنَّةَ. فقَبَض أرواحَهما، فاجتَمَعا عِندَ ربِّ العالَمين، فقال لهذا المجتهِدِ: أكنتَ بى عالِمًا ؟ أوكُنتَ على ما فى يدَى قادِرًا ؟ وقال للمُذنِب: اذهَبْ فادخُلِ الجَنَّةَ برَحْمتي. وقال للآخَرِ: اذهَبوا به إلى النَّارِ"، "مَنْ علَّم علمًا فله أجرُ مَنْ عمِل به، لا ينقصُ من أجرِ العاملِ شىء"، "إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجرٌ".

ترى هل يمكن أن يجد أحدنا فى الدين الذى يقول كل هذا الكلام البديع موضعا لكاهن أو كهانة؟ إن الله ليُقْبل بنفسه على عبده ويبشره ويطمئنه، ويمسح عن قلبه القلق والخوف، ويبث فيه السكينة والثقة فيه جل وعلا. كذلك فالمسلم يذبح أضحيته بنفسه ولا يحتاج إلى كاهن، وهو يذبحها ليوزع نصيبا مفروضا منها على المحتاجين، ونصيبا آخر على الأصدقاء والأقارب والجيران، ونصيبا ثالثا لأسرته، ولا يذبحها لكى يشم الله رائحة الشواء كما جاء فى العهد القديم. وحين يصلى فيمكنه أن يصلى وحده أو فى جماعة، ويؤمهم حينئذ أىٌّ منهم ما دام يحفظ القرآن ويعرف كيف يصلى بدون أخطاء، ولا يحتاج الأمر إلى كاهن يصلى بهم. أما الإمام أو شيخ المسجد فهو موظف مدنى يفترض فيه أنه درس الشريعة، وبخاصة العبادات، ويستطيع أن يؤم الناس، بدلا من أن يختلفوا على أيهم الإمام أو لا يجدوا إماما أصلا. وعالم

الدين فى الإسلام يفتى فى القضايا التى يلجأ إليه فيها من يحتاجون لمعرفة رأى الدين فيها، لكن ليس شرطا أن نلجأ إليه، فقد يكون الواحد منا على مستواه فى فهم الشريعة أو أفضل منه. وحين يصدر حكمه فى مسألة ما فليس كلامه ملزما إذا وجدنا أفضل منه وأكثر إقناعا وأرحب أفقا وأكثر اتساقا مع روح الدين. فهو مجرد عالم من العلماء تخصص فى الفقه والعقيدة فحسب. وعند الزواج لا نحتاج إلى كاهن، بل يعقد القران أى موظف يفهم كيف يقوم بتلك الإجراءات، بل يصح الزواج دون كتابة ودون عالم متى كان الزوجان أو أهلوهما يعرفون كيف يعقدون العقد، وما أسهله فى الإسلام. وليس شرطا أن نردد الصيغة المعتادة التى نسمعها فى مثل هذه المناسبة بحذافيرها، فالمهم أن يعرف الحاضرون أن فلانا يطلب يد فلانة وأنها وأهلها موافقون، وأن يدفع لها مهرا أى مهر ما دامت راضية به حتى لو كان المهر أن يعلمها آيات من القرآن أو يعلمها بعض الدروس الخصوصية أو يشتغل مع أبيها فى ورشته أو مكتبه أو مزرعته مثلا. وهذا كل ما هنالك. ونفس الأمر ينطبق على إجراءات الطلاق، وكذلك على إجراءات الصلاة على الميت ودفنه، فالمسلم لا يحتاج إلى كاهن يقوم بها، بل يمكن أن يؤديها أى شخص من تغسيل وإمامة لصلاة الجنازة وما إلى ذلك. فالموت فى الإسلام ليس سرا من الأسرار فلا يقوم بأداء طقوس إعداد الميت قبيل وفاته وعقبها إلا كاهن من الكهان. وعند ولادة الطفل يمكن الأب أن يؤذن فى أذن وليده ليكون أول ما يدخل أذنه عندئذ الشهادتان. وليست مع هذا واجبة، بما يعنى أنه يمكن ألا يفعلها.

أما فى النصرانية مثلا فالقسيس هو الذى يعمِّد الطفل، أى يغمره أو يرش عليه بعض الماء رمزا على دخوله النصرانية، ولا بد من ذلك التعميد. وحين يجترح المسلم خطيئة فكل ما عليه هو أن يستغفر الله ويتوب إليه، وكلما رجع فارتكس فى الخطيئة رجع فتاب واستغفر، ولا يحتاج الأمر كاهنا بل السبيل مفتوحة تماما بين العبد وربه دون أية وساطة من شيخ كما فى

النصرانية، التى يوجد فيها سر الاعتراف. وفى الإسلام أن من يتألَّى على الله ويحكم، مجرد حكم لا راح ولا جاء، على إنسان بأن مصيره النار فإنه يعرّض نفسه هو للنار بينما يذهب الآخر إلى الجنة. وبالمثل لا يجوز لأى إنسان أن يحكم على آخر بالنجاة يوم القيامة. فليس لأحد دَخْلٌ بالجنة والنار، إذ هما من اختصاص المولى سبحانه. وهذا من الفروق الحاسمة بين الإسلام والنصرانية.

ورغم هذا كله فتَحْتَ عنوان "الكهانة والنبوة" فى كتاب "الكهانة العربية قبل الإسلام" لتوفيق فهد (ترجمة حسن عودة ورندة بعث) نقرأ كلاما يعيدنا فى هذه القضية إلى نقطة الصفر، وكأنك يا أبا زيد لا رحت ولا جئت. يقول المؤلف الدَّعِىّ: "علاوة على ذلك فإن الكهانة لم تُحْظَر صراحة لا فى القرآن ولا فى السُّنَّة، بل تم تحريم أمرين اثنين: الذهاب لرؤية كاهن وتصديق ما يقوله لأن ذلك إنكار للوحى الذى نزل على محمد، وأن يقبض أحد مالا بوصفه كاهنا أو أن يدفع أجرا لأحد بهذه الصفة. وفى القرون الوسطى كان المحتسب مكلفا بالسهر على التقيد بهذا الحظر. ونحن لا نجد فى أى مكان من القرآن حظرا مماثلا لما جاء فى "اللاويين" (١٩/ ٣١): "لا تلتفتوا إلى السِّحْر ولا تَسْعَوْا وراء العرافين فتتنجسوا بهم". ومع ذلك فلم يبد أن التقليد الإسلامى كان يجهل هذا الحظر التوراتى الصريح. يروى عن وهب بن منبه: أوحى الله لموسى بن ماناسا بن يوسف أن يقول لشعبه: أنا برىء من كل من يعمل السحر أو يذهب إلى ساحر، ومن كل من يعمل الكهانة أو يذهب إلى كاهن، ومن كل من يزجر طيرا أو من يسعى إلى ذلك عند كاهن. من يؤمن بى حقا هو من يثق بى حقا، ويكفيه أن أكون من يُثِيبه. ومن يبتعد عنى ويضع ثقته فى آخر غيرى، فى شريك صالح له، أعيد له صلاته التى صلاها لى، وأفوض أمره إلى من كان وَضَعَ ثقتَه عنده. ومن أفوض أمره إلى آخر غيرى فعليه أن ينتظر البلاء والمحن".

لقد حرم القرآن عبادة الأصنام تحريما باتًّا لا مَثْنَوِيَّة فيه وكَفَّر من يمارسها، فقضى بذلك على الوثنية، وقضى بالتبعية على الكهنة، كما نفى أن يكون محمد كاهنا، ودعا إلى الإيمان به نبيا رسولا يدعو إلى الهدى والحق وإلى القيم الإنسانية الكريمة التى تأخذ بيد البشر إلى مدارج الرقى والتحضر. فكيف يقال إن الكهانة لم تحظر؟ وقال عن السحر إنه تخييل وباطل ولا يصلح أبدا، نافيا أيضا فى نفس الوقت عن محمد أن يكون ساحرا أو يكون ما أتى به سحرا. وهذا إن كان النبى، الذى نزل عليه هذا القرآن، قد سكت عن هذا الموضوع وترك بابه مفتوحا كما يدعى الكاتب.

لقد رجم رسول الله الكهانة والكهان براجمات الصواريخ حتى نسفها نسفا. ومن أحاديثه صلى الله عليه وسلم فى ذلك: "ليس منا من تطَيَّر أو تُطِيِّرَ له، أو تكهَّن أو تُكُهِّن له، أو سَحَر أو سُحِر له"، "لن يلج الدرجاتِ العُلَى من تكهَّن أو استقسم أو رجع من سفرٍ تطيُّرا"، "من أتى عرافا فسأله عن شىء لم تُقْبَل له صلاةٌ أربعين ليلة"، "لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ صاحِبُ خَمْسٍ: مُدمِنُ سُكْرٍ، ولا مُؤمِنٌ بِسِحْرٍ، ولا قاطِعُ رَحِمٍ، ولا مَنَّانٌ، ولا كاهِنٌ"، "إنَّ اللهَ تعالى يغفِرُ لجميعِ المسلمينَ فى تلكَ اللَّيلةِ إلا لكاهِنٍ أو ساحِرٍ أو مُشاحِنٍ أو مُدْمِنِ خَمرٍ أو عاقٍّ للوالدَيْنِ أو مُصِرٍّ على الزِّنا"، "من أتى كاهِنًا فصدَّقَهُ بما يقولُ أو أتى امرأةً حائضًا أو أتى امرأةً فى دُبُرِها فقد برِئَ مِمَّا أنزَلَ اللَّهُ على محمَّدٍ"، "من أتى كاهنًا فصدقه أو أتى امرأةً فى دبرها فقد كفر بما أنزل على محمدٍ"، "عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قال: مَن أتى عرَّافًا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقولُ فقد كفَر بما أُنزِل على مُحمَّدٍ. قلتُ يا رسولَ اللهِ، أمورًا كنا نصنعُها فى الجاهليةِ: كنا نأتى الكُهَّانَ! قال: فلا تأتوا الكهانَ. قال: قلتُ: كنا نتطيرُ. قال: ذاك شىء يجدُه أحدُكم فى نفسِه، فلا يصدَّنكم". و"جاءَ بعضُ الوفودِ إلى النبى صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فظنوا أنه ممن يزعمونَ الاطلاعَ على الغيبِ، فخبأوا له شيئًا فى أيديهم وقالوا له: أخبِرْنا ما هو؟ فقالَ لهم فى

صراحةٍ: إنى لستُ بكاهنٍ، وإن الكاهنَ والكهانةَ والكهانَ فى النارِ" . و"نهى النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن ثمنِ الكلبِ، وحُلْوانِ الكاهِنِ، ومَهْرِ البَغِى" .

كذلك فكلام وهب بن منبه المذكور آنفا أقرب إلى الإسلام منه إلى اليهودية، وإلا فكيف ينسب إلى موسى بن منسَّى بن يوسف الهجوم على الكهان، وسوف يأتى هارون أخو موسى ويمارس الكهانة بتدشين من الله سبحانه لتستمر الكهانة بعد هذا فى ذريته وذرية ذريته إلى أبد الآباد؟ بل إن الكهانة قد وجدت بين أنبياء الله الكبار قبل موسى بأزمان متطاولة. جاء فى مادة "كهن- كاهن- كهنوت" بـ"دائرة المعارف الكتابية": "أما الخدمة الكهنوتية فكانت موجودة منذ عصر الآباء، وكان يقوم بها رأس العائلة، فقد قام بها نوح (تك ٨: ٢٠ و٢١) وإبراهيم (تك ١٢: ٨، ١٣: ٤ و١٨، ٢٢: ١-١٣) وأيوب (أى ١: ٥) وغيرهم" . كذلك فإن العهد القديم لا يقف كثيرا ولا طويلا عند زجر الطير بل يمسه سريعا، وإن كانت الترجمة اليسوعية تستخدم له كلمة "عيافة" . إنما كان معروفا عند العرب بقوة حتى قضى الإسلام عليه.

لا بل إن توفيق فهد يزيد فى الطنبور نغمة فيقول متساخفا فى كتابه المذكور إن "النبوة امتداد للكهانة وإنها حالة أسمى أيا كانت درجة كمالها"، ومن ثم "كان من الطبيعى أن تحافظ بعضُ أفكار وطرائق الكهانة على مكانتها داخل الجماعة الإسلامية الفتية. ولهذا فإن دور الوسطاء: ملائكة، شياطين، جن ظل غالبا على مفهوم الوحى" . ولا ندرى عن أى امتداد يتحدث. المعروف أن الإسلام حارب الكهانة وقضى عليها وهدم معابد الأوثان، وتحول الكهان إلى الدين الجديد وانتهى أمرهم مع القضاء على الوثنية والتكهن، فكيف يكون النبى الذى كان أداة القضاء على الكهانة امتدادا لها؟

لقد كان الكهنة يستعينون بالشياطين، فهل كان النبى يستعين بالشياطين؟ ولم يقولوا يوما إنهم يستعينون بالملائكة، فكيف يعد حديث الإسلام عن الملائكة امتدادا للكهانة؟ ألا إن أمره

لعجيب! وكان الكهان يزعمون معرفة الغيب، فهل زعم النبى يوما أنه يعلم الغيب؟ لقد رأينا كيف أتاه بعض العرب، وقد خبأوا فى أيديهم شيئًا يمتحنونه به، فما كان منه إلا أن قال بكل تلقائية وبساطة إنه نبى لا كاهن. فكيف يسوى هذا الرجل بين الكاهن والنبى؟ لقد كان الكهان يقولون كلاما قد تصدق كلمة منه، وتكذب تسع وتسعون أخرى، فأين الصلة بينهم وبين النبى؟ كما كانوا يتقاضَوْن أموالا ممن يقصدونهم لهذا الأمر أو ذاك، فهل كان النبى يفعل هذا؟

وأيضا كانوا يقومون بدور الوسيط بين الناس والأوثان، فهل تعامل النبى مع الأوثان يوما؟ لقد كان الكهان يقيمون سدين فاصلين لا سدا واحدا بين الله وعباده، وهما سد الأصنام، ثم سدهم هم بين الأصنام وبين الجمهور. أما النبى فكسر كل السدود، وأعلن أن باب الله سبحانه مفتوح على مصراعيه للبشر كل البشر، وما عليك إلا أن تفتحه وتدخل دون استئذان أو وسيط. فالنبى إنْ هو إلا مبلغ للوحى من الله إلى عباد الله، ثم هو بعد ذلك واحد منهم: يعبد الله كما يعبدون، ويطلب منه المغفرة والرحمة كما يطلبون، ويخافه كما يخافون، ويجهل غيبه كما يجهلون، وسوف يحاسب يوم القيامة كما يحاسبون. فأين الكهانة من النبوة؟ أين الطين المنتن من جوز الهند بالزبد والعطر والعسل؟ كذلك فالكاهن لا يدعو إلى إصلاح ولا يعمل على ترقية قُصّاده بل يستبقى كل ما هو جاهلىٌّ وثنىٌّ دَنِسٌ على العكس من النبى، الذى يدعو إلى كل ما هو نظيف جميل طاهر نقى تمام النقاء.

ولقد كان الكاهن يذبح القرابين المقدمة إلى الأوثان ويأخذها كلها أو قدرا كبيرا منها لنفسه، ويوهم الجمهور أن الأصنام تسمع لهم وتبصرهم وتستجيب لدعائهم وتقربهم إلى الله زلفى. كما كان يدعى معرفة الغيب، فكان الناس يقصدونه ليعرف لهم من سرق أشياءهم، وأين يخبئها. فالكهان، كما يرى القارئ، قارئو مندل وجزارون ليس إلا، وبلطجية إذا لزم الأمر. فكيف ينزل الكاتب المتنطع بمكانة النبوة من طورها السامق إلى هذا الطور المنحط؟

هل دعا كاهن واحد إلى الوحدانية؟ هل دعا كاهن واحد إلى العدل والرحمة والمساواة أمام الله؟ هل دعا كاهن واحد إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ونبه إلى أن هناك حسابا وثوابا وعقابا؟ هل حذر كاهن يوما قصاده من الظلم والاستبداد وأكل الحقوق؟ هل نادى كاهن قط بإنصاف المرأة فى الميراث والزواج وإحسان تربيتها وتعليمها؟

هل فى الكهانة زكاة وصدقات؟ هل فى الكهانة تحرير رقيق واهتبال كل سانحة للقضاء على نظام العبودية؟ هل فى الكهانة طهارة ونظافة وتنظيم وتخطيط؟ هل فى الكهانة حُنُوٌّ على الضعف البشرى؟ هل فى الكهانة دعوة إلى العمل والإنتاج والإتقان وطلب العلم والاجتهاد دون خوف من اجتراح خطإٍ لأن المجتهد مأجور حتى لو أخطأ؟ هل رَفَع الكهان شأن العلم وجعلوا العالم وريثا للأنبياء وبشروه بأنه حتى السمك فى البحر يستغفر له وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع؟ هل أفهم الكهان من يعتقدون فيهم ويؤمنون بهم أنهم بشر يصيبون ويخطئون؟ هل نبهوهم إلى قيمة الجمال والسكينة؟ هل لفتوا أنظارهم إلى آيات الكون ليتأملوها ويعرفوا قدرة ربهم وإبداعه العظيم؟

هل الكاهن يدعو إلى القوة كما دعا النبى عليه السلام: قوة الفرد وقوة المجتمع وقوة الاقتصاد وقوة السياسة؟ هل الكهانة تهتم بإعمال العقل ومزاولة التفكير والإبداع كما تهتم نبوة نبينا محمد عليه السلام؟ بالعكس إن الكاهن يريد أن يظل قصاده جهلاء حتى يستغفلهم ويحرز منهم أكبر قدر من الأموال والأشياء. أما النبى فلم يكن يأخذ أجرا من أحد، كما كان أتباعه يراجعونه فيما يقترحه عليهم، وكان واسع الصدر والعقل يتقبل منهم ذلك ويشجعهم عليه نزولا على أمر ربه له بانتهاج طريق الشورى ولين الجانب معهم، ويأخذ من قادريهم ليعطى ضعفاءهم ومكسوريهم، ولكنه فى ذات الوقت لم يكن يحب للفقير أن يمد يده ما دامت فيه عافية تعينه على الكسب من عرق جبينه. فأين الثريا من الثرى؟ وكان يشرح لهم أن ربهم رحيم يغفر

الذنوب مهما جلت وعظمت ما دام العبد يرجع عنها ويندم، وأنه سبحانه يعاقب، إن عاقب، على السيئة بمثلها، أما الحسنة فبسبعة أضعافها إلى ما شاء الله، وأن السيئة التى لم تُرْتَكَب تُحْسَب له حسنة، وأن الحسنة التى لم تُنْجَز يؤجر عليها . ثم يأتى فلحاس فى آخر الزمان فيتنطع قائلا إن النبوة امتداد للكهانة. خيبة الله عليك يا رجل!

ولهذا كله اختفت الكهانة من بلاد العرب. وهذه قصص تتحدث عن هذا الاختفاء، وسواء بعد ذلك أكانت قصصا حقيقية أم كانت مجرد قصص رمزية، فالمهم فى الحالتين أن ضياء الإسلام الباهر قد نسخ ظلام الوثنية ومعابدها وكهانها وقضى على ذلك كله القضاء المبرم. وهذه هى القصص المذكورة: ١- خنافر بن التوأم الحميرى مع رئيه شَصَار: "كان خُنَافر بن التوأم الحميرى كاهنا، وكان قد أُوتِى بَسْطَةً فى الجسم وسَعَةً فى المال، وكان عاتيا . فلما وفدتْ وفود اليمن على النبى وظَهَر الإسلام أغار على إبلٍ لمُرَاد فاكتسحها، وخرج بأهله وماله ولحق بالشّحْر، فخالف جَوْدان بن يحيى الفِرْضِمى، وكان سيدا منيعا، ونزل بواد من أودية الشّحْر مُخْصِبًا كثير الشجر من الأيك والعَرِين. قال خنافر: وكان رَئِّيى فى الجاهلية لا يكاد يتغيب عنى، فلما شاع الإسلام فقدتُه مدة طويلة، وساءنى ذلك. فبينا أنا ليلةً بذلك الوادى نائما إذ هَوَى (انحدر فى الجَوّ) هُوِيَّ العُقَاب، فقال: خنافر؟ فقلت: شصار؟ فقال: اسْمَعْ أَقُلْ. قلت: قُلْ أَسْمَعْ. فقال: عِهْ تَغْنَمْ. لكل مدةٍ نهاية، وكلُّ ذى أمدٍ إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولةٍ إلى أجل، ثم يتاح لها حِوَل. انتُسِخت النّحَل، ورجعت إلى حقائقها المِلَل. إنك سَجِيرٌ (أى صديق) موصول، والنصح لك مبذول، وإنى آنَسْتُ بأرض الشأم نَفَرًا من آل العُذَّام (يقصد قبيلة من الجن)، حكّاما على الحكّام، يَذْبُرون (يقرأون) ذا رونق من الكلام، ليس بالشّعر المؤلَّف، ولا السجع المتكَلّف، فأصغيتُ فزُجِرْتُ، فعاودتُ فظُلِفْتُ (أى مُنِعْتُ)، فقلت: بِمَ تَهَيْنِمون؟ وإلام تَعْتَزُون؟ قالوا: خِطَابٌ كُبَّار، جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا

شَصَار، عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار، تَنْجُ من أُوَار النار. فقلت: وما هذا الكلام؟ فقالوا: فرقانٌ بين الكفر والإيمان. رسول من مُضَر، من أهل المَدَر، ابتُعِث فظهر، فجاء بقَوْلٍ قد بَهَر، وأَوْضَحَ نَهْجًا قد دَثَر، فيه مواعظ لمن اعتبر، ومَعَاذٌ لمن ازدجر، أُلِّف بالآىِ الكُبَر. قلت: ومن هذا المبعوث من مُضَر؟ قال: أحمد خير البشر. فإن آمنتَ أُعْطِيتَ الشَّبَر (أى الخير)، وإن خالفت أُصْلِيتَ سَقَر. فآمنتُ يا خُنَافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانِبْ كل كافر، وشايِعْ كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق، لا عن تلاق. قلت: من أين أبغى هذا الدين؟ قال: من ذات الإحَرِّين، والنَّفَر اليمانين، أهل الماء والطين. قلت: أَوْضِحْ. قال: اِلْحَقْ بيثربَ ذات النخل، والحَرَّة ذات النعل، فهناك أهل الطَّوْل والفضل، والمواساة والبذل. ثم امَّلَسَ عنى، فبتُّ مذعورا أُراعى الصباح. فلما برق لى النور امتطيتُ راحلتى وآذنتُ أَعْبُدِى واحتملتُ بأَهلى حتى وردتُ الجوف، فرددتُ الإبل على أربابها بحَوْلها وسِقَابها (أى بجمَالها ونُوقها. جَمْع: "حائل" و"سَقْب") وأقبلتُ أريد صنعاء، فأصبت بها معاذ بن جبل أميرا لرسول الله فبايعته على الإسلام، وعلَّمنى سورا من القرآن، فمنّ الله على بالهدى بعد الضلالة، والعلم بعد الجهالة".

٢- شافع بن كُلَيْب الصَّدَفِى يتكهن بظهور النبى: "قَدِمَ على تُبَّعٍ الآخِرِ ملكِ اليمن قبل خروجه لقتال المدينة شافعُ بن كُلَيْب الصَّدَفِى، وكان كاهنا، فقال له تُبَّع: هل تجد لقومٍ مُلْكًا يوازى مُلْكى؟ قال: لا، إلا مُلْك غسان. قال: فهل تجد مُلْكًا يزيد عليه؟ قال: أجده لبارٍّ مبرور، ورائدٍ بالقُهُور، ووُصِفَ فى الزَّبور، فُضِّلَتْ أمته فى السفور، يفرِّج الظُّلَم بالنور، أحمد النبى، طوبى لأمته حين يجى، أحد بنى لُؤَى، ثم أحد بنى قُصَىّ. فنظر تُبَّع فى الزَّبور، فإذا هو يجد صفة النبى".

٣- سَطِيحٌ الذئبى يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر اللَّخْمِى: "رأى ربيعةُ بن نصر اللَّخْمِى ملكُ اليمن، وقد مَلَكَ بعد تُبَّعٍ الآخَر، رؤيا هالتْه فلم يَدَعْ كاهنا ولا ساحرا ولا عائفا ولا منجّما من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم: إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفَظِعْتُ بها، فأخبرونى بها وبتأويلها. قالوا له: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها. قال: إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطِيحٍ وشِقٍّ، فإنه ليس أحدٌ أعلمَ منهما فيها، يخبرانه بما سأل عنه. فبعث إليهما فقَدِم عليه سَطِيحٌ قبل شِقّ، فقال له: إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفَظِعْتُ بها فأخبرْنى بها، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها. قال: أفعل. رأيتَ حُمَمَة، خرجتْ من ظُلْمة، فوقعت بأرض تَهَمَة، فأكلتْ منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأتَ منها شيئًا يا سطيح، فما عندك فى تأويلها؟ فقال: أحلف بما بين الحَرَّتَيْن من حَنَش، لَيَهْبِطَنَّ أرضَكم الحَبَش، فلَيملكُنَّ ما بين أَبْيَنَ إلى جُرَش. فقال له الملك: وأبيك يا سطيح إن هذا لنا لغائظٌ مُوجِع، فمتى هو كائن؟ أفى زمانى هذا أم بعده؟ قال: لا بل بعده بحين، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين. قال: أفَيَدُوم ذلك من مُلْكهم أم ينقطع؟ قال: لا بل ينقطع لبضعٍ وسبعين من السنين ثم يُقْتَلون بها أجمعين، ويخرجون منها هاربين. قال: ومن يلى ذلك مِنْ قَتْلهم وإخراجهم؟ قال: يليه إرَم ذى يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك أحدا منهم باليمن. قال: أفَيَدُوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبى زكى، يأتيه الوحى من قِبَل العَلِىّ. قال: وممن هذا النبى؟ قال: رجل من ولد غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر، يكون المُلْك فى قومه إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم. يومٌ يُجْمَع فيه الأولون والآخِرون، يسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون. قال: أحقٌّ ما تخبرنا يا سطيح؟ قال: نعم، والشَّفَق والغَسَق والفَلَق إذا انشقّ، إن ما أنبأتك به لَحَقّ".

٤- شِقّ أنمار يَعْبُر رؤيا ربيعة بن نصر أيضا: "ثم قدم عليه شِقٌّ، فقال له كقوله لسطيح، وكتمه ما قال سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان. قال: نعم رأيت حُمَمَة، خرجتْ من ظلمة، فوقعتْ بين روضة وأكمة، فأكلتْ منها كل ذات نَسَمة. فلما سمع الملك ذلك قال: ما أخطأتَ يا شِقُّ منها شيئا، فما عندك فى تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحَرّتين من إنسان، لَيَنْزِلَنّ أرضَكم السودان، فلَيَغْلِبُنّ على كل طَفْلَة البَنَان، ولَيَلْكُنَّ ما بين أَبْيَن إلى نجران. فقال له الملك: وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن؟ أفى زمانى أم بعده؟ قال: لا. بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان، ويذيقهم أشد الهوان. قال: ومن هذا العظيم الشان؟ قال غلام ليس بدَنِيٍّ ولا مُدَنّ، يخرج عليهم من بيت ذى يَزَن. قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسولٍ مرسَل، يأتى بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون المُلْك فى قومه إلى يوم الفَصْل. قال: وما يوم الفصل؟ قال: يومٌ تُجْزَى فيه الولاة، يُدْعَى فيه من السماء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات، ويُجْمَع فيه بين الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات. قال: أحَقٌّ ما تقول؟ قال: إى ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأتُك به لَحَقٌّ ما فيه أَمْض. فوقع فى نفس ربيعة بن نصر ما قالا، فجهّز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يُصْلِحهم، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له: سابور، فأسكنهم بالحيرة. فمِنْ بقية ولده النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى بن ربيعة بن نصر".

وكان الرسول عام الفتح قد كلف بعض أصحابه بالذهاب إلى معابد الوثنية فى أرجاء الجزيرة لتحطيم ما فيها من أصنام بعد أن فشا الإسلام فى العرب. والقصص فى ذلك معروفة، ومنها قصة تحطيم صنم العزى مثلا كما حكاها ابن الكلبى فى كتابه: "الأصنام" مثلا. قال: "حدثنا العنزى أبو على، قال: حدثنا على بن الصباح، قال: أخبرنا أبو المنذر، قال: حدثنى

أبى عن أبى صالح عن ابن عباس، قال: كانت العزى شيطانةً تأتى ثلاث سَمُرَاتٍ ببطن نخلة. فلما افتتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد، فقال له: ايتِ بطن نخلة، فإنك تجد ثلاث سمراتٍ، فاعْضُد الأولى. فأتاها فعَضَدَها، فلما جاء إليه عليه السلام قال: هل رأيت شيئًا؟ قال: لا. قال: فاعضد الثانية. فأتاها فعضدها، ثم أتى النبى عليه السلام، فقال: هل رأيت شيئًا؟ قال: لا. قال: فاعضد الثالثة. فأتاها، فإذا هو بحبشية نافشةٍ شعرها، واضعةٍ يديها على عاتقها، تَصْرِف بأنيابها، وخلفها دبية بن حرمى الشيبانى ثم السلمى، وكان سادنها. فلما نظر إلى خالدٍ قال:

أعُزَّاء، شُدِّى شدةً لا تكذبى ... على خالدٍ! أَلْقِى الخمار وشمِّرى!

فإنك إلا تقتلى اليوم خالدًا ... تبوئى بذلٍّ عاجلا وتنصرى

فقال خالد:

يا عُزَّ، كُفْرانَك لا سبحانك! ... إنى رأيت اللهَ قد أهانَك!

ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هى حممة، ثم عضد الشجرة، وقتل دبية السادن، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: تلك العُزَّى، ولا عُزَّى بعدها للعرب! أمَا إنها لن تُعْبَد بعد اليوم! فقال أبو خراش فى دبية الشعرَ الذى تقدَّم.

قال أبو المنذر: ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئًا من الأصنام إعظامهم العزى ثم اللات ثم مناة. فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية، وذلك فيما أظن لقربها كان منها. وكانت ثقيف تخص اللات كخاصَّة قريشٍ العُزَّى، وكانت الأوس والخزرج تخص مناة كخاصة هؤلاء الآخرين، وكلهم كان معظمًا لها، أى للعُزَّى، ولم يكونوا يرون فى الخمسة الأصنام التى دفعها عمرو بن لحى، وهى التى ذكرها الله تعالى فى القرآن المجيد حيث قال: "ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا"، كرأيهم فى هذه

ولا قريبا من ذلك، فظننت أن ذلك كان لبعدها منهم. وكانت قريش تعظمها، وكانت غَنِىٌّ وباهلةُ يعبدونها معهم، فبعث النبى خالد بن الوليد فقطع الشجر وهدم البيت وكسر الوثن. وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها" . فكيف يقول توفيق فهد هذا الذى قاله فى كتابه: "الكهانة العربية قبل الإسلام" من سخف وتنطع؟

ويلخص العقاد أمر الكهانة والكهان فى السطور التالية المأخوذة من كتابه: "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" (فصل "شبهة الخرافة"): "ويبدر إلى الذهن أن الشمول الذى امتازت به العقيدة الإسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب، ولا بد لإظهارها من بحث عويص فى قواعد الدين وأسرار الكتاب وفرائض المعاملات. فليست هى مما يراه الناظر الوثنى أو الناظر البدوى لأول وهلة قبل أن يطَّلع على حقائق الديانة ويتعمق فى الاطلاع. ومِنَ المحقَّق أن إدراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتأَّتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتغلغلة فى وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين الديانات، وبخاصةٍ فى شعائرها ومراسمها التى يتلاقى عليها المؤمنون فى بيئاتهم الاجتماعية. ولكن الناظر القريب قد يدرك شمولِ العقيدة الإسلامية من مراقبة أحوال المسلم فى معيشته وعبادته، ويكفى أن يَرى المسلمَ مستقلا بعبادته عن الهيكل والصنم والأيقونة والوثن ليعلم أنه وحدة كاملة فى دينه، ويعلم من ثَمَّ كل ما يرغبه فى ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكرًا للكاهن، ووقفًا على المعبد، وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة.

لقد ظهر الإسلام فى إبان دولة الكهانة والمراسم، وواجه أناسًا من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود إلى حالةٍ كحالة الوثنية فى تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن فى كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة، ولاح للناس فى القرن السابع للميلاد خاصةً أن المتدين قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها، ولا تُحْسَب لها ديانة أو

شفاعة بمعزل عنه. فالدين كله فى المعبد عند الكاهن، والمتدينون جميعًا قِطَعٌ متفرقة لا تستقل يومًا بِقِوَام الحياة الروحية، ولا تزال معيشتها الخاصة والعامة تَثُوب إلى المعبد لتتزود منه شيئًا تتم به عقيدتها ولا تستغنى عنه مدى الحياة. لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والأيقونة، سواءٌ فى العبادة الوثنية أو فى عبادة أهل الكتاب، إلى ما بعد القرن السابع بأجيال متطاولة.

فلما ظهر المسلم فى تلك الآونة ظهر الشمول فى عقيدته من نظرة واحدة. ظهر أنه وحدة كاملة فى أمر دينه: يصلى حيث يشاء، ولا تتوقف له نجاة على مشيئة أحد من الكهان، وهو مع الله فى كل مكان، "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ" (البقرة: ١١٥). ويذهب المسلم إلى الحج فلا يذهب إليه ليغتنم من أحدٍ بركةً أو نعمةً يضفيها عليه، ولكنه يذهب إليه كما يذهب الألوف من إخوانه، ويشتركون جميعًا فى شعائره على سُنَّة المساواة بغير حاجة إلى الكهانة. وقد يكون السَّدَنَةُ الذين يراهم مجاورين للكعبة خُدَّامًا لها وله يدلُّونه حين يطلب منهم الدلالة، ويتركهم إن شاء، فلا سبيل لأحد منهم عليه. فإذا توسع قليلا فى العلم بشعائر الحج علم أن الحج لا يَفْرِض عليه زيارة قبر الرسول، وأن هذه الزيارة ليست من مناسك الدين، وأنها تحية منه يؤديها من عنده غير مُلْزَم كما يؤدى التحية لكل دفين عزيز محبوب لديه: "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ" (الكهف/ ١١٠). وقرأ فيه: "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا. إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ" (الشورى/ ٤٨). وقرأ فيه: "قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ. فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ. وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا. وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ" (النور/ ٥٤). وقرأ فيه: "وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّار" (ق/ ٤٥). وقرأ فيه: "لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ" (الغاشية/ ٢٢). وقرأ فيه: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" (سبأ/ ٢٨). وقرأ فيه آيات لا تخرج فى وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات...

(وقد) مر بنا أن فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ودخولهم أفواجًا عقيدة المسلمين. مثل هذا لا يحصل فى أمة إسلامية فسد فيها رجال دينها. فما من مسلم يذهب إلى الهيكل ليقول لكاهنه: خذ دينك إليك، فإننى لا أومن به لأننى لا أومن بك، ولا أرى فى سيرتك مصدقًا لأوامرك ونواهيك أو أوامره ونواهيه. كلا ما من رجل دين يبدو للمسلم أنه صاحب الدين، وأنه حين يؤمن بالله يؤمن به لأنه إله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبين الله، أو يعطيه من نعمته قوامًا لروحه: "وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ. وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ. وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِى الْحَمِيدُ" (فاطر/ ١٣–١٥). نعم كلهم فقراء إلى الله، وكلهم لا فضل لواحدٍ منهم على سائرهم إلا بالتقوى، وكلهم فى المسجد سواء. فإن لم يجدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الأرض وتحت السماء.

إن عقيدة المسلم شىء لا يتوقف على غيره، ولا تبقى منه بقية وراء سره وجهره. ومن كان إمامًا له فى مسجده فلن ترتفع به الإمامة مقامًا فوق مقام النبى صاحب الرسالة: النبى يبشر وينذر، ولا يتجبر ولا يسيطر، ويُبلِّغ قومه ما حُمِّل وعليهم ما حُمِّلُوا، وما على الرسول إلا البلاغ المبين. ومنذ يسلم المسلم يصبح الإسلام شأنه الذى لا يعرف لأحد حقًّا فيه أعظم من حقه، أو حصة فيه أكبر من حصته، أو مكانًا يأوى إليه ويكون الإسلام فى غيره".

أما محمود محمد طه فيقول مخاطبا مصطفى محمود فى الفصل المعنون بعنوان "لا كهنوت" من كتابه: "القرآن ومصطفى محمود والفهم العصرى": "مهما يكن من أمر فليس هناك منذ اليوم خوف على الناس من الكهنوت ما دامت العقول سائرة فى طريق النضج والفهم. وما ينبغى أن يدفعنا الخوف من الكهنوت أن نجنح إلى طرف الشطط الثانى فنتورط فى خطإٍ آخر قد بدا

لى طرف منه فى قولك: "إن الصلة بين الإنسان وربه صلة مباشرة، وإن الله يرعى شؤون مخلوقاته مباشرة بدون مجلس إدارة وبدون سكرتارية وبدون وسطاء. "قل: لله الشفاعة جميعا"، "وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان"...".

هذا قولك من صفحة ٢٢٠، وهو قول يسير إلى الشطط الآخر، فإن الوسطاء قائمون، ولكن قيامَهم مرحليٌّ. فأنت لا تستطيع أن تعرف الله إلا بواسطة العارفين به. فما كان يمكن الاستغناء عن وساطة محمد مثلا، وما كان لمحمد أن يستغنى عن وساطة جبريل. ولكن بعد أن ارتفق محمد بجبريل فى المرحلة أمكنه أن يسير إلى ربه بدون جبريل كما هو محكيٌّ فى قصة المعراج حين تخلَّف عنه جبريل عند سِدْرَة المنتهَى". وقد كرر هذا الكلام فى فصل "لماذا إعجازالقرآن؟" حيث قال: "سار جبريل أمام محمد يقتفى آثار الحق لا يخطئها، وسار محمد بسَيْرِه حتى قويت أنواره، فاستقل عن جبريل وأخذ يسير خلف الله بلا واسطة. ونحن إنما نسير خلف محمد ريثما تقوى أنوارنا، فنسير خلف الله بلا واسطة. وهذا هو لقاؤنا الله. هو لقاء وسيلته العقل، ولا يتخلف العقل عن هذا اللقاء إلا لغواشى الجهالات والأوهام والأباطيل. وإنما أرسل الله جبريل وأرسل محمدا لتخليص العقول من هذه الأغلال... فإذا قويت العقول بفضل الله ثم بفضل تقليد محمد بإتقان فى أسلوب عبادته وفيما تيسر من أسلوب عادته فقد تأهلتْ لتستقل عن التقليد ولتعيش فى أصالة ولتلقى عن الله كفاحا، وقد سقطت من بينها وبينه الوسائط. والتلقى عن الله بلا واسطة يورث الاستقامة".

وهذا كلام من يخلط بين وساطة ووساطة: فوساطة الرسول هى وساطة التبليغ والشرح والتوضيح، ووساطة جبريل هى وساطة التوصيل ليس إلا. ولم يحدث أن علم جبريل النبى محمدا شيئا. والحديث الذى يرتبط فيه جبريل بالتعليم لم يكن التعليم فيه للنبى صلى الله عليه وسلم بل كان منه للمسلمين الحاضرين آنئذ معه عليه السلام، وانحصر دور جبريل فى إلقاء

بعض الأسئلة التى أجاب عليها نبينا عليه السلام على ما سوف نرى بعد قليل حين نطالع نص الحديث الشريف. ثم متى استقل محمد عن جبريل، وجبريل ظل ينزل عليه إلى آخر عمره بالوحى الإلهى؟ كذلك فنحن المسلمين سوف نظل محتاجين إلى الرسول من خلال أحاديثه وسيرة حياته حيث نجد شرح القرآن وتطبيقه، وإلا ضللنا فهم كتاب الله ولم نستطع أن نضعه مواضعه على أرض الواقع.

أما تلقينا عن الله كفاحًا، أى وجهًا لوجه، فلا أدرى كيف يكون إلا أن يكون المقصود أن محمود محمد طه سوف يكون فى علاقته بالله أقرب مما كان النبى بالنسبة لربه. أستغفر الله. ثم مهما يكن المراد بالسير خلف الله أفيصح استعمال هذا التعبير؟ وبالمناسبة فلمحمود محمد طه شطحات فى الدين خطيرة ودعاوى تجاوز فيها حدوده تماما. وقد انتهى أمره فى عهد جعفر نميرى إلى حبل المشنقة جراء هذه الشطحات والمزاعم الشنيعة. وعلى كل حال فهذا شىء مختلف عن وساطة الكهانة كما هو معلوم. ثم كيف قبل ذلك كله يقول إنه لم يعد هناك خوف على الناس من الكهنوت، وأديان الكهنوت كما هى باقية على حالها الكهنوتى لم تتغير؟

وهذا هو الحديث المشار إليه قبل قليل: "بينما نحن عند رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلم ذاتَ يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياض الثياب شديدُ سوادِ الشعرِ لا نرَى عليه أثرَ السفرِ ولا نعرفُه، حتَّى جلس إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلم، فأسند ركبتَه إلى ركبتِه ووضع كفَّيه على فخذِه ثمَّ قال: يا محمدُ، أخبِرْنى عن الإسلامِ، ما الإسلامُ؟ قال: أنْ تشهدَ ألا إلهَ إلا اللهَ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ وتقيمَ الصلاةِ وتؤتى الزكاةَ وتصومَ رمضانَ وتحجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليه سبيلا. قال: صدقتَ. قال عمرُ: فعجبنا له: يسألُه ويصدقُه. فقال: يا محمدُ، أخبرنى عن الإيمانِ، ما الإيمانُ؟ قال: الإيمانُ أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ

والقدر كلّه خيرِه وشرّه. قال: صدقتَ. قال: فأخبرنى عن الإحسان، ما الإحسانُ؟ قال: أنْ تعبدَ اللهَ كأنك تراهُ. فإن لم تكنْ تراهُ فإنه يراكَ. فقال: أخبرنى عن الساعةِ، متى الساعةُ؟ قال: ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائلِ. فقال: أخبرنى عن أماراتِها . قال: أنْ تلدَ الأَمَةُ ربَّتَها وأنْ ترَى الحفاةَ العراةَ العالةَ رعَاءَ الشّاءِ يتطاولونَ فى البناءِ. قال: ثمَّ انطلقَ الرجلُ. قال عمرُ: فلبثتُ ثلاثًا، ثمَّ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم: يا عمرُ، أتدرى من السائلُ؟ قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: فإنه جبريلُ عليه السلامُ أتاكم يعلّمَكم دينَكم" .

الثرثرة فى الحلال والحرام على حساب القيم العليا

كثير من المسلمين يظهرون انشغالهم الشديد بالحلال والحرام، بغض النظر عما إذا كان انشغالا حقيقيا أو مجرد طقطقة باللسان، ويَهْوَوْن الكلام بل الثرثرة فى هذا الموضوع على حساب العمل والإنجاز، وقلما يفكرون فى الواجبات والمفروضات خارج العبادات الرسمية. إن الكثير من البشر فى مجتمعاتنا لا يفكرون مثلا فى أن العمل واجب بل شديد الوجوب، وأنه بدون العمل، والعمل الصالح، وهو كل عمل نافع مفيد يخفف من صعوبة الحياة ويريح المكروبين ويقدم الحلول للمشاكل التى تواجه البشر وتؤرقهم وتزعجهم، لا يمكن أن نتقدم أو نعيش عيشة كريمة. كذلك فإن مكانة العلم فى الإسلام خطيرة حتى لقد جعل الرسول الكريم طلبه خروجا فى سبيل الله، وأنبأنا أنه فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وأن الحيتان (أى السمك) فى البحر تستغفر له، وأن العالِم يفوق العابِد كما يفوق البدر سائر الكواكب. وبالمثل فالنظافة فى الإسلام من الإيمان. ومعنى هذا أنه إذا كان الشخص لا يبالى بالنظافة سواء على المستوى الشخصى أو فى الشوارع أو فى المؤسسات العامة فهذا مؤشر على أن بإيمانه دخلا مهما ادعى التدين ومكث يسبح الله ويبسمل ويحوقل ويفر مسبحته ويقرأ أوراده. والإتقان أيضا واجب من الواجبات التى لا نهتم بها بوجه عام. ومثله النظام رغم أنه قيمة كبرى فى الحياة، ولولا هو ما تم شىء، إذ الفوضى أخت الفشل والإخفاق والخسار. وهناك واجبات أخرى كثيرة لا نلتفت عموما إليها وكأنها ليست من الدين: خذ الوقت مثلا، وانظر كيف نهدره إهدارا دون أن ننجز شيئًا، فنقضى وقتنا على المقاهى فى الثرثرة ولعب الضامة والكوتشينة والعبث بالمحمول وبالكاتوب أو نجلس فى البيت واضعين أيدينا على خدودنا كأنه قد مات لنا ميت، فنحن من ثم حزانى قد شلت قوانا وغلبنا اليأس فلا نستطيع أن نفكر فى شىء نعمله.

وقد وقف د. مصطفى محمود، فى فصل "العلم والعمل" من الكتاب الذى بيدنا الآن، عند العلم والعمل الصالح، فَسَاقَ طائفة من الآيات التى تحض حضا على طلب العلم، وبيَّن أن الإسلام يتميز عن غيره من الأديان ويمتاز عليها بأن أول آية فيه هى "اقرأ"، وأن هذا منتهى التشريف للعلم والعلماء، كما أورد الآية التى يأمر فيها الله نبيه محمدا بأن يدعو ربه أن يزيده علما: "وقل: ربِّ، زدنى علما"، وإن كان رحمه الله قد اكتفى بإيراد الآية ضمن غيرها من الآيات، فلم يولها اهتماما خاصا، وهو ما أحب أن أفعله الآن.

فالنبى رغم نبوته مأمور من ربه أن يستزيد من العلم، وهو الذى يوحَى إليه وكلفه الله هداية الآخرين. فالنبى نفسه مطلوب منه الاستزادة من العلم، فما بالنا بنا نحن، ونحن لسنا أنبياء ولا نتلقى الوحى من السماء كما يتلقى هو صلى الله عليه وسلم؟ ومع هذا نجد العرب والمسلمين فى وقتنا الحالى ينفرون بوجه عام من العلم ولا يهتمون إلا بالطعام والشراب والملبس والمسكن مع أن ما يميز البشر عن باقى الكائنات الحية هو العقل والاستعداد لتلقى العلم والقدرة على السعى خلفه وتحصيله. إلا أن العرب والمسلمين فى زماننا هذا لا يقرأون ولا يحبون القراءة والكتاب حتى لقد صار الغيارى منا على أوضاع أمتهم المحزنة المزعجة المؤلمة المخيفة يضربون كفا بكف ويقولون فى حسرة ورعب إن "أمة "اقرأ" لا تقرأ". وهى مفارقة عجيبة وغريبة.

لقد أكد الرسول أن الشخص سوف يُسْأَل يوم القيامة، ضمن ما يسأل، عن شبابه فيم أنفقه، أى عن وقته أيام قوته وقدرته وعنفوان طاقته: ماذا فعل به؟ وماذا أنجز فيه؟ وإلى أى مدى استفاد بصحته وعافيته حين كان شابا كله حيوية ونشاط، والمستقبل أمامه ممتد مفتوح؟ وفى بريطانيا يقولون: "الوقت مالٌ" (Time is money)، وفى أمثالنا "الوقت من ذهب"، وهو قريب فى المعنى من المثل الإنجليزى، وإن كان أحسن وقعا وأكثر جاذبية، و"الوقت

كالسيف إن لم تقطعه قطعك" . ويقول رسولنا العبقرى العظيم سيد الأنبياء والمرسلين: "نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ" . والفراغ هو الوقت الذى يحتاج إلى أن تملأه بالعمل. أى أن عندك وقتا ، فكيف تتصرف فيه بحيث لا تغبن نفسك؟ ومثله الصحة، فإن كثيرا منا يتمتع بصحة طيبة، لكنه لا يحب أن يعمل، وإذا عمل أدى عمله سلق بيض خاليا من الروح والإتقان، فلا يصمد عمله طويلا ولا يفيد كثيرا .

ولقد رأى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رجلا فى المسجد جالسا بعد الصلاة لم ينصرف كما انصرف الباقون، فسأله ما الذى يبقيه هكذا، فكان جوابه أنه يعبد الله، فعاد يسأله: فمن ينفق عليك؟ قال: أخى. فرد عليه الرسول قائلا: أخوك أعبد منك. أى أكثر عبادة وقربا من الله وأفهم لدينه وأكثر عطفا وحنانا ورحمة وأسخى يدا وأكرم نفسا وأنقى سلوكا وأحسن إنسانية. . .

كذلك ينبهنا مفسرنا رحمة الله عليه، فى نفس الفصل، إلى أن القرآن عادة ما يقرن الإيمان بالعمل: "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" قائلا إن هذا "تكرار مقصود به أن يثبت تماما فى الذهن أنه لا إيمان إلا بالعمل ومع العمل" . ويضيف العبد لله الفقير الذى هو أنا أن المراد، كما هو واضح، ليس أى عمل بل العمل الصالح. فالعمل غير المتقن، والعمل بلامبالاة، والعمل على الورق فقط، ليس عملا صالحا أبدا، إذ ليس المقصود التظاهر بالعمل بل تأدية العمل من قلوبنا فى تحمس وحب ورغبة فى التميز والتفوق.

كما أن العمل الصالح ليس هو الصلاة والزكاة والصيام والحج فحسب على أهمية ذلك وعدم اكتمال الإيمان بدونه، بل العمل الصالح هو كل عمل نافع لأنفسنا وأسرتنا ودولتنا ومواطنينا وأمتنا والبشرية جميعا، ومنه طلب العلم والتفانى فى ذلك، ومنه تنظيف بيوتنا وشوارعنا وتنظيمها وتجميلها، ومنه العمل على انتشار الهدوء والسكينة فى كل مكان بدل

الضجة التى تُصِمّ الآذان وتصيب الإنسان بالصداع وضيق الخلق من علو صوت المتكلمين وزمامير السيارات عمالا على بطال والكلام فى الحصص المدرسية والمحاضرات الجامعية، ومنه زراعة الفلاح أرضه، وتشغيل الصانع آلته، وسهر الجندى فى رباطه والشرطى فى حراسته، وعكوف الطالب على كتبه وأوراقه يقرأ ويفهم ويحفظ ويُعْمِل مخه وألا يتصور أبدا أن العلم هو مجرد حفظ المذكرات والملخصات، فهذه قد تساعده على الانتقال إلى صف أعلى، لكنها لا تعلمه شيئا، بل سرعان ما ينساها فور خروجه من لجنة الامتحان، وكأنك يا أبا زيد ما غَزَوْت.

ومن العمل الصالح المأمور به المسلم أَمْرًا العمل فى المهن والحرف المختلفة والاجتهاد فى إتقانها، فالملاحظ أن الحرفيين والصنايعية فى بلادنا للأسف لا يهتمون كثيرا بما يعملون، ويريد كثير منهم الحصول على أعلى أجر فى الوقت الذى يتفنن فى الحيف على العميل كأنه عدو مبين. ومن العمل الصالح عمل الموظفين فى الدواوين الحكومية، فإنهم إن أخلصوا فى عملهم ووضعوا نُصْبَ أعينهم الانتهاء من أداء مصالح العباد دون تأخير أو إبطاء وبقلب وضمير حى فالجنة مصيرهم، بخلاف من يؤخرون مصالح الناس ويهملونها إهمالا وينتظرون الرشاوى، فهؤلاء ينالهم غضب الله وعقابه وعذابه ما لم يرعووا ويتوبوا. ومن أولئك الموظفين الحكوميين أمناء المكتبات. أقول هذا متعمدا حتى يفهم أبناؤنا الطلاب أن العمل الصالح موجود فى كل مكان بما فى ذلك المكتبة، التى يكره الطلاب الحاليون بعامةٍ دخولها والاستعارة منها والقراءة فى كتبها وكأنها أفاعٍ ستلدغهم، جاهلين أن ذلك هو طريقهم إلى الفردوس والنعيم الذى أعده الله لأهل الفردوس من المتقين. إن الطالب الذى يستذكر دروسه ويتردد على مكتبة مدرسته وكليته ويقرأ ويجاهد فى طلب العلم ويستزيد دائما من المعرفة ويَحْضُر الدروس والمحاضرات وينصت ويفهم ويناقش ويتلذذ بالإنصات والفهم والمناقشة هو من المتقين بل من كبار المتقين.

وهذه نقطة أعمل دائما فى محاضراتى على التركيز عليها وإبرازها قائلا إن سبيل الجنة لكل صاحب صنعة أو عمل أو تخصص هو تأديته عمله وإتقانه له: يستوى فى ذلك الزارع والصانع والأستاذ والطالب والسائق والخادم والبواب والطبيب والزوج والزوجة والأبناء والممرض والحارس والشرطى والجندى والمدير والعميد وناظر المدرسة ورئيس الجامعة والوزير والخفير والبائع وموزع الصحف والمجلات وكناس الشارع وقارئ عدادات الكهرباء ومحصل فواتيرها ومنادى السيارات والقهوجى والحمال والعتال وشرطى المرور والسباك والنجار والحداد والخباز واللبان والبنَّاء والطَّبَّاع والكَوَّاء والميكانيكى والكهربائى والمحامى والقاضى والرئيس والملك. . . إلخ. كثير منا يصلى ويصوم، ولكن القليلين يهتمون بالعمل الصالح بالمعنى الحقيقى للعمل الصالح كما شرحته هنا . أقول هذا لنفسى وللآخرين، فكلنا معرضون للتقصير والإهمال، ولا أعفى نفسى أحيانا من ذلك.

ولهذا السبب انتشرت بيننا حكاية تقول إن أحد العلماء لما ذهب إلى أوربا وألفى الناس هناك يؤدون عملهم كما ينبغى، وألفى الشوارع نظيفة ومنظمة، والهدوء شاملا وعميما، وألفى الصدق واحترام الكلمة والميعاد منتشرا، وكل شخص يجتهد فى إتقان حرفته، قال: ذهبت إلى أوربا فوجدت إسلاما بلا مسلمين، وعدت إلى بلادى فوجدت مسلمين بلا إسلام. ورغم أن الناس مختلفون فى قائل تلك الكلمة العميقة فالمهم أننا جميعا نلاحظ هذا الفرق بين أوضاعنا وأوضاع الناس هناك.

وقد قرأت فى الأسابيع الأخيرة عددا من كتب الرحلات التى قام بها بعض العلماء والكتاب والموظفين الكبار من مصر وغير مصر من بلاد العرب إلى أوربا فى القرن التاسع عشر فألفيتهم يقفون بافتتان وغبطة إزاء النشاط والحيوية التى يتمتع بها الناس هناك، واهتمامهم المتولع بتشغيل عقولهم إبداعا واختراعا، وثمرة هذا كله من حياة مريحة جميلة وعيش كريم، فى

الوقت الذى نجد أنفسنا محرومين من ذلك. ومن هذا الوادى ما قاله د. مصطفى محمود من أن "العالَم الغربى والأوربى بما فيه من علم وعمل وفكر ونشاط دائب خلاق هو أقرب لجوهر الإسلام وجوهر القرآن من هذا الشرق الكسول المتخاذل الغارق لأذنيه فى الجهل المُزْرِى. علينا أن نفهم القرآن قبل أن ندعى أننا من أهل القرآن". وهو كلام ينبغى أن يكتب بماء الذهب.

وبمناسبة قوله، غفر الله له، إنه لا بد من فهم القرآن قبل الادعاء أننا من أهل القرآن أقول إن أغلبيتنا تكتفى بقراءة القرآن بلسانها غير مهتمة بفهمه وقراءة كتب تفسيره، والواحد منا يفاخر بأنه يختم القرآن كذا مرة فى رمضان مثلا دون أن يحرك القرآن عقله وقلبه وضميره. لماذا؟ لأنه يقرؤه بلسانه ليس إلا. ودائما ما أقول لطلابى، الذين أحبهم وأحب مصلحتهم لكنهم ينظرون إلى أمر المصلحة هذه بعيون مختلفة: ينبغى، عند شرائكم مصحفا، أن تشتروا مصحفا مفسرا يحتوى على أسباب النزول وشرح الكلمات والتعبيرات والتراكيب والصور التى تحتاج إلى شرح، وحجمه لا يزيد عن حجم المصحف العادى، حتى إذا لم تفهموا شيئًا أثناء القراءة نظرتم فى ذلك الشرح ففهمتم ما تقرأون. ولكن للأسف لا حياة لمن تنادى.

وإذا ما تركنا العلم والعمل وعدنا إلى الحلال والحرام نجد مصطفى محمود، فى بداية فصل "الحرام والحلال"، يؤكد أن "التحريم فى القرآن ليس لمجرد التحريم ولا التحليل لمجرد التحليل، وإنما هو تحليل لكل ما هو طيب، وتحريم لكل ما هو خبيث: "ويُحِلّ لهم الطيباتِ، ويحرّم عليهم الخبائث". الله حرّم الضار الخبيث، وأحل الطيب النافع. لم يصدر الأمر تسلطا ومعاقبة وتضييقا على الناس، وإنما أقام شريعته محبة ورحمة...". وهذا كلام جميل ورائع، ويمكن أن نضيف إليه أنه سبحانه لم يحرم علينا شيئًا إلا وعوضنا عنه بأشياء حلال: فعلى سبيل التمثيل حرم لحم الخنزير وأحل لنا لحوم البقر والجاموس والمعز والإبل والدواجن والأسماك... وحرم علينا الخمر، وأحل لنا ما لا يحصى من العصائر الحلوة الطيبة المعطرة بما فى ذلك العصائر التى

يحولها الناس إلى خمر، لكن حِلِّيَّتها تتوقف على ألا تتخمر وتُسْكِر. كذلك فكثير مما يضرنا فى هذه الدنيا يقوم ضرره على خروجه عن الحدود التى خطها الله لنا، وهو ما عبر عنه سبحانه فى سورة "الرحمن" مثلا بـ"الميزان": ففى مرض السكرى مثلا هناك مَدًى لَدُنْ قياسِ السكر فى الدم لا ينبغى أن يتعداه الشخص من الناحيتين: من ناحية انخفاضه ومن ناحية ارتفاعه، وبين هذين الحدين يستطيع أن يمارس حياته ويأكل ويشرب براحته. وقس على ذلك سائر الأمراض. ومن هنا نهانا الله عن الإسراف فى الطعام والشراب: "وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. إنه لا يحب المسرفين" كما جاء فى سورة "الأعراف".

ثم يمضى مفسرنا قائلا عقب ذلك عن مغزى أمر الله سبحانه لعباده مثلا فى سورة "النور" بغض الرجال البصر عن النساء وغض النساء البصر عن الرجال، بأن "النظر هو التعلق، والتعلق حبس، والعين إذا نظرت إلى الوجه الجميل سُجِنَتْ فيه وسَجَنَتْ معها نفسها. والله يريد لنا الحرية والانعتاق، ولا انعتاق إلا بأن نتجاوز المحسوسات الجميلة ناظرين إلى خالقها. وبهذا ترفعنا نظرتنا إلى مقام القرب والمعية مع الله، وهو مقام الحرية المطلقة".

وهذا كلام جميل الوقع على النفس رغم ما فيه من إطلاقات تحتاج إلى معاودة النظر والتفكير. فمثلا هل هناك حرية مطلقة للبشر؟ هذا مستحيل. بل إن الله سبحانه صاحب المشيئة المطلقة قد خلق العالم بقوانين، ولم يتركه فوضى. وكان يستطيع أن يجعله يدور كل لحظة على نظام مختلف. وعندئذ لا يستطيع أحد أن ينجز شيئا لأن الإنجاز فى حاجة إلى وضع مستقر ونظام مطرد حتى يمكننا فهم العالم من حولنا والتعامل معه على أساس واضح متين. وما من مخلوق حى، مهما كان نصيبه من الحرية، إلا وهو مقيد بأغلالٍ وكُبُولٍ لا أول لها ولا آخر، مع قدر من الحرية ضئيل، وإن كان هذا القدر الضئيل من الحرية قادرا على صنع المعجزات أو ما يشبه المعجزات، بالتعاون وبالتدريج والتطور وعلى مدار الزمن الطويل.

وهنا أود أن أشير إلى أن محمود محمد طه السودانى اتهم مصطفى محمود، فى فصل "مخير أم مسير؟" من كتابه المذكور، بالتناقض فيما يخص قضية التسيير والتخيير، إذ بينما يقول مصطفى محمود، فى فصل "مسيَّر أم مخيَّر؟" من كتابه: "فأنت تشاء، ولكن قدرتك على أن تشاء وتختار هى منحة من الله ومشيئة عليا . حريتك ذاتها منحة وعَطِيَّة ومشيئة إلهية. ومن هنا كانت الآية: "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله" هى تقرير للحقيقة، وليست كلاما متناقضا . فهى تقرر أنك حر، ولكن حريتك منحة وعطية وهبة ومشيئة من المعطى" . هذا ما قرره الدكتور. فإن كان الأمر كما قرر فهو يرى إذن التسيير لا التخيير لأن الذين يرون التسيير لا يرون أمرا غير هذا . هم يرون أنه ما دامت "حريتك منحة وعطية وهبة ومشيئة من المعطى" فأنت مسيَّر من المعطى إلى ما يريد هو، وإن ظهر لك وَهْمًا أنك تسير إلى ما تريد أنت" .

والواقع أنه لا تناقض هناك ولا يحزنون، فالمشيئة الإنسانية هبة وعطية ما فى ذلك شك، إذ كل ما فى الحياة هبة من الله سبحانه. إلا أنه عز وجل جعل للمشيئة الإنسانية استقلالا رغم أنها موهوبة معطاة. وهذا كمن يعطيك مبلغا من المال ويعطيك فى ذات الوقت الحق فى أن تنفقه على النحو الذى يروقك. ترى ما الصعوبة فى فهم هذا الأمر؟ إن الأمر جد واضح بل جد ساطع، وإلا فمن قال إن الشىء الموهوب لا يمكن ممارسته إلا بمشيئة الواهب لأن الشخص الموهوب له ذلك الشىء ليست له مشيئة. أإذا قال الواهب لإنسان ما: "إننى أعطيتك هذا المال لتنفقه فى الوجه الذى تشاء" يكون ردنا عليه: "إنك تكذب علينا وتحاول أن توهمنا بغير الحقيقة"؟

ويصر محمود محمد طه أن الإنسان مسير لا مخير، وأن شعورنا بأن لدينا حرية واختيارا وهم لا حقيقة له. ولكن كيف يكون وهما، والله سبحانه قد أسند فى القرآن إلى الإنسان مشيئة، وإن جعلها ضمن مشيئته، وهو ما أفهم منه أنها مشيئة موهوبة منه عز وجل، إلا أن

كونها موهوبة منه سبحانه لا يعنى أنها وهم؟ بهذا يقول لنا إحساسنا الفطرى. وبهذا يقول لنا الإسلام حين يخبرنا أننا سوف نحاسب على ما نفعل ونقول، وإلا كانت محاسبتنا على أقوالنا وأفعالنا ظلما، إذ نحاسَب على ما ليس لنا فيه يد ولا اختيار. كما أن القرآن يفرق بين المجبر والمختار فى الحساب، فيقول المولى عز شأنه فى أكثر من موضع من كتابه المجيد: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها". ولو كان الأمر شيئًا وحدا (أى وهما كما يزعم الكاتب السودانى) لما كان هناك تفريق بين حالة وحالة ما دام الأمر كله مرجعه إلى الإكراه. وهذا أمر من الوضوح بمكان مكين.

وهو يستشهد على دعواه بقوله تعالى: "هو الذى يسيِّركم فى البر والبحر"، متناسيا أو ناسيا أن التسيير معناه أنه خلقنا ووهبنا القدرة على الحركة والتفكير والتدبير والسير والانطلاق إلى أى مكان نريده وقيض لنا البر والبحر والقوانين التى تحكمهما وأعطانا العقل لنطوِّع هذا كله لنا ونستفيد منه ونصنع المراكب والسفن ووسائل المواصلات المختلفة، وإلا فلو كان الأمر تسييرا بالمعنى الفلسفى وإكراها وإجبارا مطلقا فلم كان الحساب؟ولم كان التمييز بين ما كان فى وسع الإنسان فهو محاسَب عليه وما كان خارج وسعه فالله غافره له؟

أما اعتماد محمود محمد طه على عقيدة "لا إله إلا الله" بوصفها أساسا للقول بالتسيير والجبرية فهو اعتماد فى غير محله. إنه لا إله إلا الله فعلا وحقا وصدقا، لكن هذا ليس معناه الجبر والإكراه بل معناه أن الخالق واحد هو الله، والواهب واحد هو الله، ومن أفاض علينا ذلك القدر المحدود من الحرية هو الله، ومن زودنا بالعقل والقدرة على الفهم والتنفيذ هو الله. إننا ما كنا لنكون لولا الله، وما كانت مشيئتنا لتكون لولا الله ولولا مشيئة الله. ثم نعود فنكرر أن الحرية الإنسانية ليست حرية مطلقة بل مقيدة: حرية، لكن حجمها ضئيل، ومع هذا فقد أنجزت هذه الحرية الضئيلة الحجم التى تمازجها الكُبول ما يشبه المعجزات.

ومن الكبول التى تقيدنا قانون الجاذبية الأرضية مثلا، فلو قفز أحدنا من النافذة لسقط على الأرض وانكسر أو مات حسب مدى علو النافذة ولم يمكنه، كائنا من كان، أن يبقى فى الجو عالقا دون هبوط أو أن يذهب يمينا أو يسارا، أو أن يصعد بدلا من النزول. هذا مستحيل رغم أننا جميعا نتمنى ألا نسقط إلى الأرض إذا ما قفزنا أو وقعنا من النوافذ والسطوح والطيارات. وهذا مجرد مثال. فكيف يقول مصطفى محمود رحمه الله إن من الممكن وصول الإنسان إلى مقام الحرية المطلقة. لا حرية مطلقة فى دنيا المخلوقات.

ثم إنه، غفر الله له ولنا، قد تحدث عن معية الله ووضع الأمر كأن هناك تعارضا بين التعلق بالمحسوسات الجميلة والنظر إلى الخالق. فهل إذا وقع بصرنا على زهرة جميلة شذية رقيقة فأمسكنا بها واستمتعنا بمنظرها وملمسها ورائحتها نكون قد انشغلنا بها عن الله سبحانه؟ وحين ينظر الواحد منا إلى زوجته فيجدها جميلة أنيقة تسره فهل يعد هذا انشغالا بالمخلوق عن الخالق؟ وحين يتطلع إلى أولاده أو أحفاده الصغار فتعجبه رقتهم وظرفهم وحلاوة طبعهم هل يعد هذا انصرافا من الخالق إلى المخلوق؟

بل سوف ننزل إلى درك الطعام والجوع، فهل إذا مر أحدنا، والجوع يستبد به ويكاد يفرى أمعاءه، بخباز وشم رائحة العيش وهو خارج من الفرن وسال ريقه وصاحت عصافير بطنه كما يقولون، هل يكون قد انشغل بالخبز عن الله؟ ولا داعى للحديث عن الخضراوات واللحوم والأسماك والدواجن والكنافة والبسبوسة والشيكولاتة والعصائر، فيكفينا الخبز عند خروجه من الفرن وقد فاحت رائحته التى تجنن. ولا ينبغى أن ننسى أن انشغالنا بهذا الخبز هو من عمل الله سبحانه، الذى خلقنا نجوع ونتألم بسبب الجوع وعندما نشم رائحة الطعام وهو ساخن نوشك أن نفقد عقولنا من شدة الجوع وتأثير رائحة الأرغفة الشهية، فكيف يقال إننا انشغلنا

عن الله؟ إننا بالعكس نمشى على الخطة التى وضعها الله لنا، خطة فرحة الجائع عند شم رائحة أى طعام خارج من الموقد حتى لو كان رغيف خبز.

وما أكثر الشعراء والناثرين الذين كتبوا عن تلك التجربة! وما أكثر الثورات فى التاريخ التى اندلعت بسبب الخبز والطعام! ولو افترضنا جدلا أن أحدا يمكنه أن يعلو فوق تلك الأحاسيس ولا يبالى بطعام أو شراب فلسوف يموت وينتهى أمره، فلا بمحسوس انشغل ولا بربه تعلَّق، لأنه قد انتهى أمره وصار ترابا. بل لقد أمرنا الله أمرا أن نأكل ونشربً ونستمتع بالأكل والشرب، والمهم ألا نسرف: "وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. إنه لا يحب المسرفين". ومَنَّ علينا بأنه خلق لنا ألوان الخضراوات واللحوم والفواكه. بل لقد جعل من مكافأتنا فى الجنة الطعام والشراب والنساء أيا كان الوضع الذى سيكون عليه كل ذلك. ثم إن الحياة مفعمة بالأشياء والأمور التى تشغلنا طول الوقت وتقسرنا على العكوف عليها والتفكير فيها وحل ما ينتج عنها من مشاكل، ولا يعد الانشغال بها انصرافا عن الله عز وجل، بل نحن مأجورون على ذلك وننال رضا الله بسببه. إن الله سبحانه يعيش فى عقولنا وقلوبنا، والإيمان به والحب له يحركنا دائما، ولكن دون أن نركز طوال الوقت على ذلك.

ويمكن ضرب المثل على ما نقول بكلامنا مع الآخرين وقيادتنا السيارات مثلا: فنحن حين نتكلم نتبع قواعد اللغة دون أن نقف عند كل كلمة لنرى كيف ننطقها أو كيف نعربها أو كيف نشتقّها أو كيف نُرَكِّبها مع زميلاتها لتكوين جمل وفقرات، فقد تشربنا هذا كله تشربا بحيث إنه صار قابعا بداخلنا يوجهنا دون أن نعى ذلك وعيا. وقل مثل ذلك عن قيادة السيارات أيضا. ولماذا نذهب بعيدا؟ ترى هل حين كان مصطفى محمود يكتب كتابه هذا كان منصرفا عما يكتب ويفكر فيه إلى النظر فى وجه الله؟ لو كان الأمر كما يفهم من كلامه لما استطاع أن يفكر فى موضوع كتابه ولا فى تأليف ذلك الكتاب.

كذلك لو كان الأمر كما يصوره د . مصطفى محمود لكنا جميعا مقصرين تقصيرا شديدا فى حق الله عز وجل. لكنه سبحانه وتعالى خلقنا على هذا المنوال ولم يكلفنا ما لا طاقة لنا به. والدنيا تلاهٍ كما يقال. ولعل الحديث التالى يوضح ما أريد أن أقوله. فعن حنظلة بن حذيم الحنفى قال: "لَقِيَنى أبو بكرٍ فقال: كيف أنت يا حنظلةُ؟ قال: قلت: نافَقَ حنظلةُ. قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال قلتُ: نكون عند رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُذكِّرنا بالنار والجنةِ حتى كأنا رأْى عَينٍ، فإذا خرجنا من عند رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عافَسْنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيْعاتِ، فنَسِينا كثيرًا . قال أبو بكرٍ: فوالله إنا لنَلْقَى مثل هذا . فانطلقتُ أنا وأبو بكرٍ حتى دخلْنا على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. قلتُ: نافق حنظلةُ يا رسولَ الله! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وما ذاك؟ قلتُ: يا رسولَ الله! نكون عندك تُذكِّرُنا بالنارِ والجنةِ حتى كأنا رأْى عَينٍ. فإذا خرجْنا من عندِك عافَسْنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيْعاتِ، فنسِينا كثيرًا . فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "والذى نفسى بيده إنكم لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذِّكرِ لصافحتْكم الملائكةُ على فُرُشِكم وفى طرِقِكم. ولكن، يا حنظلةُ، ساعةٌ وساعةٌ" ثلاثَ مراتٍ" .

إن البشر مشدودون إلى الدنيا بأمراس غلاظ لا فكاك منها . والغرائز التى أودعها الله فينا لم يودعها كى نقهرها ونتجاهلها ونتخلص منها بل لتدفعنا دفعا إلى العمل والإنتاج والتكاثر، والمهم ألا نرتكب الحرام. وإذا ما حدث هذا فلنتب إلى الله جل وعلا ونستأنف طريقنا مجتهدين بأقصى طاقاتنا ألا نقارف الإثم. . . وهكذا . ترى هل يمكننا أن نتجاهل صراخ بطوننا عند الجوع أو العطش فلا نأكل ولا نشرب؟ هل يمكننا أن نتجاهل غريزة الجنس أبد الآبدين؟ لا، بل المطلوب هو أن نعمل على إشباعها فى الحلال من خلال الزواج، وإلا توقفت الحياة على الأرض لأن الحياة لا تستمر دون التقاء الذكر بالأنثى. وهكذا فى بقية الغرائز

والشهوات. بل إن الفضول، الذى نظن أنه معيب على طول الخط، هو الذى يدفعنا إلى القراءة وإجراء التجارب العلمية والتأمل فى ملكوت الله كى نعرف ما كنا نجهله، وإلى بذل الضابط والمحقق النيابى جميع ما لديهما من جهد ومهارة ودهاء لمعرفة السارق أو القاتل، وإلى عكوف الناقد الأدبى على مخطوط مجهول المؤلف لمعرفة من هو من خلال أسلوب النص ومضمونه. . . وهلم جرا. وهو، كما ترى، عمل طيب. أما الفضول السيئ فهو التجسس على الآخرين وتضييع الوقت فى محاولة كشف الستر عن حيواتهم وفضح أسرارهم التى يحرصون على كتمانها، ودون أن يكون لهذا التجسس والتحسس سبب مشروع.

ومَعِيَّة الله تتحقق بأن تؤدى واجبك فى الحياة فتكون عضوا نافعا فى المجتمع وفى الإنسانية وأن تتجنب الحرام وتتحرى الحلال وتشغل وقتك بما يفيدك ويفيد من حولك من أعضاء أسرتك وأفراد مجتمعك ومن البشر جميعا، وأن تؤدى بطبيعة الحال واجبات العبادة والحمد والشكر له عز وجل وأن تعرف أن كل شىء فى هذه الحياة هو من صنعه جل وعلا، وليس معناها أن تنصرف عن هذا كله إلى وجهه الكريم. ودعنا الآن من قضية مشاهدة وجه الله سبحانه، وهو الموضوع الذى أثار ولا يزال يثير الجدل والخلاف بين علماء المسلمين على النحو التالى: ترى هل يمكن مشاهدة وجه الله؟ وإذا كان فهل يمكن أن يحدث هذا لنا هنا فى الدنيا وفى الآخرة جميعا؟ أم هل يقتصر على أهل الجنة فقط؟ أم تراه غير ممكن الحدوث لا هنا ولا هناك؟

ولو كان الأمر على ما يقول د. مصطفى محمود ما أمرنا الرسول عليه السلام أمرا بالنظر إلى من نريد الزواج بها، وبخاصة أن هذه النظرة ستؤدى إلى الحبس الذى يخشاه رحمه الله، وهو الحبس فى سجن الزوجية. عن المغيرة بن شعبة: "أَتيتُ النَّبى صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ فذَكَرتُ لَهُ امرأةً أخطبُها، فقالَ: اذْهب فانظر إليْها، فإنَّهُ أجدرُ أن يُؤْدمَ بينَكُما. فأتيتُ امرأةً

منَ الأنصارِ فخطبتُها إلى أبوَيْها وأخبرتُهما بقولِ النَّبى صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ، فَكأَّنَهما كرِها ذلِكَ. قال: فسمعتْ ذلِكَ المرأةُ وَهِى فى خِدْرِها فقالت: إن كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ أمرَكَ أن تنظرَ فانظُر، وإلا فأنشدُكَ. كأنَّها أعظَمت ذلِكَ. قالَ: فنظرتُ إليْها فتَزوَّجتُها. فذَكَرَ من موافقتِها". نعم لو كان الأمر كما يقول مصطفى محمود لقال الرسول للمغيرة بدلا من ذلك: إياك أن تنظر إليها، فإن نظرتك إليها ستؤدى بك إلى الحبس، وانظر إلى الله ليس غير.

كذلك فالحديث التالى يوضح ويؤيد ما أقول عن معنى معيّة الله جل شأنه، فعن أبى هريرة "إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدَمَ، مرِضتُ، فلم تعُدْني. قال: يا ربّ، كيف أَعُودُك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أمَا علمتَ أنَّ عبدى فلانًا مرِض، فلم تَعُدْه؟ أمَا علمتَ أنَّك لو عُدْتَه لوجدتنى عنده؟ يا ابنَ آدم، استطعمتُك، فلم تُطعِمْني. قال: يا ربّ، وكيف أُطعِمُك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنَّه استطعمك عبدى فلانٌ فلم تُطعِمْه؟ أمَا علمتَ أنَّك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندى؟ يا ابنَ آدَمَ، استسقيتُك فلم تَسْقِني. قال: يا ربّ، كيف أَسْقِيك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلانٌ، فلم تَسْقِه. أمَا إنَّك لو سَقَيْتَه وجدتَ ذلك عندى". فالله معنا فى حالة المرض وفى حالة الجوع والعطش، وفى كل الأحوال حلوة كانت أو مرة. وتكرَّر فى القرآن أن الله "مع" الصابرين.

وفى سورة "محمد": "والله معكم، ولن يَتِرَكم أعمالَكم". وفى سورة "الحديد": "وهو معكم أينما كنتم". وفى سورة "المجادلة": "ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعُهم، ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم، ولا أَدْنَى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أينما كانوا". وحتى حين نقاتل يكون جل وعلا معنا معيةً حميميةً حتى ليعذّب سبحانه المشركين المعتدين بأيدينا كما جاء فى سورة "التوبة": "قاتِلوهم يعذّبْهم الله بأيديكم". وفى صلح الحُدَيْبِيَة لم يكن مع المسلمين فحسب بل كانت "يد الله فوق أيديهم"، أى فوق أيدى الصحابة الكرام الذين عاهدوا الرسول على الثبات

معه ونصرته فى ذلك الظرف العصيب حين سرت شائعة بأن عثمان بن عفان، رسول رسول الله إلى قريش للتفاوض معهم، قد قُتِل.

ويمضى د. مصطفى محمود إلى الحديث عن غض البصر موسعا من معناه فيقول إن "غض البصر ليس فقط غض البصر عما يتعرى من الجسد، وإنما هو أيضا غض البصر عما فى أيدى الناس من مال ونعمة، وهو الحياء والترفع عن النزول بالنفس إلى مواطن الشهوة والحسد والحقد والغيرة". وهذا كلام جميل، فشهوات الإنسان كثيرة وليست الجنس فقط. وقد يكون نظر الحقد والحسد والغيرة أفظع من نظر الجنس، إذ كثيرا ما أدى الحقد بصاحبه إلى أن يقتل محسوده لا بعينه كما يُظَنّ، بل بيده من شدة الحقد والغيرة. وقد شاهدنا منذ سنوات بعيدة على التلفاز أخا كان قد قتل أخاه لا لشىء إلا لأن سيارة أخيه أحسن من سيارته. وقرأنا عن طالب الطب الذى قتل أستاذا قريبا له كان معارا إلى دولة خليجية وكان ينفق على تعليمه، ولم يكن سبب القتل سوى الحقد، فهو لا يطيق أن يكون قريبه أحسن منه رغم ما يكرمه به من مال لأجل تعليمه فى أحسن كليات الجامعة. ولم يكتف القاتل بهذا بل مزق جثة الأستاذ الكريم تمزيقا وأذابها بالأحماض. وما أكثر ما نسمع عن ضَرَّة قتلت ابن أو بنت ضَرَّتها لأنها عاقر ليس لها ولد أو بنت مثلها.

لقد كان يمكن هؤلاء أن يتخذوا من الشعور بالضيق لتفوق الآخرين عليهم سلما نحو الأعالى حتى يحرزوا ما أحرزوه، وإلا فليرض الإنسان بما قسم الله له، وبخاصة أنه لا يمكن أن يرضى أبدا بأن يكون مصيره القتل لو كان التفوق فى جانبه هو. ثم إن نقص الإنسان عن الآخرين ليس هو نهاية الدنيا. والحياة، بحمد الله، تمضى بالجميع: متفوقين ومتفوَّقا عليهم، ولكلٍّ نصيبُه من السعادة مهما كانت أحواله، والمهم أن يرضى وألا يترك نار الغل تحرق قلبه بل يعمل

على إطفائها، على الأقل: حتى يهدأ ويعيش فى سلام وسكينة وبدون معاناة، إذ إن نيران الحقد تعذب صاحبها تعذيبا ولا تتركه يسعد أبدا.

ومصطفى محمود حين يخلع على "غض البصر" هذا المعنى الجديد إنما يمشى، قصدا أو اتفاقا، على منوال النبى صلى الله عليه وسلم، الذى كان بين الحين والحين يسأل أصحابه عن معنى الشىء الفلانى، فيجيبونه بما هو معروف، فيقول لهم: لا بل هو كذا وكذا، معطيا الشىء معنى جديدا واسعا عميقا. فقد سأل صلى الله عليه وسلم أصحابه يوما: "أَتدرونَ مَنِ المُفلِسُ؟ قالوا: المُفلِسُ فينا يا رسولَ الله مَن لا دِرْهَمَ له ولا مَتاعَ. قال: المُفلِسُ مِن أُمَّتى يومَ القِيامةِ مَنْ يأتى بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتى قد شَتَمَ عِرْضَ هذا، وقذَفَ هذا، وأكَلَ مالَ هذا، وضرَبَ هذا، فيُقْعَدُ فيَقتَصُّ هذا مِن حَسناتِه، وهذا مِن حَسناتِه. فإنْ فنِيَتْ حَسناتُه قبلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خطاياهم، فطُرِحَ عليه، ثمَّ طُرِحَ فى النَّارِ". وقريب منه: "أتدرونَ مَنِ المُسلِمُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: مَن سلِم المُسلِمونَ مِن لسانِه ويدِه. قالوا: فمَنِ المُؤمِنُ؟ قال: مَنْ أَمِنه النَّاسُ على أنفسِهم وأموالِهم. قالوا: فمَنِ المُهاجرُ؟ قال: مَنْ هجَر السُّوءَ فاجتنَبه". "المهاجرُ مَنْ هجرَ ما نهى اللهُ عنه، والمجاهدُ مَنْ جاهدَ نفسَه فى ذاتِ الله". "أَتَدْرونَ مَنْ شُهَداءُ أُمَّتى؟ قالوا: قَتْلُ المُسْلِم شَهادةٌ. قال: إنَّ شُهَداءَ أُمَّتى إذنْ لَقليلٌ. قَتْلُ المُسلِمِ شَهادةٌ، والطاعونُ شَهادةٌ، والمَرأةُ يَقتُلُها وَلَدُها جُمْعًا". "أتدرون ما المعيشةُ الضَّنكةُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: عذابُ الكافرِ فى قبرِه". "ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعةِ. إنَّما الشَّديدُ الَّذى يملِكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ".

لكن د. مصطفى محمود، فى غمرة هذا الكلام، قد استشهد بآية قرآنية فى غير موضعها. وهذا راجع إلى إهماله النظر فى قصتها أو لامبالاته بتلك القصة. لقد كان، رحمه الله، يتكلم عن العقبة، عقبة عمل الخير، التى ينبغى أن يقتحمها الإنسان كى ينجو يوم القيامة،

قائلا إن الإنسان إذا نجح فى ذلك سَهُلَ عليه جدا عمل الخير، ثم استشهد فى هذا السياق بقوله عَزَّتْ قُدْرَتُه فى سورة "التوبة": "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة"، ثم شفعه بقوله سبحانه فى سورة "البقرة": "فاقتلوا أنفسكم. ذلكم خير لكم عند بارئكم"، وفسره قائلا: "بمعنى: فاهزموا أنفسكم وانتصروا عليها". وهذه الآية الأخيرة هى ما أريد التريث قليلا عندها.

كتب الشيخ رشيد رضا فى تفسير "المنار" عن هذه الآية: "تكلم الأستاذ الإمام فى التوبة وقال: إنها محو أثر الرغبة فى الذنب من لوح القلب، والباعث عليها هو شعور التائب بعظمة من عصاه وما له من السلطان عليه فى الحال، وكَوْن مصيره إليه فى المآل. لا جرم أن الشعور بهذا السلطان الإلهى بعد مقارفة الذنب يبعث فى قلب المؤمن الهيبة والخشية ويحدث فى روحه انفعالا مما فعل، وندما على صدوره عنه. ويزيد هذا الحال فى النفس تذكُّر الوعيد على ذلك الذنب وما رتّبه الله عليه من العقوبة فى الدنيا والآخرة. هذا أثر التوبة فى النفس، وهذا الأثر يزعج التائب إلى القيام بأعمال تضادّ ذلك الذنب الذى تاب منه وتمحو أثره السىء: "إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ" (هود/ ١١٤). فمن علامة التوبة النَّصُوح الإتيان بأعمال تشقّ على النفس، وما كانت لتأتيها لولا ذلك الشعور الذى يحدثه الذنب. وهذه العلامة لا تتخلف عن التوبة، سواء كان الذنب مع الله تعالى أو مع الناس. ألا ترى أن أهون ما يكون من إنسان يذنب مع آخر يباهى به أن يجىء معترفًا بالذنب معتذرًا عنه؟ وهذا ذلٌّ يشقّ على النفس لا محالة.

وقد أُمِر بنو إسرائيل بأشق الأعمال فى تحقيق التوبة من أكبر الذنوب، وهو الرغبة عن عبادة من خلقهم وبَرَأَهم إلى عبادة ما عملوا بأيديهم. وقد قال: "فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ" لينبههم إلى أن الإله الحقيقى هو الخالق البارىء ليتضمن الأمر الاحتجاج عليهم والبرهان على جهلهم. ذلك

العمل الذى أمرهم به موسى هو قتل أنفسهم. والقصة فى التوراة التى بين أيديهم إلى اليوم: دعا موسى إليه من يرجع إلى الرب، فأجابه بنو لاوى، فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضا، ففعلوا، وقتل فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف. وقال مفسرنا الجلال كغيره: إن الذين قتلوا سبعون ألفا. والقرآن لم يعيّن العدد، والعبرة المقصودة من القصة لا تتوقف على تعيينه، فنسكت عنه. كذا قال الأستاذ الإمام، وهذا مذهبه فى جميع مبهمات القرآن: يقف عند النص القطعى لا يتعدّاه، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواه".

وهذا هو النص الذى أومأ إليه الشيخ محمد عبده، وهو فى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر "الخروج"، أُورِدُه فى سياقه. والكلام فيه عن نزول موسى عليه السلام من فوق الجبل بعدما تلقى التوراة من ربه سبحانه، إذ عاد ليفاجأ بأن قومه يعبدون العجل، الذى يقول العهد القديم عنه زورا وبهتانا إن هارون هو الذى صنعه لبنى إسرائيل فى غياب موسى كى يعبدوه:
١٥فَانْصَرَفَ مُوسَى وَنَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَلَوْحَا الشَّهَادَةِ فِي يَدِهِ: لَوْحَانِ مَكْتُوبَانِ عَلَى جَانِبَيْهِمَا. مِنْ
هُنَا وَمِنْ هُنَا كَانَا مَكْتُوبَيْنِ. ١٦وَاللَّوْحَانِ هُمَا صَنْعَةُ اللهِ، وَالْكِتَابَةُ كِتَابَةُ اللهِ مَنْقُوشَةٌ عَلَى
اللَّوْحَيْنِ. ١٧وَسَمِعَ يَشُوعُ صَوْتَ الشَّعْبِ فِي هُتَافِهِ فَقَالَ لِمُوسَى: «صَوْتُ قِتَالٍ فِي الْمَحَلَّةِ».
١٨فَقَالَ: «لَيسَ صَوْتَ صِيَاحِ النُّصْرَةِ وَلاَ صَوْتَ صِيَاحِ الْكَسْرَةِ، بَلْ صَوْتَ غِنَاءٍ أَنَا سَامِعٌ».
١٩وَكَانَ عِنْدَمَا اقْتَرَبَ إِلَى الْمَحَلَّةِ أَنَّهُ أَبْصَرَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ، فَحَمِيَ غَضَبُ مُوسَى، وَطَرَحَ
اللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدَيْهِ وَكَسَّرَهُمَا فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ. ٢٠ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوا وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ،
وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِمًا، وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَسَقَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.
٢١وَقَالَ مُوسَى لِهَارُونَ: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ هذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيَّةً
عَظِيمَةً؟» ٢٢فَقَالَ هَارُونُ: «لاَ يَحْمَ غَضَبُ سَيِّدِي. أَنْتَ تَعْرِفُ الشَّعْبَ أَنَّهُ فِي شَرّ.
٢٣فَقَالُوا لِي: اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ،

لا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ. ٢٤فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ لَهُ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي. فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ هذَا الْعِجْلُ». ٢٥وَلَمَّا رَأَى مُوسَى الشَّعْبَ أَنَّهُ مُعَرًّى لأَنَّ هَارُونَ كَانَ قَدْ عَرَّاهُ لِلْهُزْءِ بَيْنَ مُقَاوِمِيهِ، ٢٦وَقَفَ مُوسَى فِي بَابِ الْمَحَلَّةِ، وَقَالَ: «مَنْ لِلرَّبِّ فَإِلَيَّ». فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمِيعُ بَنِي لاَوِي. ٢٧فَقَالَ لَهُمْ: «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَمُرُّوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ، وَاقْتُلُوا كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ». ٢٨فَفَعَلَ بَنُو لاَوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ رَجُلٍ. ٢٩وَقَالَ مُوسَى: «امْلأُوا أَيْدِيَكُمُ الْيَوْمَ لِلرَّبِّ، حَتَّى كُلُّ وَاحِدٍ بِابْنِهِ وَبِأَخِيهِ، فَيُعْطِيَكُمُ الْيَوْمَ بَرَكَةً».

٣٠وَكَانَ فِي الْغَدِ أَنَّ مُوسَى قَالَ لِلشَّعْبِ: «أَنْتُمْ قَدْ أَخْطَأْتُمْ خَطِيَّةً عَظِيمَةً، فَأَصْعَدُ الآنَ إِلَى الرَّبِّ لَعَلِّي أُكَفِّرُ خَطِيَّتَكُمْ». ٣١فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ، وَقَالَ: «آهِ، قَدْ أَخْطَأَ هذَا الشَّعْبُ خَطِيَّةً عَظِيمَةً وَصَنَعُوا لأَنْفُسِهِمْ آلِهَةً مِنْ ذَهَبٍ. ٣٢وَالآنَ إِنْ غَفَرْتَ خَطِيَّتَهُمْ، وَإِلاَّ فَامْحُنِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْتَ». ٣٣فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَنْ أَخْطَأَ إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي. ٣٤وَالآنَ اذْهَبِ اهْدِ الشَّعْبَ إِلَى حَيْثُ كَلَّمْتُكَ. هُوَذَا مَلاَكِي يَسِيرُ أَمَامَكَ. وَلكِنْ فِي يَوْمِ افْتِقَادِي أَفْتَقِدُ فِيهِمْ خَطِيَّتَهُمْ». ٣٥فَضَرَبَ الرَّبُّ الشَّعْبَ، لأَنَّهُمْ صَنَعُوا الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعَهُ هَارُونُ".

فهذه هى قصة الآية. أما ما قاله مصطفى محمود فى تفسيرها فهو بكلام الصوفية أشبه. فالمفسرون الصوفية يحبون بعد كل تفسير مباشر أن يأتوا بما يسمونه: "الإشارة"، وهى لىُّ رقبة الآية إلى معنى آخر رمزى مما هم مغرمون به من مخالفة الناس واتخاذ طريق غير طريقهم. قال ابن عجيبة مثلا فى تفسيره المسمى بـ"البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد": "الإشارة (يقصد الإشارة فى الآية المذكورة): ما قاله سيدنا موسى عليه السلام لقومه يقال مثله لمن عَبَد هواه،

وعكف على متابعة دنياه: يا مَنْ بخس نفسَه بإرخاء العِنَان فى متابعة هواها، حتى حرمها من مشاهدة جمال مولاها، تُبْ إلى ربك، وانتبه من غفلتك، واقتل نفسك بمخالفة هواها، فلعلها تحيا بمشاهدة مولاها، فما دامت النفس موجودة، وحظوظها لديها مشهودة، وآمالها ممدودة، كيف تطمع أن تدخل حضرة الله، وتتمتع بشهود جماله وسناه؟" . وقد كانت فى د. مصطفى محمود نزعة صوفية. و هذه النزعة موجودة عنده منذ ذلك الوقت المبكر حين كان ينقل خطواته الأولى فى طريق العودة إلى الإسلام من بيداء الشك والإنكار. وهى ليست مقصورة على هذا الموضع، بل توجد فى مواضع أخرى من الكتاب، مما أشرت إليه فى التعريف بهذا التفسير فى الفصل الأول من دراستى هذه.

وكان د. مصطفى محمود قد كتب فى أول الفصل الحالى من طبعة الكتاب الأولى عن غض البصر فى آيتى سورة "النور": "لو أخذنا الآية بظاهر حروفها دون أن يكون جوهر القضية واضحا فى الذهن فسوف نجد أن الحياة الطبيعية فى زمننا، زمن المينى جيب والديكولتيه والجابونيز والصدر العريان والشعر المرسل والباروكات الذهب، أمر صعب، والسير فى شارع مثل عماد الدين أو فؤاد أو سليمان باشا سيرا مطابقا لحروف الآية هو الأمر العسير. وهناك أكثر من نوع من النظر، فما هو نوع غض البصر المقصود؟ لا بد من العودة إلى جوهر التحريم لنفهم الآية. والله حرم الضار الخبيث. ومجرد إرسال النظر لا ضرر منه، ولكن الضرر فيما يجرى فى القلب والعقل نتيجة إمعان النظر الخبيث: أن تتخطف العقلَ والقلبَ الشهواتُ فيفقد الإ نسان هدفه وينسى وجهته ويتشتت ويأخذ سبيله وراء ظهر عريان وينشى المشوار الذى جاء من أجله. مثل هذا الإنسان فقد حريته، ولم تعد المسألة مسألة نظرة، وإنما أصبحت عبودية وذلا وتبعية وهبوطا من ذروة إنسانية إلى حالة أشبه بحالة كلب يتشمم، وإنسان لا يعرف لنفسه خلاصا من هاتين الساقين أو من هذا الظهر.

ها هنا قد وقع ضرر بالفعل، وها هنا يبدو معنى الآية: أن ينظر الإنسان بشهواته لا بعينيه. ولا ضرر فى إنسان تقوده عيناه فى طريقه، ولكن المهانة والضرر فى إنسان تقوده شهوته. ونحن قد نرى وجها فنهتف إعجابا: "الله"، ونقصد الخالق الذى صور وليس المخلوق، فلا تكون هذه النظرة حلالا فقط، وإنما تكتب لنا حسنة. وهى نظرة لا يقدر عليها إلا متصوف عابد يرى قدرة الله فى كل شىء، وإبداع صنع الله على وجه كل شىء: "وصَوَّركم فأَحْسَنَ صُوَرَكم" (غافر). وهو رجل قد غفل عن الخلق فلم يعد يرى إلا الخالق". والسبب الذى دفع مصطفى محمود إلى تغيير كلامه هذا إلى الكلام الموجود فى طبعة ١٩٧٧م هو هجوم بنت الشاطئ عليه فى فصل "القرآن الكريم بين الفهم والتفسير" من كتابها هجوما شديدا واتهامها إياه بأنه يفسد فى الدين إفسادا شنيعا بهذا الفهم الغريب.

ولدن تناوله حرمة الزنا نجده يتكلم عن مخالفة الزانيين لقانون الطبيعة، الذى جعل من الجنس والعاطفة أداة لتكاثر النوع بينما الزانيان يبغيان المتعة الجسدية ليس إلا. ثم يقول إنه لو كان كل منهما يحب الآخر لنَشَد العيش معه وتطلع إلى بناء بيت يقطنانه سويا مكونين أسرة ومنجبين أطفالا. فهكذا ينبغى أن يكون الحب، وإلا صارت العلاقة بينهما مجرد اشتعال شهوة وإطفائها. وكنت أود لو نبه إلى أن الحضارات السابقة التى انهارت كان من بين أسباب انهيارها خضوع الإنسان لشهواته، وبالذات الشهوة الجنسية، وهو ما ينشأ عنه الانحطاط والتفسخ والانحدار والانصراف عن معالى الأمور والإخلاد إلى الكسل. كما أن المؤمن لا يبحث عن تسويغ لممارسة الزنا بالقول بأنه هو وشريكته إنما يَنْشُدان المتعةَ ولا يؤذيان أحدا بعملهما هذا كما يقول د. مصطفى رحمه الله. ذلك أن الإيمان بالله يقتضى العُنُوَّ لشرع الله فلا يحوِّل المسلم الأمر إلى نقاش ومجادلات وكأنه لا يخاطب ربه بل واحدا مثله من البشر العاجزين الفانين.

وفى آخر الفصل يكتب مصطفى محمود ما يلى: "يقول الله فى حديث قدسى: عبدى، أطعنى أجعلك ربانيا: يدك يدى، ولسانك لسانى، وبصرك بصرى، وإرادتك إرادتى، ورغبتك رغبتى". وقد حاولت أن أعثر على ذلك الحديث، فلم يتيسر لى. لكننى وجدت فى فصل عنوانه "بعض القضايا الدالة على أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يحب عمه أبا طالب حبا شديدا" من كتاب "أبو طالب حامى الرسول" لنجم الدين العسكرى، وهو مؤلف شيعى، كلاما يشبه ذلك الحديث القدسى المدَّعَى، وهو موجود فى آخر النص المقتبس التالى: "قال المؤلف: وما يثبت رفيعَ مقام أبى طالب عليه السلام دعاءُ النبى صلى الله عليه وآله له بالشفاء، فشفاه الله ببركة دعائه صلى الله عليه وآله فورا. وقد خرَّج ذلك علماءُ أهل السنة وعلماءُ الإمامية عليهم الرحمة. وإليك ما أخرجه علماء الشافعية والحنفية، وهم جماعة منهم ابن حجر العسقلانى الشافعى المتوفَّى سنة ٨٥٢، فقد خَرَّج فى "الإصابة" (ج ٧ ص ١١٣) ما هذا نصه: بسنده عن أنس قال: مرض أبو طالب، فعاده النبى صلى الله عليه (وآله) وسلم، فقال: يا ابن أخى، ادع ربك الذى بعثك يعافيني. فقال صلى الله عليه وآله: اللهم اشف عمي. فقام أبو طالب عليه السلام كأنما نشط من عقال، فقال: يا ابن أخى، إن ربك ليطيعك. قال: وأنت، يا عَمَّاه، لئن أطعت الله لَيُطِيعَنَّك. ومنهم جلال الدين السيوطى الشافعى، فقد خرَّج هذه المعجزة فى كتابه: "الخصائص" (ج ١ ص ١٢٤) تحت عنوان "باب دعائه صلى الله عليه (وآله) وسلم لأبى طالب بالشفاء"، وقال: أخرج ابن عدى والبيهقى وأبو نعيم من طريق الهيثم بن حماد عن ثابت عن أنس أن أبا طالب مرض، فعاده النبى صلى الله عليه (وآله) وسلم فقال: يا ابن أخى، ادع ربك الذى تعبد أن يعافيني. فقال: اللهم اشف عمي. فقام أبو طالب كأنما نشط من عقال. قال: يا ابن أخى، إن ربك الذى تعبد ليطيعك. قال: وأنت يا عماه لئن أطعت الله ليطيعك ثم قال السيوطى: تفرد به الهيثم، وهو ضعيف.

قال المؤلف: لا يفوتنك التحريف والزيادة التى زادها جلال الدين فى حديثه، فإن الحديث الذى خرَّجه فى "الإصابة" خال من هذه الزيادة وهذا التحريف، إذ فيه "ادع ربك الذى بعثك"، وليس فيه "ادع ربك الذى تعبد". وإنما غير الحديث وزاد عليه كلمة "تعبد" لغاية معلومة يعرفها كل من طالع حياة أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وتاريخ حياة أمير الشام، وهى تحصيل رضا أمير الشام وسائر بنى أمية وأمثالهم. ولا يخفى أن جواب النبى لعمه عليه السلام جواب مهم عظيم. وقد ورد ذلك فى الكلمات القدسية، وهى الكلمات التى خوطب بها النبى صلى الله عليه وآله وسلم عندما عُرِج به إلى السماء. ومن جملتها ما كلمه الله بها بقدرته، وهو قوله تعالى عز وجل: "عبدى، أطعنى تكون مثلى (أو مثيلى): أقول للشئ: كن، فيكون، وتقول للشئ: كن، فيكون". فالنبى الأكرم بيَّن لعمه المكرم أنه إن أطاع الله يكن مثله فى أن الله يستجيب دعاءه". ومرة أخرى نقول إن الصوفية أيضا يرددون كلاما مثل هذا على طريقتهم فى التنفج فى الوقت الذى يدَّعون التقوى والحرص على تجنب الشهرة. وكنا، ونحن صغار، نحفظ هذا الحديث على النحو التالى: "عبدى، أطعنى أجعلك ربانيا تقول للشىء: كن، فيكون"، وكنا نؤمن بهذا الكلام إيمانا عميقا رغم أننا لم نكن نحقق معناه ولا كيف يتم هذا الذى جاء فيه. لقد كان إيمانا غامضا نردده دون تحقيق أو تدقيق.

وفى نهاية فصل "الحلال والحرام" يكتب د. مصطفى محمود ما يلى تعقيبا على قوله سبحانه: "يا أيها الذين آمنوا، اتقوا اللهَ وابتغوا إليه الوسيلة": "والوسيلة إلى الله هى العمل. ونبينا وقدوتنا محمد لم يكن مبلغا للآيات وحاملا للقرآن ومبشرا به فقط، وإنما كان أول العاملين... إنه رمز العمل الدائب، وهو دليل كل من يبتغى الوصول. ولا طريق إلى الله إلا على سلم الأعمال".

وفى تفسير الطبرى لـ"الوسيلة" نقرأ: "يعنى جلّ ثناؤه بذلك: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب وأوعد من العقاب، "اتَّقُوا اللّهَ" . يقول: أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم بالطاعة له فى ذلك، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من أعمالكم. "وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ" . يقول: واطلبوا القُرْبة إليه بالعمل بما يرضيه. و"الوسيلة" هى "الفَعِيلة"، من قول القائل: "توسلتُ إلى فلان بكذا" بمعنى "تقرّبت إليه" . ومنه قول عنترة:

إنَّ الرِّجالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ   إِنْ يأْخُذوكِ تَكَحَّلِى وتَخَضَّبِى

يعنى بـ"الوسيلة" القُرْبة. ومنه قول الآخر:

إذا غَفَلَ الوَاشُونَ عُدْنا لِوَصْلِنا   وَعادَ التَّصَافِى بَيْنَنا وَالوَسائِلُ

. . . يقول جلّ ثناؤه للمؤمنين به وبرسوله: وجاهدوا، أيها المؤمنون، أعدائى وأعداءكم فى سبيلي. يعنى: فى دينه وشريعته التى شرعها لعباده، وهى الإسلام. يقول: أتعبوا أنفسكم فى قتالهم وحَمْلهم على الدخول فى الحنيفية المسلمة".

وفى تفسير الطبرسى الاثنا عشرى: "لَمّا تَقدَّم ذكر القتل والمحاربين عَقَّب ذلك بالموعظة والأمر بالتقوى فقال: "يا أيها الذين آمنوا، اتقوا الله"، أى اتقوا معاصيه واجتنبوها . "وابتغوا إليه الوسيلة"، أى اطلبوا إليه القربة بالطاعات: عن الحسن ومجاهد وعطاء والسدى وغيرهم. فكأنه قال تقربوا إليه بما يرضيه من الطاعات. وقيل: الوسيلة أفضل درجات الجنة: عن عطاء أيضاً . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سَلُوا الله لى الوسيلة، فإنها درجة فى الجنة لا ينالها إلا عبد واحد، وأرجو أن أكون أنا هو" . وروى سعد بن طريف عن الأَصبغ بن نباتة عن على (ع) قال: فى الجنة لؤلؤتان إلى بُطْنان العرش: إحداهما بيضاء، والأخرى

صفراء . فى كل واحدة منهما سبعون ألف غرفة أبوابها وأكوابها من عرق واحدة. فالبيضاء الوسيلة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته، والصفراء لإبراهيم وأهل بيته" .

وفى "لطائف الإشارات" للقشيرى الصوفى: "ابتغاء الوسيلة: التبرّى عن الحول والقوة، والتحقق بشهود الطَّوْل والمِنَّة. ويقال: ابتغاء الوسيلة هو التقرب إليه بما سبق لك من إحسانه. ويقال: الوسيلة ما سبق لك من العناية القديمة. ويقال: الوسيلة اختياره لك بالجميل. ويقال: الوسيلة خلوص "العقد" عن الشك. ويقال: ابتغاء الوسيلة استدامة الصدق فى الولاء إلى آخر العمر. ويقال: ابتغاء الوسيلة تجريد الأعمال عن الرياء، وتجريد الأحوال عن الإعجاب، وتخليص النَّفْسِ عن الحظوظ".

ومن الواضح أن الطبرسى قد لوى معنى "الوسيلة" فى بعض شروحها بحيث تخدم عقيدة الشيعة فى أهل البيت الكرام. كما أورد بين شروحه أنها مَنْزِلة عند الله طلب منا رسول الله أن ندعو له بها . وأما القشيرى فقال كلاما صوفيا لذيذا يدغدغ المشاعر، لكن حصيلته إما غامضة أو ضئيلة ولا يظهر ارتباطها بسياق العبارة القرآنية الكريمة. وأرى أنها الأعمال الصالحة كلها دون استثناء كما أشار د . مصطفى محمود رحمه الله، على أن نفهم أن الأعمال تضم العلم والعبادة وجميع الإنجازات اليدوية والعقلية. ومبعث تفسيرى لها على هذا النحو أن الله سبحانه، فى هذه الآية، يأمرنا بابتغاء الوسيلة لأنفسنا تطلعا إلى الفلاح.

أما "الوسيلة" التى طلب الرسول الأكرم منا أن ندعو له بنَيْلِها فشىء آخر لا صلة بينه وبين الوسيلة هنا . وثم حديث آخر يبين لنا الأمر مزيدا من التبيين، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ قال حين يسمع النداء (أى الأذان): "اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودا الذى وعدته" حَلَّتْ له شفاعتى يوم

القيامة" . وقال رشيد رضا فى تفسير "المنار": "الوسيلة فى الحديث اسم لمنزلة فى الجنة معيّنة، وفى القرآن اسم لكل ما يُتَوَصَّل به إلى مرضاة الله من علم وعمل" .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد سألنى منذ أكثر من عقدين من الزمان عن الشفاعة شاب من قريتى كان معيدا بالأزهر وقتئذ، وكان هناك لغط وأخذ ورد حول الشفاعة يوم القيامة كالذى وقع بعد ذلك بفترة حين أنكر مصطفى محمود الشفاعة لأسباب رآها، فقلت له فيما قلت إن الشفاعة المحمدية غير مذكورة فى القرآن، على الأقل: غير مذكورة ذكرا صريحا (قلت هذا استباقا لما يمكن أن يعترض به من أن "الوسيلة" المذكورة فى سورة "المائدة" هى الشفاعة)، لكن الأحاديث تثبتها له صلى الله عليه وسلم، فضلا عن أن القرآن الكريم تحدث عن الشفاعة فى حد ذاتها مرارا . وأرى أننا لا ينبغى مع هذا أن نشغل أنفسنا بها هنا على الأرض بل نتعب ونجد ونجتهد ونعمل ونتقن حتى نستحقها فى الآخرة. وقلت له إن الله قد قدر أن يخرج عصاة المسلمين من النار بعد أن يَتَلَقَّوْا عقوبتَهم ولا يتركهم فيها إلى الأبد . أما دور الرسول فى هذا الأمر فهو أنه سبحانه وتعالى سيكرمه بأن يكون شفيعا لأولئك المساكين، وتُقْبَل شفاعته، التى قررها سلفا لهم، وقرر معها أن يكون رسولنا هو الشفيع.

وهو تقريبا ما وجدت مصطفى محمود يقوله فيما بعد فى فصل "التوسل" من كتابه: "من أسرار القرآن"، الذى بين يدىَّ فى اللحظة الراهنة إذ يقول: "والشفاعة الواردة فى القرآن لا ترفع حكما ولاتبدّل قضاء، وإنما هى مظهر تشريفى من مظاهر هذا القضاء ذاته. . . والشفاعة فى القرآن لا ترفع حكما ولا تبدل قضاء، وإنما هى مظهر تشريفى من مظاهر هذا القضاء ذاته. فالله فى سنته الأزلية إذا أراد لعبد خيرا يناوله هذا الخير بيد عبد مثله. . . وفى الآخرة سيناولنا الله البراءة والنجاة عن يد رسولنا الكريم، وذلك هو مقام الشفاعة العظمى، وذلك هو معناه. . . إنما يأذن الله لرسوله بالشفاعة لمن كتب لهم النجاة مسبقا فى كتابه،

وذلك من باب التشريف، ليكون الرسول هو مناول البراءة والرحمة لأتباعه يصلهم الخير العميم على يده، وذلك هو معنى الشفاعة. . . ومقام الشفاعة هو تشريف الرسول بأن يكون مناولا للفتح. من مشى على قدمه أخذ من يده، ولكن المعطى هو الله. والإذن بالشفاعة والعطاء من عند الله" . المضحك فى الأمر أنه، بعد نحو سنتين، سمعت من شاب آخر فى القرية خلال زورة لى إليها أن الشاب المعيد المذكور أشاع عنى أنى أنكر الشفاعة !

إعجاز القرآن

خصص مصطفى محمود فصلا من فصول كتابه الذى بين أيدينا لمناقشة قضية الإعجاز القرآنى بعنوان "لماذا إعجاز القرآن؟" . وفى هذا الفصل يذكر كاتبنا عددا من معجزات الكتاب المجيد، ومنها نبوءاته الصادقة، ضاربا على ذلك بعض الأمثلة كتنبؤ القرآن عقب هزيمة الروم أمام الفرس فى العهد النبوى المكى بأنهم سوف يغلبون الفرس فى بضع سنين، وهو ما وقع فعلا. ثم استطرد مصطفى محمود فأشار فى إجمال إلى آيات سورة "الإسراء" التى تقول: "وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب: لتُفْسِدُنّ فى الأرض مرتين ولَتَعْلُنَّ علوًّا كبيرًا * فإذا جاء وَعْدُ أُولاهما بَعَثْنا عليكم عِبَادًا لنا أُولِى بأسٍ شديدٍ فجاسُوا خلالَ الديار. وكان وعدا مفعولا * ثم رددنا لكم الكَرَّةَ عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنين، وجعلناكم أكثر نَفِيرًا * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها. فإذا جاء وعدُ الآخرة ليَسُوؤوا وجوهَكم وليدخلوا المسجدَ كما دخلوه أولَ مرةٍ ولِيُتَبّروا ما عَلَوْا تتبيرا * عسى ربُّكم أن يرحمكم. وإن عدتم عدنا، وجعلنا جهنمَ للكافرين حصيرا"، وهو ما عاد فعالجه بشىء من التفصيل فى كتابه الآخر: "إسرائيل: البداية والنهاية".

ويرى مصطفى محمود فى فصل "العلوّ الإسرائيلى ونهايته" من هذا الكتاب الأخير أن قوله تعالى فى أوائل سورة "الإسراء": "وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب... إلخ" يعنى ما حدث لليهود فى المدينة المنورة وحولها حين جاس المسلمون خلال ديارهم فى يثرب وخيبر وأخرجوا بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة والخيبريين من تلك الديار، وأن الله قد رد لليهود الكَرّة على المسلمين فى القرن العشرين فأنشأ لهم دولة على أرض فلسطين الإسلامية وأمدهم بأموال وبنين وجعلهم أكثر نفيرا، وأنهم رغم تنبيه الله لهم بأنهم إن أحسنوا فلأنفسهم، وإن

أساؤوا فعليها ، سوف يسيئون ولا يحسنون لأن هذه طبيعتهم لا يستطيعون تغييرها ، وسوف يدخل المسلمون بيت المقدس كما دخلوها أيام الفتح الأول فى عهد الفاروق عمر، ويتبّرون ما عَلَوْا تتبيرا . أى أن انتصارهم سيكون انتصارا ساحقا مدويا .

وهو يتساءل: متى تحدث المعركة التى ستشتعل بين اليهود والمسلمين؟ والجواب لديه هو أنها "لا بد أن تحدث فى السنوات القليلة القادمة فى أوج الانحياز الأمريكى وفى ولاية كلينتون وإدارته اليهودية وفى أوج التأييد الغربى وفى زخم الاحتشاد الصهيونى. ولا بد للقوى الصليبية أن تقتنص هذه الفرصة لهذا المناخ السياسى النادر الذى لن يتكرر فى زمنٍ سريع التحولات عنيف التقلبات. إن إيقاع الأحداث التاريخية يتسارع. والإمبراطورية الرومانية التى عُمّرَتْ أكثر من ألف عام تهاوت، ثم رأينا بعدها الإمبراطورية البريطانية تنتهى فى أقل من ذلك بكثير، ثم إمبراطورية نابليون فى عصر أقل، ثم الإمبراطورية الروسية فى سبعين عاما فقط. إن التاريخ أصبح يهرول، ولن تبقى أمريكا على القمة طويلا، ولا بد للقوى الصهيونية أن تقتنص الفرصة قبل أن تفوتها . لقد دخلت إسرائيل فى العلوّ الذى ذكره القرآن، والعلو الصغير صائر إلى العلو الكبير. ونحن بصدد المواجهة، والمعركة الكبرى على الأبواب. والسنوات القليلة القادمة هى المدى المحتمل لتلك المعركة، والألفية الثانية هى الميقات.

وفى التوراة وفى الإنجيل وفى رؤى القديسين إشارات إلى هذه المعركة الهائلة التى يسمونها: "معركة هرمجدّون" تجرى على أرض فلسطين، وأطرافها المسلمون والنصارى واليهود. ويتصور كل فريق أن المعركة سوف تنتهى لصالحه. ويقول اليهود إن المسيح سوف ينزل من السماء فى أعقاب هذه المعركة وإنه لن ينزل إلا إذا جرت دماء المسلمين أنهارا . وطائفة الإنجيليين فى أمريكا تدفع باليهود لإشعال الحرب لتتعجل نزول مسيحها . وكان رونالد ريجان، وهو من هذه الطائفة، يحلم بأن يكون هو الرجل المحظوظ الذى يشعل فتيل تلك المعركة. وكل

طرف يحلم بأن تتم التصفية الإلهية لحسابه. ويقول اليهود: إن القادم هو المسيح الحقيقى وإنه ملك اليهود، وإن ما جاء من قبل لم يكن هو المسيح. ولهذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه. وتظل هرمجدون أسطورة، ولكن لا شك أن الله يدفع بالأحداث إلى ذروة وأن الأرض حُبْلَى بالكوارث. والله وحده يعلم كيف تنتهى، ومتى، وأين ولحساب مَنْ".

وينفى مصطفى محمود أن يكون المقصود بالعِبَاد أولى البأس الشديد الذين يبعثهم الله فيجوسون خلال ديار اليهود هم بختنصر أو تيطوس كما ظن بعض المفسرين، إذ كان هؤلاء جبابرة ولم يكونوا عِبَادا، وهم لم يجوسوا خلال الديار بل سحقوا الديار ومحقوها ودمروها فى زمان السبى البابلى. وفى رأيه أن الآية "إنما تتحدث عما فعل عباد الله المسلمون فى غزوهم لخيبر، فهؤلاء هم الذين جاسوا خلال الديار: ديار خيبر وبنى النضير وقينقاع. . . إلخ، وكان انتصارا ولم يكن دمارا، وكان ذلك بعد معركة الخندق وما حدث فيها من تأليب اليهود لقبائل الجزيرة وجمعهم لكل العرب فى جيش واحد للقضاء على محمد عليه الصلاة والسلام ودعوته بضربة واحدة، وما حدث من خيانة اليهود لعهد الأمان الذى قطعوه مع الرسول وانضمامهم لصف أعدائه حينما التحم الجيشان. "وكان وعدا مفعولا". ثم يقول ربنا: "ثم رددنا لكم الكَرَّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا". وليس النفير هنا من "النفر"، وإنما من الصوت المدوى الذى يستنفر الناس، وهو النفير الإعلامى ووسائل الإعلام المتعددة من كتب ونشرات وصحف وإذاعة وتليفزيون ومحطات فضائية. وقد أعطى الله اليهود بسخاء كل هذه الوسائل، وأعطاهم القدرة على النفاذ إلى أصحاب القرار فى كل دولة والوصول إلى منابر الغرب وإثارتها.

وما فعلوه فى جولتهم الإفسادية الثانية هو عين ما فعلوه فى الإفسادة الأولى: تشويه الإسلام ووصمه بالإرهاب والدموية وتأليب الدول الغربية كلها وأمريكا وحشدها ضد الإسلام

كما فعلوا بقبائل الجزيرة قبيل غزوة الخندق. وهذه المرة أثاروها فتنة شعواء فى كل دولة وفى كل بؤرة مشتعلة من لبنان إلى أفغانستان إلى الصومال إلى البوسنة إلى كشمير إلى الجزائر إلى أواسط أفريقيا ومنطقة البحيرات وأعالى النيل سعيا بالفتن وإشعال الحروب فى كل مكان على اتساع القارات تمهيدا لمعركة فاصلة ومواجهة تقوم بها إسرائيل لإخضاع المنطقة العربية واقتلاع الإسلام من جذوره. والآيات تتحدث عن أيامنا وما يجرى فيها الآن حولنا وبين ظَهْرانَيْنا".

والواقع أن المفسرين القدماء عموما قد فهموا المرتين المذكورتين فى الآيات الكريمة على أنهما قد وقعتا، وانتهى الأمر. لكن لو كان الأمر كما فهموا فلم يا ترى يشير القرآن إليهما هنا ؟ كما أن قوله تعالى: "فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبّروا ما علوا تتبيرا * عسى ربكم أن يرحمكم. . ." يبين أن المرة الثانية لم تأت بعد، وإلا ما قال سبحانه: "عسى ربكم أن يرحمكم" بل كان المتوقع أن يذكر لنا هل رحمهم أو لا، بالضبط مثلما قيل عن المرة الأولى: "وكان وعدا مفعولا"، وهو ما تحقق فى عهد عمر بن الخطاب حين دخل المسلمون بيت المقدس وبَنَوُا المسجد الأقصى وصَلَّوْا فيه.

لكنى رغم ذلك لا أوافق د. مصطفى محمود على أن استعمال القرآن لكلمة "عبادا لنا" معناه بالضرورة أنهم عباد مؤمنون. فالبشر كلهم عباد الله: مؤمنهم وكافرهم، مطيعهم وعاصيهم، وديعهم ومتجبرهم. وقد كنت يوما من أنصار هذا التفسير، لكنى سرعان ما راجعت القرآن فوجدته يستخدم هذا اللفظ للكفار أيضا كما فى قوله عز شأنه فى سورة "النساء" على لسان الشيطان مشيرا إلى الكافرين: "لأتخذنَّ من عبادك نصيبا مفروضا"، وكما فى قول عيسى عليه السلام فى "المائدة" عمن اتخذه هو وأمه إلهين من دون الله: "إنْ تعذبْهم فإنهم عبادك"، وقوله عز شأنه فى "الكهف" عن الأوثان ذاتها: "أفحسِب الذين كفروا أنْ

يتخذوا عبادى من دونى أولياء؟"، وقوله تعالى فى "الفرقان" عن عبدة الأوثان: "ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول: أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل؟".

وكما رأينا فإن مصطفى محمود يفسر "النفير" فى الآيات الكريمة بالصوت المدوى الذى يستنفر الناس، أى النفير الإعلامى ووسائل الإعلام المتعددة من كتب ونشرات وصحف وإذاعة وتليفزيون ومحطات فضائية، مشيرا إلى أن الله أعطى اليهود بسخاء كل هذه الوسائل، وأعطاهم القدرة على النفاذ إلى أصحاب القرار فى كل دولة والوصول إلى منابر الغرب وإثارتها. لكن فاته أن لفظ "النفير" بمعنى "البوق" لم يكن قد عُرِف بعد، إذ "النفير" فى المعاجم القديمة هو الخروج للقتال، والقوم الذين ينفرون مع الشخص إلى الحرب أو فى الأمر الحازب، وأنصار الرجل وعشيرته. وما أكثر أنصار اليهود فى العصر الحديث، وبخاصة من الدول الغربية التى تقود قاطرة الحضارة الحديثة. ولا يصح أن نفسر القرآن حسب ما استجد من معان لألفاظه وعباراته، بل ينبغى أن نشرح تلك الكلمات فى سياقها التاريخى فلا نخلع عليها معنى لم يكن لها آنذاك مثلما لا يصح أن نفسر "السيارة" مثلا فى قوله تعالى من سورة "يوسف": "وجاءت سيارةٌ فأرسلوا وارِدَهم فأَدْلَى دَلْوَه. قال: يا بُشْرَى! هذا غلام" بأنها السيارة التى نركبها الآن وتدور بالبنزين والزيت، ناسين أن المقصود هو القافلة، أو أن نفسر "الذَّرَّة" بالجزء الصغير جدا من المادة الذى لا يُرَى بالعين المجردة، ويستخدم فى صنع القنابل الذرية، ويستعمل فى بعض ألوان العلاج الطبى، ناسين أن المراد هو النملة الصغيرة جدا، وإلا اضطرب فهمنا للقرآن وخلعنا عليه معانى غير صحيحة البتة.

كذلك لست مرتاحا إلى ما قاله مصطفى محمود رحمه الله من أن المرة الثانية التى توعد الله بها بنى إسرائيل سوف تقع فى غضون عدة أعوام من نشره فصول الكتاب قبل تجميعها وإصدارها فى كتاب عام ١٩٩٧م، وإلا فعلى أى دليل استند؟ وهل هناك مؤشرات تقول

بهذا؟ إننا نحن المسلمين فى أسوإ حالاتنا الآن: فنحن متشرذمون بل متعادون، وحكوماتنا فى أغلبها تابعة تبعية شبه مطلقة للدول الغربية، وهناك معاهدة سلام مع الصهاينة تكبل حركتنا ولا يمكننا الخروج عليها، وكثير من البلاد العربية والإسلامية تطبّع تباعا مع إسرائيل دون أن تكون هناك مصلحة تضطرها إلى هذا . ودولنا ضعيفة علميا واقتصاديا وعسكريا، وتعتمد فى سلاحها على الغرب، الذى يضمن سلامة إسرائيل ولا يمكن أن يسمح بضربها بَلْهَ إزالتَها من الوجود . كما أن إسرائيل دولة متقدمة علميا، ويعينها الأمريكان والأوربيون بالمال والسلاح والمساعدات اللوجستية. ثم أين الدلائل التى تشير إلى أن هناك تغييرا حاسما كهذا سوف يقع عما قريب؟ بل إن تديننا لهو تدين مغشوش يقف عند الشكليات والسطحيات ويبالغ فى الاهتمام بها وتقديرها ويهمل إهمالا مزعجا جوهر الإسلام وقيمه العليا مما كان يمكن أن يغير المعادلة التى تحكم الصراع بيننا وبين الصهاينة.

أما فى قوله تعالى من سورة "الحِجْر": "وأرسلنا الرياح لواقحَ فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه، وما أنتم له بخازنين" وتفسير مصطفى محمود للتلقيح، فى فصل "لماذا أعجازالقرآن؟" من كتابه: "القرآن- محاولة لفهم عصرى"، على أساس أن "الرياح الباردة تثير سحابا، وهى تدفع السحب المكهربة إلى لقاء بعضها بعضا: تلقى بالسحابة السالبةِ التكهربِ بين أذرع سحابة أخرى موجَبةِ التكهربِ، فيحدث البرق والرعد ويسقط المطر . وما أشبه ما يحدث بالتلقيح. فهى تلاقح بين السحب، فيكون برق ورعد ومطر . وينزل المطر على الأرض فيخصبها، وهو تلقيح من نوع آخر بين الماء والأرض. وتحمل الرياح حبوب اللقاح من زهرة لتلقى بها إلى مِبْيَض زهرة أخرى، فيكون تلقيح من نوع ثالث هذه المرة، تلقيح بالمعنى الحرفى للآية. فنحن أمام كلمة صادقة مجازا، وصادقة حرفيا، وعلى أى صورة قلبتَها تصدق معك. وهى بعد هذا كلمة جديدة وغريبة وصفة مبتكرة حينما توصف بها الرياح. وهى من الناحية

الجمالية الإيقاعية ذروة، وفى النطق عذبة: "وأرسلنا الرياح لواقح". تنطقها وتلوكها فى فمك، فتستوقف السمع وتُطْرِب الأذن. وكل هذا العلم التفصيلى فى تكهرب السحب وانتقال حبوب اللقاح لم يكن معلوما أيام نزول الآية.

وحمل المفسرون معنى الكلمة على أنه مجاز: فالرياح تثير السحاب وتسقط المطر على الأرض فتخصبها، فهى لواقح بالمعنى المجازى. ولكن العلم وضع أيدينا على كنوز البيان فى داخل هذه الكلمة، فإذا بالصدق فيها مجازى وحرفى وجزئى وكلى، وإذا بانتقائها فى موضعها معجزة من معجزات الإحكام والدقة فى البيان القرآنى".

فأما أن كلمة "لواقح" جديدة وغريبة وصفة مبتكرة حينما توصف بها الرياح فهو غير صحيح. يقول عبيد بن الأبرص، وهو شاعر جاهلى أى سابق على نزول القرآن، عن سحبٍ لواقح، أى مملوءة بالماء، شامَها ليلا:

أَرِقتُ لِضَوءِ بَرْقٍ فى نَشاصِ   تَلالا فى مُمَلاةٍ غِصاصِ
لَواقِحَ دُلَّحٍ بِالماءِ سُحْمٍ   تَثُجُّ الماءَ مِن خَلَلِ الخَصاصِ
سَحابٍ ذاتِ أَسْحَمَ مُكفَهِرٍّ   تُوَحّى الأَرضَ قَطْرًا ذا افْتِحاصِ

وفى "القاموس المحيط" بتصرف: "لَقِحَتِ الناقةُ لَقْحًا ولَقَحًا ولَقَاحًا: قَبِلَت اللّقاحَ، فهى "لاقِحٌ" من لواقِحَ، و"لَقُوحٌ" من لُقَّحٍ. لِقَاحُ: الإِبِلُ. لَقُوحُ: واحِدَةُ الإِبِلِ، والناقَةُ الحَلُوبُ، أو التى نُتِجَتْ. . . مَلاقِحُ: الفُحُولُ، جَمْعُ مُلْقِحٍ، والإناثُ التى فى بُطونِها أولادُها، جَمْعُ مُلْقَحَةٍ. مَلاَقِيحُ: الأُمَّهَاتُ، وما فى بُطونِها من الأَجِنَّةِ، أو ما فى ظُهورِ الجِمالِ الفُحولِ، جَمْعُ مَلْقوحَةٍ. أَلْقَحَتِ الرّياحُ الشَّجَرَ، فهى لَواقِحُ ومَلاَقِحُ. وحَرْبٌ لاقِحٌ على المَثَلِ".

ويقول عدى بن زيد عن إبله، وهو أيضا شاعر جاهلى:

مَن يَكُن ذا لُقَّحٍ راخِياتٍ   فَلِقَاحى ما تَذوقُ الشَعيرا

ويقول عنترة، وهو كذلك من شعراء الجاهلية:

وَلِلرُّغْيَانِ فِى لُقُحٍ ثَمَانٍ تُحَادِثُهُنَّ صَرًّا أَو غِرَارا
أَقَامَ عَلَى حَسِيسَتِهِنَّ حَتَّى لَقِحْنَ وَنَتَّجَ الأُخَرَ العِشَارا

ويقول سلامة بن جندل الشاعر الجاهلى مستعملا الكلمة مجازا، إذ يصف بها الحرب:

وَتَغِلبُ إِذ حَرْبُهَا لاقِحٌ تُشَبُّ وَتُسعَرُ نيرانُهَا

فتفسير الدكتور مصطفى محمود للآية سليم لأنها تقبل تلك التفسيرات الثلاثة كما هو واضح.

ومما تناوله مفسرنا فى فصل الإعجاز القرآنى أيضا ما لوحظ من تقديم القرآن فى آياته للسمع على البصر فيقول إن "القرآن يذكر السمع مُقَدَّمًا على البصر فى عديد من الآيات. وهى مسألة يعرف سرها علماء الفسيولوجيا والتشريح، فهم وحدهم يدركون أن جهاز السمع أرقى وأعقد وأرهف من جهاز الإبصار، ويمتاز عليه بإدراك المجردات كالموسيقى وإدراك التداخل مثل حلول عدة نغمات داخل بعضها بعضا مع القدرة على تمييز كل نغمة على انفراد كما تميز الأم صوت بكاء ابنها من بين زحام هائل من آلاف الأصوات المتداخلة. يتم هذا فى لحظة زمن. أما العين فهى تتوه فى زحام التفاصيل ولا تعثر على ضالتها. يتوه الابن عن عين أمه فى الزحام ولا يتوه عن سمعها. وموسى سمع كلام الله ولم يستطع أن يراه. والعلم يمدنا الآن بألف دليل على تفوق السمع على معجزة البصر. ولم يكن هذا العلم موجودا أيام نزل القرآن. ومع ذلك يذكر لنا القرآن السمع مقدما على البصر بطريقة ملفتة، وفى أكثر من سبعة عشر موضعا".

ولا أريد أن أدخل فيما قاله رحمة الله عليه، ولكنى ألفت الانتباه إلى جوانب أخرى فى المسألة: فالعين لا ترى إلا ما تواجهه بحيث لا تبصر ما على يمين الشخص أو يساره أو خلفه أو

فوقه أو تحته إلا إذا أدارها إلى كل ناحية من تلك النواحى، أما الأذن فتلتقط الأصوات من كل الاتجاهات دون أن يديرها صاحبها نحو كل جهة من تلك الجهات التى تأتى منها الأصوات. كما تلتقط الأذن الصوت حتى لو لم يكن مصدره موجودا فى نفس المكان الموجود فيه الشخص بخلاف العين، فإنها لا ترى ما ليس موجودا فى نفس المكان. وبالمثل تسمع الأذن الأصوات التى تأتى من خلف الجدران مثلا، أما العين فلا. . . وهكذا. فالأذن بطبيعتها حاسة بانورامية لا تحتاج إلى الدوران حتى تلتقط الأصوات التى تأتى من كل الجهات، أما العين فحاسة ضيقة المجال لا ترى إلا ما تواجهه، فإذا أرادت التقاط المبصرات من كل الجهات كان عليها أن تستدير وتتحرك لتكون مقابلة لكل جهة تريد أن تدرك المبصرات الموجودة فيها .

كذلك تناول مصطفى محمود فى الفصل ذاته مسألة بيت العنكبوت. كتب معلقا على قوله جل جلاله: "مَثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياءَ كمَثَلِ العنكبوت اتخذتْ بيتًا . وإنّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون": "الحقيقة الملفتة للنظر هى وصف بيت العنكبوت بأنه أَوْهَنُ البيوت. ولم يقل القرآن: خيط العنكبوت أو نسيج العنكبوت. وإنما قال: بيت العنكبوت. وهى مسألة لها دلالة، ولها سبب. والعلم كشف الآن بالقياس أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصُّلْب ثلاث مرات، وأقوى من خيط الحرير وأكثر منه مرونة" .

وقد عقبت د . بنت الشاطئ فى الفصل الأول من كتابها : "القرآن والتفسير العصرى" على هذا قائلة إنه "على هذا ا لتفسير العصرى لا يصلح بيت العنكبوت مضربا للمثل على الوهن لأنه ليس أهون من بيت الصلب أو من بيت الحرير الذى اتخذته دودة القز" . لكن مصطفى محمود مضى فقال: "الواقع أن هناك سرا بيولوجيا كشف العلم عنه فيما كشف لنا مؤخرا . فالحقيقة أن بيت العنكبوت هو أبعد البيوت عن صفة البيت بما يلزم البيت من أمان وسكينة وطمأنينة. فالعكنبوت الأنثى هى التى تبنى البيت وتغزل خيوطه، وهى الحاكمة

عليه، وهى تقتل ذكرها بعد أن يلقّحها وتأكله. والأبناء يأكل بعضهم بعضا بعد الخروج من البيض. ولهذا يعمد الذكر إلى الفرار بجلده بعد أن يلقح أنثاه ولا يحاول أن يضع قدمه فى بيتها . وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخا وكمينا ومقتلا لكل حشرة صغيرة تفكر فى أن تقترب منه. وكل من يدخل البيت من زوّار وضيوف يُقْتَل ويُلْتَهَم. إنه ليس بيتا إذن بل مذبحة يخيم عليها الخوف والتربص، وإنه لأوهن البيوت لمن يحاول أن يتخذ منه ملجأ . والوهن هنا كلمة عربية تعبر عن غاية الجهد والمشقة والمعاناة. وهذا شأن من يلجأ لغير الله ليتخذ منه معينا ونصيرا .

"مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون": ذروة فى التعبير وخفاء المعانى ومحكم الكلمات وأسرار العلوم مما كان معروفا أيام النبى وما لم يعرف إلا بعد موته بألف عام. إعجاز قطعى لا شك فيه يتحدى العقل أن يجد مصدرا لهذا العلم غير المصدر الإلهى" .

هذا ما قاله مصطفى محمود، وهذا ما قالته بنت الشاطئ. ولا شك أن كلام مفسرنا عن تفوق خيط العنكبوت على خيط الصلب المساوى له فى الرفع يسير فى اتجاه معاكس لما يقول القرآن. لكن الفهم المستقيم للآية يرينا كيف أنه، رحمه الله، قد أبعد النجعة، إذ المقصود هو أن البيت الذى تنسجه العنكبوت لنفسها بيت كله وهن، فبإصبعٍ واهنٍ يهدم الطفل ذلك البيت. نعم قد يكون خيط العنكبوت أقوى من خيط الصلب، لكن هذا الخيط يكون دائما خيطا غاية فى الرقة والنحافة، ومن ثم لا تكون له على هذا الوضع قوة ولا مقاومة تذكر . هذا عن بيت العنكبوت المادى المبنى من الخيوط المتشابكة، أما بيت العنكبوت الأسرى فقد رأينا ما قاله فيه مصطفى محمود . لكن هل قصد القرآن ذلك؟ قد يقول بعض الناس: لا لم يقصد . ويقول مصطفى محمود: بل يقصد . وقد يرى آخرون أن الآية لا ترفض هذا التفسير،

وإن لم يرد على الذهن للوهلة الأولى. لكن المراد بالصورة كلها هو أن العنكبوت تبنى بيتها لنفسها، ولم تبنه لذَكَرِها، ولهذا نرى القرآن قد أضافه إليها فقال: "بيت العنكبوت". ومع ذلك فهو بيت واهن لا يصمد لإصبع أى طفل عابث.

وفى تفسير الآيتين التاليتين من سورة "الطارق": "والسماءِ ذاتِ الرَّجْع * والأرضِ ذاتِ الصَّدْع" يقول مصطفى محمود: "يصف القرآن السماء فى الآية بأنها ترجع ما يصعد إليها: بخار الماء ترجعه إلينا مطرا. ونعلم الآن أن الأمواج اللاسلكية والتليفزيونية ترتد هى الأخرى من السماء إذا أُرْسِلَتْ إليها بسبب انعكاساتها على الطبقات العليا الأيونية. ولهذا نستطيع أن نلتقط إذاعات لندن وباريس وجميع المحطات من الأرض بعد انعكاسها، ونستمع إليها ونشاهدها. ولولا ذلك لضاعت وتشتت ولم نعثر عليها. فالسماء أشبه بمرآة عاكسة ترجع ما يبث إليها. فهى السماء "ذات الرَّجْع"، وهى أيضا تعكس الأشعة الحرارية تحت الحمراء فترجعها إلى الأرض لتدفئها. والأرض هى الأخرى "ذات الصَّدْع"، أى تنصدع ليخرج منها النبات ونافورات الغاز الطبيعى والبترول وينابيع المياه الكبريتية ونفث البراكين، وتتصدع مع كل هزة زالزالية".

والآن إلى الطبرى، وهو أكبر المفسرين القدماء، وهذا تفسيره للآيتين الكريمتين: "يقول تعالى ذكره: "وَالسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ": ترْجع بالغيوم وأرزاق العباد كلّ عام... عن ابن عباس فى قوله: "وَالسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ" قال: ذات السحاب فيه المطر... عن الحسن فى قوله: "وَالسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ" قال: ترجع بأرزاق الناس كلّ عام... عن قتادة قوله: "وَالسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ" قال: ترجع بأرزاق العباد كلّ عام. لولا ذلك هَلكوا وهلَكت مواشيهم... وقال آخرون: يعنى بذلك أن شمسها وقمرها يغيب ويطلُع... قال ابن زيد، فى قوله: "وَالسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ" قال: شمسها وقمرها ونجومها يأتين من ها هنا.

وقوله: وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ" يقول تعالى ذكره: والأرض ذات الصدع بالنبات. . . عن ابن عباس: "وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ" قال: ذات النبات. . . عن الحسن: "وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ" قال: هذه تصدع عما تحتها . . . وسُئِل عنها عكرمة، فقال: هذه تصدع عن الرزق. . . عن قتادة قوله: "وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ" تصدع عن الثمار وعن النبات، كما رأيتم. . . قال ابن زيد، فى قوله: "وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ"، وقرأ: "ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهِ حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا . . . إلى آخر الآية"، قال: صدعها للحرث".

أما محمد عبده، وهو من مفسرى العصر الحديث ومن ذوى الذهنية العصرية، فيقول فى تفسيره جزء "عَمَّ": "إن الله يُقْسِم بالأمر له مزية يعرفها المخاطب إعظاما لتلك المزية. لهذا قال: "والسماءِ ذاتِ الرَّجْع". "الرجع" فى لسان العرب هو الماء، وأمتع شىء ينتظره المخاطبون من السماء هو الماء، ماء المطر. ومن فسر "الرجع" بـ"المطر" لم يبعد عن المعنى. و"الصدع" النبات لأنه يصدع الأرض، أى يشقها. وأفضل ما تميل إليه الأنفس من الأرض نباتها".

ولنأخذ أيضا "تفسير الميزان" للطباطبائى: "المراد بكون السماء ذات رجع ما يظهر للحس من سيرها بطلوع الكواكب بعد غروبها، وغروبها بعد طلوعها. وقيل: رجعها إمطارها. والمراد بكون الأرض ذات صدع تصدُّعها وانشقاقها بالنبات. ومناسبة القَسَمَيْن لما أقسم عليه من الرجوع بعد الموت والخروج من القبور ظاهرة".

وأرى أن ما قاله كل من الطبرى ومحمد عبده والطباطبائى ومصطفى محمود صحيح وتتقبله الآيتان بكل أريحية، وإن كانت نظرة التفسير الذى قدمه مصطفى محمود، سواء كان من عندياته أو قرأه عند غيره، أرحب وأوسع أفقا وأنسب لثقافة العصر. ومن عبقرية القرآن أنه يقبل فى كل عصر تفسيرات تختلف عن تفسيرات العصور الأخرى، وكلها فى ذات الوقت

صحيحة، إذ القرآن قد صيغ صياغة عجيبة تقبل تلك التفسيرات المختلفة والصحيحة مع ذلك.

وفى الفصل الأول الموسوم بـ"المعمار القرآنى" يتحدث مصطفى محمود عن تحدى القرآن للمشركين أن يأتوا بمثله وعدم ردهم على ذلك التحدى بحيث بقى القرآن طوال تلك القرون المنصرمة منذ نزل من السماء دون أن يأتى بمثله أحد . وكلام مصطفى محمود فى ذلك الموضوع صحيح، فقد نزلت آيات التحدى تترى، ولم يستطع المشركون ولا اليهود ولا النصارى إزاء ذلك التحدى شيئًا . وكل ما قاله المشركون فى مكة هو ما جاء فى سورة "الأنفال": "قد سمعْنا . لو نشاء لقلنا مثل هذا" . ولكن لماذا لم يحاولوا أن يقولوا مثل القرآن ما دام الأمر سهلا إلى هذا المدى؟ وما الذى منعهم من الرد على هذه التهديدات المذلة المؤلمة، على الأقل لكى يريحوا أنفسهم ويشتروا دماغهم (بالتعبير المصرى) ويوقفوا محمدا عن التهكم بهم وتحقيرهم وتعييرهم بالعجز والفشل؟

ولقد قرأت ذات مرة لمبشر إنجليزى يزعم أن ما قاله مسيلمة الكذاب هو رد على ذلك التحدى. وهو زعم تافه ومتهافت، إذ أين قول مسيلمة مثلا: "يا ضفدع يا بنت ضفدعين. . ." وغيرها من أسجاعه الكهنوتية التالية التافهة من كلام القرآن العظيم وما فيه من قيم ومبادئ وحضارة وثقافة عالية؟ وأين المستجيبون له من خارج قبيلةِ مُلَفِّقِه؟ مع ملاحظة أن كثيرا جدا من أبناء تلك القبيلة لم يولوا تلك السخافات أى اهتمام وكفروا بها وبصاحبها وحاربوه وخلَّصوا العالم من شَرِّه وعُرِّه. وأين تصرفاته وأخلاقه من تصرفات الرسول الكريم وأخلاقه النبيلة؟ ثم إن عودة سجاح شريكته فى الردة والنبوة الكاذبة إلى الإسلام من جديد وإخلاصها فى الإيمان به لأكبر دليل على أن الموضوع كله كذب وتلفيق.

وهذه بعض أسجاع مسيلمة: "لا أقسم بهذا البلد، ولا تبرح هذا البلد، حتى تكون ذا مال و ولد، ووفر و صفد، وخيل و عدد، إلى آخر الأبد، على رغم من حسد"، "ضفدع بنت ضفدعين، نِقّى ما تنقين، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين، لا الشاربَ تمنعين ولا الماءَ تكدرين ولا الطينَ تفارقين. سجاح بنت الأكرمين، قومى ادخلى التيطون (القيطون)، فقد وضعنا عن قومك صلاة المعتمين. لنا نصف الارض و لقريش نصفها، ولكن قريشا قوم يعتدون. رحم الله من سمع، ومازال أمره فى كل ما شاء مجتمع، وأطمع فى الخير فطمع. أراكم الله محياكم، ومن رِجْزٍ خلاكم، و يوم القيامة نجاكم. علينا صلوات من معشر أبرار، لا أشقياء ولا فجار، يصلون الليل ويصومون النهار، لربهم الكُبّار، رب النور و الأمطار. و لما رأيت وجوههم حسنت، و أبشارهم صفت، وأيديهم انبسطت، النساءَ يأتون، و الخمرَ يشربون، أنتم معشر الابرار، سبحان ربى كيف يحيَوْن، و إلى رب السماء يرقَوْن، لو أنها حبة خردلة فى جندلة لقام عليها شهيد يعلم ما فى الصدور، أكثر الناس يومئذ المثبور"، "والمبذرات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فُضِّلْتم على أهل الوَبَر، وما سبقكم أهل المَدَر. ريفَكم فامنعوه، والمُعْتَرَّ فآوُوه، والباغِى فناوئوه"، "والليلِ الأطخم، والذئبِ الأدلم، والجَذَعِ الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم. والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس"، "الفيل ما الفيل؟ له ذَنَبٌ وبيل، ومِشْفَرٌ طويل، فإن ذلك من خلق ربنا لَقليل"، "إنا أعطيناك الجماهر، فخذ لنفسك وبادِرْ، واحذر أن تحرص أو تُكَاثِر"، "إنا أعطيناك الكواثر، فصل لربك وبادر، فى الليالى الغوادر" . . .

وفى العصر العباسى زعم بعضٌ أن ابن المقفع وأبا العلاء المعرى قد عارضا القرآن. لكنى بحثت هذه القضية بتفصيل شديد فلم أجد فيها ما يستحق التصديق. ويجد القارئ

بحثى عن ابن المقفع فى كتابى: "دراسات فى اللغة والأدب والدين"، وبحثى عن المعرى فى كتابى الآخر: "تاريخ الأدب العربى– العصر العباسى" .

أما فى العصر الحالى فقد ظهر فى أوائل هذا القرن ما يسمى بـ"الفرقان الحق" . وقد ادعى فيه ملفقوه أنه كتاب سماوى. وهو مشحون بالسفالات والبذاءات والشتائم العارية من كل ضرب ولون، مما لا يمكن أن تسيغه أية نفس فيها أثارة من الإنسانية والكرامة، وما لا يمكن أن يكون مصدره السماء . فالسفاهة والبذاءة والسباب المنحط لا يمكن أن ينزل من عند الله. كما أنهم يقتبسون فيه كثيرا من عبارات القرآن المجيد وأسماء سوره بنصها . وهذه ليست معارضة بل سرقة. علاوة على أن دعواهم بأن هذا الفرقان آت من السماء يبطل المشروع كله من أساسه، إذ هم يؤمنون أنه بعد عيسى لا يكون نبى أبدا . ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل فى الكتاب أخطاء لغوية شنيعة. وإلى جانب ذلك لم يتقدم أحد فيقول إنه هو النبى الذى نزل عليه ذلك الوحى. وهذه أول مرة يقال إن كتابا نزل من السماء دون أن يظهر له صاحب. فهل رأى أحد شيئًا مثل هذا ؟ الواقع أن هذا لا يحدث إلا حين يكون هناك ما يدعو إلى الخجل والشعور بالعار كما تفعل فتاة حملت وولدت من الحرام. وقد فندتُ هذا الكتاب الملفق فى كتاب لى متاح على موقع "الفور شيرد" وغيره عنوانه: "الفرقان الحق– فضيحة العصر– قرآن أمريكى ملفق" .

ثم يتحدث الدكتور مصطفى محمود عن وقع القرآن على العرب الجاهليين فيقول: "ولهذا وقعت العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية، الذين عشقوا الفصاحة والبلاغة، وقع الصاعقة. ولم يكن مستغربا من جاهلى مثل الوليد بن المغيرة عاش ومات على كفره أن يذهل وألا يستطيع أن يكتم إعجابه بالقرآن برغم كفره فيقول، وقد اعتبره من كلام محمد : "والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثْمِر، وإن أسفله لَمُغْدِق، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه" .

ولما طلبوا منه أن يسبه قال: "قولوا: ساحر جاء بقولٍ يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته" . إنه السحر حتى على لسان العدو الذى يبحث عن كلمة يسبه بها" .

لكن لو كان وقع القرآن على الجاهليين وقع الصاعقة كما يقول مصطفى محمود أفكانوا يسخرون منه ومن الرسول الذى جاء به ويتهمونه بأنه كذاب وساحر وكاهن ومجنون ويضطهدونه ويحاربونه ولا يستسلمون إلا بعدما فرغت جعبتهم من كل ألوان التشويش والتشويه، وانتهى أمرهم تماما إلى الفشل التام؟ لو كان وقعه عليهم كالصاعقة لبُهِتوا وانهاروا وسلموا بالثلاثة واستسلموا . لقد وصفهم القرآن بأنهم قومٌ لُدٌّ خَصِمون. واللدد فى الخصومة والجدال لا يكون لو كان القرآن قد وقع عليهم وقوع الصواعق. بل لقد استمروا على موقفهم المتمرد العنيد نحو عشرين عاما منذ مجىء الرسول الكريم برسالة السماء ودعوته إياهم إلى الإيمان إلى أن فُتِحَت مكة وتيقنوا أن انتصارهم على الإسلام هو عشم إبليس فى الجنة، فألَقَوْا بمقادتهم وأعلنوا هزيمتهم وصاروا يدخلون فى الإسلام حتى اعتنقوه فى نهاية المطاف على بَكْرَة أبيهم .

ثم يقول: "إذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول فالسبب هو التعود والألفة والمعايشة منذ الطفولة، والبلادة والإغراق فى عامية مبتذلة أبعدتنا عن أصول لغتنا . ثم أسلوب الأداء الرتيب الممل الذى نسمعه من مرتلين محترفين يكرون السورة من أولها إلى آخرها بنبرة واحدة لا يختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح من موقف الوعيد من موقف البشرى من موقف العبرة. نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعانى وتتسطح العبارات. وبالمثل بعض المشايخ ممن يقرأ القرآن على سبيل اللعلعة دون أن ينبض شىء فى قلبه. ثم المناسبات الكثيرة التى يُقْرَأ القرآن فيها روتينيا . ثم الحياة العصرية التى تعددت فيها المشاغل وتوزع الانتباه وتحجر القلب وتعقدت النفوس وصدأت الأرواح. وبرغم هذا كله فإن

لحظة صفاء ينزع الواحد فيها نفسه من هذه البيئة اللزجة ويرتدّ فيها طفلا بِكْرًا وترتدّ له نفسه على شفافيتها كفيلة بأن تعيد إليه ذلك الطعم الفريد والنكهة المذهلة والإيقاع المطرب الجميل فى القرآن، وكفيلة بأن توقفه مذهولا من جديد بعد قرابة ألف وأربعمائة سنة من نزول هذه الآيات وكأنها تنزل عليه لساعتها وتَوِّها".

وهذا يذكرنا بما كتبه مالك بن نبى فى بداية كتابه: "الظاهرة القرآنية": "والحق أنه لا يوجد مسلم، وخاصة فى البلاد غير العربية، يمكنه أن يوازن موضوعيا بين آية قرآنية وفقرة موزونة أو مقفَّاة من أدب العصر الجاهلى. فمنذ وقت طويل لم نعد نملك فى أذواقنا عبقرية اللغة العربية ليمكننا أن نستنبط من موازنة أدبية عادلة حكيمة. ومنذ وقت طويل أيضا تكتفى عقائدنا فى هذا الباب بالتقليد الذى لا يتفق وعقول المتعلقين بالموضوعية". ولعلى لا أخرج عن الموضوع إذا ما أشرت هنا إلى كتابى الموضوعى فى المقارنة بين أسلوبى القرآن المجيد والحديث الشريف: "القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية"، وهو الكتاب الذى يبين بالنصوص والإحصاءات من هذين المصدرين الكريمين أن أسلوبيهما ومصدريهما مختلفان تمام الاختلاف.

أما سيد قطب فى مقدمة كتابه: "التصوير الفنى فى القرآن" فيتحدث عن وقع آيات القرآن على نفسه فى سذاجة حلوة ضاعت مع تقدمه فى العلم وقراءته كتب التفسير، ثم عادت إليه متعمقة مفسَّرة حين عكف بعد ذلك على القرآن وحده بعيدا عن كتب التفسير. وفى هذا التطور الذى مر به فى فهم القرآن وتذوقه يقول: "وعدتُ إلى القرآن أقرؤه فى المصحف لا فى كتب التفسير، وعدت أجد قرآنى الجميل المحبب، وأجد صورى المشوّقة اللذيذة. إنها ليست فى سذاجتها التى كانت هناك. لقد تغير فهمى لها، فعدت الآن أجد مراميها وأغراضها، وأعرف أنها مثل يضْرَب لا حادثٌ يقع. الحمد لله! لقد وجدت القرآن. . . وحين انتهيت من التحضير للبحث وجدتنى أشهد فى نفسى مولد القرآن من

جديد . لقد وجدته كما لم أعهده من قبل أبدا . لقد كان القرآن جميلا فى نفسى، نعم، ولكن جماله كان أجزاء وتفاريق. أما اليوم فهو عندى جملة موحدة تقوم على قاعدة خاصة، قاعدة فيها من التناسق العجيب ما لم أكن أحلم من قَبْلُ به وما لا أظن أحدا تصوَّرَه" .

وقد مررت بشىء مثل هذا فى خطه العام، فقد كنت رغم ارتباطى دائما أبدا فى العقود الأخيرة بالقرآن الكريم إنما أرتبط به دراسة لا ترتيلا حتى شحب فى ذهنى. ثم عدت بأخرة فصرت أفتح المصحف وأنا أصلى وأركز على ما أقرأ، فإذا بوجه من وجوه القرآن لم أكن اطلعت عليه قبلا يسفر لى وأجد فيه أشياء كثيرة لم أكن ألتفت إليها عادة، وتنبهت إلى تراكيب وعبارات ومسائل لغوية وبلاغية لم تظهر لى من قبل، وتلألأت لعينى وبصيرتى نقاط فى العقيدة والأخلاق لم تكن واضحة بهذا السطوع فى عقلى. والسبب هو أننى لم أعد أرتله ترتيلا سريعا كما كنت أصنع وأنا صغير، بل أصبحت أعكف عليه بتؤدة وهدوء ساعدانى كثيرا على التركيز والتعمق، ومن ثم اصطياد اللآلئ النفيسة من بحره الواسع العميق. لقد انتقلت من الرغبة فى قراءة أكبر قدر ممكن من المصحف إلى مرحلة التركيز والتعمق والتوقف أمام ما يحتاج إلى توقف وتركيز وتعمق. وهذا يتفق مع بعض ما قاله د . مصطفى محمود على الأقل فى الفقرة السابقة.

ومما قاله مصطفى محمود أيضا فى الفصل الحالى عن القرآن الكريم: "ثم هو يصحح بعض تفاصيل التوراة. ففى رواية التوراة لقصة يوسف يقول النص إن إخوة يوسف استخدموا فى سفرهم الحمير . والقرآن يروى أنهم استخدموا العِير، وهى الإبل. والحمار حيوان حضرى عاجز عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكى يجىء من فلسطين إلى مصر. وحكاية العير هى حكاية أدق وأصدق: ألم يلعن أرميا "أقلام النساخ الكاذبة" ؟" .

وقد سبق مالكُ بن نبى إلى تناول هذا الموضوع وقول هذا الكلام. وهذا نص ما قاله فى نهاية فصل "العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس" من كتابه: "الظاهرة القرآنية": "وفى رواية التوراة استخدام إخوة يوسف فى سفرهم "حميرا" بدل "العِير" فى رواية القرآن على حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم فى وادى النيل بعدما صاروا حضريين، إذ الحمار حيوان حضرى عاجز فى كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكى يجىء من فلسطين. وفضلا عن ذلك فإن ذرية إبراهيم ويوسف كانوا يعيشون فى حالة الرعاة الرُّحَّل، رعاة المواشى والأغنام". وفى الفصل المذكور من كتاب الفيلسوف الجزائرى كلام آخر كثير فى المقارنة بين العهد القديم والقرآن الكريم فى قصة يوسف.

وهناك تصحيحات قرآنية كثيرة لما ورد فى الكتاب المقدس: منها مثلا أن الله فى الكتاب المقدس بعدما خلق الكون فى ستة أيام استراح فى اليوم السابع، أما القرآن فيقول على لسان المولى العظيم فى سورة "ق": "ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام، وما مَسَّنا من لُغُوب" نافيا أن يكون عز شأنه قد لحقه أىّ لغوب، أى تعب وإرهاق. وفى قصة نوح نراه يشرب الخمر حتى يسكر وينطرح على الأرض عارى السوأة ويراه على هذه الحال المخزية ابنه، وليس شىء من هذا فى القرآن لا عنه ولا عن أى نبى آخر بل كلهم قد صورهم القرآن فى صور كريمة نبيلة تليق بأنبياء الله ورسله. كذلك نرى إبراهيم يخفى أن سارة زوجته زاعما لأبيمالك أنها أخته، إذ شعر أن هذا الملك يريد أن يأخذها لنفسه، فخَشِىَ إن قال إنها زوجته أن يقتله حتى يضمها إليه. وفى المقابل أهداه الملك قطعانا من المواشى من أجل حصوله على سارة، التى تخلى عنها بكل أريحية. ولولا أن الملك رأى فى المنام أنها أخت إبراهيم لكانت فضيحة. وعبثا تبحث عن شىء من ذلك فى القرآن فلا تجد لأن إبراهيم

رسول من لدن رب العالمين، ورب العالمين لا يمكن أن يختار إنسانا ساقط الهمة والمروءة ويجعله رسولا يدعو إلى الله وإلى الخلق العالى الكريم.

ولدينا أيضا لوط، الذى سقته كل من ابنتيه خمرا حتى غاب عن الوعى، ونامت معه وحملت منه. وهو أمر عجيب لا يمكن أن يترك الله أحد أنبيائه الكرام يقع فيه حتى لو كان غير واع ولا قاصد. وهناك يعقوب، الذى يشتبك مع الله ليلا فى الخلاء فى مصارعة يمسك فيها بالله مسكة لا يمكنه التفلص منها إلا بتوجيه ضربة قوية إلى حُقِّ فخذ يعقوب، الذى انشغل بمعالجة ألم الضربة، وإلا ما استطاع الله أن يفك نفسه من قبضته الحديدية. وموسى فى الكتاب المقدس يقتل المصرى عن عمد لا على سبيل الخطإ حسبما وضح القرآن الكريم. وهارون أخو موسى يصنع العجل لبنى إسرائيل ليعبدوه أيام غياب موسى فوق الجبل فى لقاء ربه. وهذا سلوك غير متصور من نبى من أنبياء الله جاء برسالة التوحيد، إذ كيف يصنع أصناما لقومه كى يعبدوها ؟ أما فى القرآن فصانع العجل هو السامرى. ولدينا أيضا داود، الذى رأى من فوق سطح قصره، وهو يتلصص على الجيران، امرأة جاره وقائده العسكرى المخلص وهى تستحم فى فناء بيتها عارية كما ولدتها أمها، فيرسل فى استدعائها ويزنى بها، ثم لا يكتفى بهذا بل يتآمر على قتل الزوج حتى يخلو له وجه المرأة، ويتم له بالفعل ما أراد وخطط من مؤامرة دنيئة لئيمة. وسوف تكون هذه المرأة الزانية أم ابنه سليمان لاحقا، الذى ينسب له الكتاب المقدس الزواج من وثنيات عصياناً ومحادَّةً لأمر ربه له ولقومه، ثم يزيد على ذلك فيصنع لهن أوثانا فى بيته ليعبدنها. فهل هذا سلوك أنبياء الله؟ وليس فى القرآن شىء من هذا بتاتا . . . ونكتفى بهذا، وهناك الكثير فى الكتاب المقدس على هذه الشاكلة.

أما أن محمدا لم يكن يعلم ما فى كتب اليهود والنصارى فهذا أمر يقينى، إذ كان عليه السلام أميا، ولم يشاهده أحد وفى يده كتاب قط. كما أن الكتاب المقدس لم يكن قد ترجم إلى

العربية أوانذاك. وإذا كان قد جاء فى رواية أن ورقة بن نوفل قد كتب من الإنجيل بالعربية فهناك رواية أخرى تقول إنه كتب ما كتب منها بالعبرية. والرواية فى الحالتين تقول إنه ترجم من الإنجيل بعض الأشياء لا كلها، وأغلب الظن أنها أدعية وما إلى ذلك. ثم إن لغة الإنجيل لم تكن عبرية بل آرامية. كما أن الإسلام شىء آخر يختلف عن النصرانية اختلافا جذريا بما فى ذلك الموضوعات المشتركة التى للإسلام نسخته منها المخالفة لما عند النصارى كما نعلم. وفى كل الحالات ينبغى أن نكون على ذكر من أن ورقة قد أعلن إيمانه بمحمد ووعده أنه إن مُدَّ فى أجله فسوف يقف معه وينصره ضد مضطهديه من مشركى قومه. ولو كان لدن ورقة أية ثَبْأَة من الشك فى محمد ما أعلن إيمانه به ولا وعده بالنصرة، ولكان بدلا من هذا قد قرَّعه وعنَّفه على كذبه ودعواه الباطلة.

وبالمثل قد دخل فى دين محمد أولئك الحرفيون الأعاجم الذين ادعى المشركون المكيون أنهم هم من يعلِّمون محمدا، غير متنبهين لسخف دعايتهم، إذ إن أولئك الصناع لم يكونوا يستطيعون الحديث بالعربية إلا مكسرة وفى أبسط الموضوعات مما يتصل بحِرَفهم اتصالا مباشرا سطحيا، ومن ثم لا يمكنهم أن يشرحوا دينهم أو يقصوا على محمد ما فى كتبهم. وبنفس الطريقة نقول هنا أيضا إن هؤلاء الأرقّاء لو كانوا قد عَلَّمُوا محمدا شيئا ما سارعوا إلى الإيمان به، وإلا لكانوا مثلا فى الغباء والبلاهة والتناقض. وهذا ينسحب على الحنفاء، الذين يزعم بعض المستشرقين والمبشرين بأنهم هم أساتذة محمد. فقد آمن به منهم من أدرك بعثته عليه السلام، أما من مات قبل ذلك فقد أسلم أهل بيته غير مبطئين ولا متلجلجين. ولم يحدث أن قال أى من هؤلاء إنه قد عَلَّم محمدا شيئا. وقد كانوا طوال الوقت تحت بصر قريش، فلماذا يا ترى لم توجَّه إليهم السؤال وتطلب شهادتهم بدلا من إطلاق الشائعات والتهم دون تبصر أو حكمة؟ أَليس هذا ما يقضى به العقل والمنطق؟

المعمار القرآنى

خصص مصطفى محمود فصلا كاملا من كتابه للمعمار القرآنى. يقصد بنيته اللغوية والأدبية. وهأنذا أخصص بدورى فصلا من كتابى هذا لمناقشة ما قاله د. مصطفى رحمه الله فى هذه القضية. وباسم الله أبدأ فأقول: لا توجد فى معاجمنا العربية القديمة كـ"لسان العرب" و"تاج العروس" مثلا كلمة "معمار". وهذا أمر غريب، إذ الملاحظ أن هذه الكلمة ترد فى النصوص القديمة كثيرا بمعنى "البَنَّاء" و"مهندس المبانى" و"المشرف على البنائين": فمثلا يقول ياقوت الحموى فى ترجمة الحسين بن عبد الله بن أحمد بـ"معجم الأدباء": "ولما تكامل البناء عمل دعوةً حضرها الأمير محمود بن نصرٍ، فلما رأى حُسْن الدار وقرأ الأبيات المتقدمة قال: يا أبا الفتح، كم صرفتَ على بناء الدار؟ قال: يا مولاى، هذا الرجل تولى عمارتها، ولا أدرى كم صرف عليها. فسأل المعمار، فقال: غرم عليها ألفا دينارٍ مصريةٍ"، وهو ما نقرؤه أيضا فى "بغية الطلب فى تاريخ حلب" لابن العديم.

ويقول الذهبى فى "تاريخ الإسلام" لَدُنْ ترجمته لثابت بن مشرَّف: "ثابت بن مشرَّف بن أبى سعد ثابت. . . البناء المعمار المعروف بابن شِسْتا". وفى أحداث سنة ٤٨٩هـ يقول ابن الأثير فى كتابه: "الكامل فى التاريخ": "وفيها توفى الأمير منظور بن عمارة الحسينى أمير المدينة، على ساكنها السلام، وقام ولده مقامه. وهو من ولد المهنا. وقد كان قتل المعمار الذى أنفذه مجد الملك البلاسانى لعمارة القبة التى على قبر الحسن بن على والعباس رضى الله عنهما". ويقول المقريزى فى "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" عن أحمد بن طولون: "وقيل عن أحمد بن طولون إنه كان لا يعبث بشىء قط، فاتفق أنه أخذ دَرْجًا أبيض بيده

وأخرجه ومَدَّه، واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فُطِن به وأُخِذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته، فطلب المعمارَ على الجامع وقال: تبنى المنارة التى للتأذين هكذا. فبنيت على تلك الصورة".

ويقول بهاء الدين العاملى فى "الكشكول" نقلا عن بعض الكتب: "إن المعمار إذا طرح نقش عمارة فربما كان الأحسن لتلك العمارة من حيث الكل أن يكون بعض أطرافه مبرزاً، والبعض الآخر مجلسًا، والبعض الآخر مطبخاً، بحيث لو غير هذا الوضع لاختل حسن مجموع العمارة". ويقول البابانى فى "هدية العارفين" فى ترجمة سنان، وهو من أشهر مهندسى البناء فى تاريخ الإسلام: "المعمار سنان: سنان بن عبد المنان القيرى الرومى المعمار الشهير المتوفى سنة ٩٥٨ ثمان وخمسين وتسعمائة. له "تذكرة الأبنية"- تركى". ويقول رينهارت دوزى فى "تكملة المعاجم العربية" فى مادة "شيب": "شَيَّب- شيَّب المعمارُ الحجرَ: كسر حرفه وسطَّحه. وهو من اصطلاح البنائين"... إلخ.

أما فى المعاجم الحديثة فترد الكلمة المذكورة فى بعضها بمعنى "البَنَّاء" كما فى معجم "الرائد" لجبران مسعود ومعجم "الغنى"، وكذلك فى "قاموس المعانى" (عربى- عربى) و"قاموس المعانى (عربى- إنجليزى)، الذى يترجمها بالإضافة إلى هذا بمعنى "مهندس المبانى ومقاولها"، وفى بعضها الآخر بمعنى "البِنَاء" ذاته أو أسلوب تصميم البِنَاء كما فى "قاموس المعانى الجامع"، الذى يشرحها بقوله: "بناءٌ وتشييدٌ وما يَتعلّق بهما من مهن مكمّلة لهما كالطّلاء والزّخرفة والدّيكورات ونحوها: عمَّال المِعمَار- طراز معيَّن من البناء يتميّز بسمات محدّدة: تُعَدّ قُبَّة الصَّخرة تحفة من تحف المِعْمار الإسلامى"، وهو ما نجده أيضا فى "معجم اللغة العربية المعاصر"، الذى لا يكتفى فى استعماله بمجال البناء والتشييد بل يتوسع فى هذا الاستعمال حتى ليستخدمه فى مجال الأدب أيضا شارحا إياه على النحو التالى: "المعمار: بناء وتشييد وما يَتعلّق بهما من مهن مكمّلة لهما كالطّلاء والزّخرفة والدّيكورات ونحوها: عمَّال

المِعمَار، هو من أكبر مهندسى المِعْمار فى العالم- طراز معيَّن من البناء يتميّز بسمات محدّدة: تُعَدّ قُبَّة الصَّخرة تحفة من تحف المِعْمار الإسلامى، مِعْمار إغريقيّ/ أوربّيّ- المعمار الرِّوائيّ/ المعمار القصصى: (آداب) البناء الفَنّى للرواية أو القصّة" .

وأذكر أنه، فى الوقت الذى وضع فيه د . مصطفى محمود فصول كتابه الموجود فى أيدينا، كانت كلمة "المعمار" بمعنى "بنية العمل الأدبى" منتشرة بين النقاد والأدباء، وإن كنت أذكر الآن أن بعض الكتاب قد استنكر رغم ذلك استعمالها فى هذا المعنى، داعيا إلى أن يقتصر إطلاقها على "مهندس المبانى" وما أشبه. أما أين قرأت ذلك ولمن فلست أستطيع التذكر. وواضح أننا الآن لم نعد نستخدم الكلمة فى مجال الأدب بل نقول بدلا من هذا: "بنية العمل الأدبى/ بناؤه" . وواضح أيضا أن مصطفى محمود قد أطلقها وفى ذهنه هذا المعنى الأخير.

قال رحمه الله: "كان أول لقاء لى مع القرآن وأنا فى الرابعة من العمر طفلا أجلس فى صف بين عدة صفوف فى كتاب الشيخ محمود أحملق فى بلاهة إلى سبورة وإلى مؤشّر يتحرك فى يد الشيخ على كلمات منقوشة بالطباشير وهو يتلو: "والضُّحَى * والليلِ إذا سَجَى"، فنردد خلفه فى آلية: "والضحى * والليل إذا سجى"، لا نفهم من الكلام حرفا ولا نَعْلَم ما الضحى ولا كيف سجى. ولكننا نردد مجرد مقاطع ومخارج حروف.

وكان عقلى آنذاك صفحة بيضاء نقية لم يكتب عليها شىء، ولم تلق تأثيرا تربويا خاصا، فقد نشأت فى أسرة كل فرد فيها متروك لحاله: يحب ما يحب، ويكره ما يكره، ويلعب حتى يشبع لعبا . وأذكر أنى رسبت فى السنة الأولى ثلاث سنوات دون أن أتلقى تعنيفا . وكان الصفر بالقلم الأحمر يزين كل صفحة من كراساتى مرة بعد مرة فلا يثير إلا الضحك. وكانوا إذا سألونى: ماذا أخذتَ اليوم؟ كنت أقول اختصارا للمهزلة وحتى لا أعود

إلى شرح حكاية الصفر اليومى التى أصبحت بالنسبة لى مملة، كنت أقول: زى العادة. كانوا يضحكون. هكذا كانت تجرى الأمور فى بيتنا: لا إرغام على مذاكرة ولا قهر على تدين، وإنما لكلٍّ حياته، وعلى كلٍّ تبعته. لم نعرف غسيل المخ الذى عرفه كثير من الأطفال فى أسر متزمتة تحشر العلم والدين حشرا فى عقول أطفالها بالكرباج والعصا.

كنت إذن أتلقى أول عبارة من القرآن بذهن أبيض تماما ودون تأثير مسبق مثلما أتلقى دروس الحساب والجغرافيا والإنشاء. وكما بهرتنى حكاية الكرة الأرضية المدورة والقارات كالجزر سابحة فيها، وكما بهرتنى حكاية القمر يدور حول الأرض، والأرض حول الشمس، والكل معلق فى السماء، كذلك فعل بى القرآن شيئًا. وأَحَارُ فى وصف الشعور الذى تلقيت به أول عبارة من القرآن، ولا أجد الكلمات لتشرح هذا النوع من الاستقبال النفسى الغامض، وكيف كانت الكلمات تعود من تلقاء نفسها فتراود سمعى وذاكرتى وأنا وحدى، فأرانى أردد بلا صوت: "والضحى * والليل إذا سجى". وتقتحم على العبارةُ القرآنيةُ سكونَ طفولتى، فأتذكر فى ظلام الليل إلقاء الشيخ وهو يردد: "وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى". تسعى العبارة إلى خيالى وكأنها مخلوق حى مستقل له حياته الخاصة. وقطعا أنا لم أكن أعلم ما الضحى ولا كيف سجى الليل ولا من هو الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى. ولعل المقاطع كانت تتردد فى سمعى أشبه بمقاطع سلم موسيقى: صول لا سى دو رى مى فا . مجرد حروف لا معنى لها ولا وقع سوى مدلولها الموسيقي. مجرد نغم ومازورات موسيقية وإيقاع يُطْرِب الوجدان. نعم، لقد اكتشفت منذ تلك الطفولة البعيدة دون أن أدرى حكاية الموسيقى الداخلية الباطنة فى العبارة القرآنية.

وهذا سر من أعمق الأسرار فى التركيب القرآني. إنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالكلام المسجوع، وإنما هو معمار خاص من الألفاظ صُفَّتْ بطريقة تكشف عن الموسيقى الباطنة

فيها. وفرق كبير بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة. وكمَثَلٍ نأخذ بيتا لشاعر مثل عمر بن أبى ربيعة اشتهر بالموسيقى فى شعره، البيت الذى يُنْشِد فيه:

قـال لى صاحبـى ليعلـم ما بـى: أتحـب القَتُـول أختَ الربابِ؟

أنت تسمع وتطرب وتهتز على الموسيقى، ولكن الموسيقى هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام فى أشطار متساوية ثم تقفيل كل عبارة تقفيلا واحدا على الباء الممدودة. الموسيقى تصل إلى أذنك من خارج العبارة، وليس من داخلها . من التقفيلات (القافية ومن البحر والوزن) . أما حينما تتلو: "وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إذَا سَجَى" فأنت أمام شطرة واحدة. وهى بالتالى تخلو من التقفية والوزن والتشطير، ومع ذلك فالموسيقى تقطر من كل حرف فيها . من أين؟ وكيف؟ هذه هى الموسيقى الداخلية. الموسيقى الباطنة. سر من أسرار المعمار القرآنى لا يشاركه فيه أى تركيب أدبي. وكذلك حينما تقول: "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى"، وحينما تتلو كلمات زكريا لربه: "قَالَ: رَبِّ إنِّى وَهنَ الْعَظْمُ مِنّى، وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا، ولَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيا" أو كلمة الله لموسى:"إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى" أو كلمته تعالى وهو يتوعد المجرمين: "إنَّه مَن يَأْتِ رَبَّه مُجْرِمًا فَإنَّ لَه جَهَنَّمَ لا يمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى"، كل عبارة بنيان موسيقى قائم بذاته تنبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها بطريقة محيرة لا تدرى كيف تتم. وحينما يروى القرآن حكاية موسى بذلك الأسلوب السيمفونى المذهل: "وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيهم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَه وَمَا هدَى" . كلمات فى غاية الرقة مثل "يبسًا" أو "لا تخاف دركا" بمعنى "لا تخاف إدراكا".

إن الكلمات تذوب فى يد خالقها وتصطف وتتراص فى معمار ورصف موسيقى فريد هو نسيجُ وَحْدِهِ بين كل ما كتب بالعربية سابقا ولاحقا. لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلى ولا بينه وبين الشعر والنثر المتأخر، ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التاريخ برغم كثرة الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن. فى كل هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماما، وكأنها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير سوى أن لها مصدرا آخر غير ما نعرف. اسمع هذا الإيقاع المنغم الجميل: "رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِينذِرَ يوْمَ التَّلاقِ"، "فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى. يخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى"، "فَالِقُ الإِصْبَاحِ، وَجَعَلَ الليلَ سَكَنًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا"، "يعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْينِ وَمَا تخْفِى الصُّدُورُ"، "لا تُدْرِكُه الأَبصَارُ، وَهوَ يدْرِكُ الأَبصَارَ"، "وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىء عِلْمًا"، ثم هذه العبارة الجديدة فى تكوينها وصياغتها، العميقة فى معناها ودلالتها على العجز عن إدراك كنه الخالق: "عَالِمُ الْغيبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَال"، "يجَادِلُونَ فِى اللّه، وَهوَ شَدِيدُ الْمِحَال"، ثم هذا الاستطراد فى وصف القدرة الإلهية: "وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغيبِ لاَ يعْلَمُها إلا هوَ، وَيعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلا يعْلَمُها وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يابِسٍ إلا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ".

ولكن الموسيقى الباطنية ليست هى كل ما انفردت به العبارة القرآنية، وإنما مع الموسيقى صفة أخرى هى الجلال. وفى العبارة البسيطة المقتضبة التى روى بها الله نهاية قصة الطوفان تستطيع أن تلمس ذلك الشىء الهائل الجليل فى الألفاظ: "وَقِيلَ: يَا أَرْضُ، ابْلَعِى مَاءكِ، وَيَا سَمَاءُ، أَقْلِعِي. وَغِيضَ الْمَاء، وَقُضِى الأَمْرُ". تلك اللمسات الهائلة. كل لفظ له ثِقَل الجبال ووَقْع الرُّعُود. تنزل فإذا كل شىء صمت، سكون، هدوء، وقد كفت الطبيعة عن الغضب ووصلت القصة إلى ختامها: "وَقِيلَ: يَا أَرْضُ، ابْلَعِى مَاءكِ، وَيَا سَمَاء، أَقْلِعِي. وَغِيضَ الْمَاء،

وَقُضِى الأَمْرُ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِى، وَقِيلَ: بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ!" . إنك لتشعر بشىء غير بشرى تماما فى هذه الألفاظ الهائلة الجليلة المنحوتة من صخر صوان، وكأن كل حرف فيها جبل الألب. لا يمكنك أن تغير حرفا، أو تستبدل كلمة بأخرى، أو تؤلف جملة مكان جملة، تعطى نفس الإيقاع والنغم والحركة والثقل والدلالة. وحاول وجرب لنفسك فى هذه العبارة البسيطة ذات الكلمات العشر أن تغير حرفا أو تستبدل كلمة بكلمة.

ولهذا وقعت العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية الذين عشقوا الفصاحة والبلاغة وقع الصاعقة. ولم يكن مستغربا من جاهلى مثل الوليد بن المغيرة عاش ومات على كفره أن يذهل، وألا يستطيع أن يكتم إعجابه بالقرآن برغم كفره فيقول، وقد اعتبره من كلام محمد: "والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثْمِر، وإن أسفله لمُغْدِق، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه" . ولما طلبوا منه أن يسبّه قال: "قولوا: ساحر جاء بقولٍ يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته " . إنه السحر حتى على لسان العدو الذى يبحث عن كلمة يسبه بها.

وإذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول فالسبب هو التعود والألفة والمعايشة منذ الطفولة، والبلادة والإغراق فى عامية مبتذلة أبعدتنا عن أصول لغتنا . ثم أسلوب الأداء الرتيب الممل الذى نسمعه من مرتلين محترفين يكرون السورة من أولها إلى آخرها بنبرة واحدة لا يختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح من موقف الوعيد من موقف البُشْرَى من موقف العبرة. نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعانى وتتسطح العبارات. وبالمثل بعض المشايخ ممن يقرأ القرآن على سبيل اللعلعة دون أن ينبض شىء فى قلبه. ثم المناسبات الكثيرة التى يُقْرَأ القرآن فيها روتينيا . ثم الحياة العصرية التى تعددت فيها المشاغل وتوزع الانتباه وتحجر القلب وتعقدت النفوس وصدأت الأرواح. وبرغم هذا كله فإن

لحظة صفاء ينزع الواحد فيها نفسه من هذه البيئة اللزجة ويرتد فيها طفلا بكرا وترتد له نفسه على شفافيتها كفيلة بأن تعيد إليه ذلك الطعم الفريد والنكهة المذهلة والإيقاع المطرب الجميل فى القرآن، وكفيلة بأن توقفه مذهولا من جديد بعد قرابة ألف وأربعمائة سنة من نزول هذه الآيات وكأنها تنزل عليه لساعتها وتوها.

اسمع القرآن يصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة بأسلوب رفيع وبكلمة رقيقة مهذبة فريدة لا تجد لها مثيلا ولا بديلا فى أى لغة: "فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا". هذه الكلمة: "تَغَشَّاها" (تغشاها رَجُلُها، أى يمتزج الذكر والأنثى كما يمتزج ظلان، وكما يغشى الليل النهار، وكما تذوب الألوان بعضها فى بعض)، هذا اللفظ العجيب الذى يعبر به القرآن عن التداخل الكامل بين اثنين هو ذروة فى التعبير. وألفاظ أخرى تقرؤها فى القرآن فتترك فى السمع رنينًا وأصداءً وصورًا. حينما يقسم الله بالليل والنهار فيقول: "وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ". "عسعس": هذه الحروف الأربعة هى الليل مصورا بكل ما فيه. "والصبح إذا تنفس": إن ضوء الفجر هنا مرئى ومسموع. إنك تكاد تسمع زقزقة العصفور وصيحة الديك. فإذا كانت الآيات نذير الغضب وإعلان العقاب فإنك تسمع الألفاظ تتفجر، وترى المعمار القرآنى كله له جلجلة. اسمع ما يقول الله عن قوم عاد: "وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ". إن الآيات كلها تَصِرّ فيها الرياح وتسمع فيها اصطفاق الخيام وأعجاز النخل الخاوى وصورة الأرض الخراب. والصور القرآنية كلها تجدها مرسومة بهذه اللمسات السريعة والظلال المحكمة والألفاظ التى لها جَرْس وصوت وصورة.

ولهذه الأسباب مجتمعة كان القرآن كتابا لا يترجَم. إنه قرآن فى لغته، أما فى اللغات الأخرى فهو شىء آخر غير القرآن: "إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيا". وفى هذا تحديد فاصل. وكيف

يمكن أن تترجَم آية مثل "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى"؟ إننا لسنا أمام معنى فقط، وإنما نحن بالدرجة الأولى أمام معمار، أمام تكوين وبناء تنبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات، من قلبها لا من حواشيها، من خصائص اللغة العربية وأسرارها وظلالها وخوافيها. ولهذا انفردت الآية القرآنية بخاصية عجيبة. إنها تحدث الخشوع فى النفس بمجرد أن تلامس الأذن وقبل أن يتأمل العقل معانيها، لأنها تركيب موسيقى يؤثر فى الوجدان والقلب لتوه، ومن قبل أن يبدأ العقل فى العمل. فإذا بدأ العقل يحلل ويتأمل فإنه سوف يكتشف أشياء جديدة، وسوف يزداد خشوعا.

ولكنها مرحلة ثانية قد تحدث وقد لا تحدث. وقد تكشف لك الآية عن سرها وقد لا تكشفه. وقد تُؤْتَى البصيرة التى تفسر بها معانى القرآن وقد لا تؤتَى هذه البصيرة، ولكنك دائما خاشع لأن القرآن يخاطبك أولا كمعمار فريد من الكلام: بنيان، فورم، طراز من الرصف يبهر القلب ألقاه عليك الذى خلق اللغة ويعرف سرها، وليس أبدا محمد النبى الأمى الذى كان يرتجف كما ترتجف أنت والوحى يلقى عليه بالآية: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ"، فيرتجف ويتصبب عرقا ولا يعرف من أى سماوات يلم به هذا الصوت الآمر، وهو يلوذ بزوجته خديجة وهو لا يزال يرتجف فَرَقًا لما سمع، وقد بات يخشى على نفسه الجنون، فتطمئنه خديجة بصوتها الحانى هامسة: "والله ما يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ، وتُكْسِب المعدوم، وتَقْرِى الضيف، وتُعِين على نوائب الحق". وينقطع عنه الوحى سنتين بعد هذه الكلمات القليلة الأولى، ويتركه فى حيرة يذرع دروب الصحراء الملتهبة يكاد يُجَنّ من أمر هذا الصوت الذى نزل عليه ثم انقطع عنه. ولو كان محمد مؤلفا لألَّفَ فى هاتين السنتين كتابا كاملا. ولكنه لم يكن أكثر من مستمع أمين سمع كما تسمع أنت تلك الكلمات ذات الموسيقى

العُلْوِيَّة فى لحظة صفاء وجلاء فذهل كما تذهل وصُعقت حواسه أمام هذا التركيب الفريد المضىء.

وبعد سنتين من الصمت عاد الصوت ليهتف فى أذنه:"يَا أَيُّها الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ" . ثم بدأت آيات القرآن تنزل متوالية. ولم يكن محمد من أدعياء المعجزات. ويوم دفن ولده الوحيد إبراهيم حدث كسوف كلى للشمس فسَّره الناس على أنه معجزة ومشاركة من الطبيعة لحزن محمد، فقال محمد كلمته المشهورة: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته" .ولو كان فى طبعه الادعاء لالتمس فيما حدث سببا للدعاية لنفسه، ولكنه كان الصادق الأمين من أول يوم فى حياته إلى آخر يوم. والوحى يلقى إلى محمد بما لا يعلم محمد: "ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُون أَقْلاَمَهمْ أَيُّهمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ"، "تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُها أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ" . وهو يلقى إليه بأسرار فى التوراة والإنجيل، ولم تكن هذه الكتب قد ترجمت إلى العربية فى ذلك العصر البعيد . وأول نص مسيحى ترجم إلى العربية هو مخطوط بمكتبة القديس بطرسبرج كتب حوالى عام ١٠٦٠ ميلادية. كانت هذه الكتب أسرارا عبرية لا يعرفها إلا أصحابها. وهو يتحدى اليهود بأن يخرجوا مخطوطاتهم ويقرأوها: "قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوها إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" .

ثم هو يصحح بعض تفاصيل التوراة. ففى رواية التوراة لقصة يوسف يقول النص إن إخوة يوسف استخدموا فى سفرهم الحمير. والقرآن يروى أنهم استخدموا العِير، وهى الإبل. والحمار حيوان حضرى عاجز عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكى يجىء من فلسطين إلى مصر. وحكاية العِير هى حكاية أدق وأصدق. ألم يلعن أرميا "أقلام النساخ الكاذبة"؟ إن الوحى يلقى على محمد ما لا يعلمه محمد لا هو ولا أصحابه ولا قومه ولا نُسَّاخ

التوراة وحُفَّاظها . ثم هو يلقى عليه من فواتح السور ما هو أشبه بالشفرة والألغاز مثل "كهيعص. طسم. حم عسق" مما لم يقل لنا النبى إنه يعلم له تفسيرًا .

ولو أن محمدا هو الذى وضع القرآن لبَثَّ فيه أشجانه وحالاته النفسية وأزماته وأحزانه. والقرآن غير هذا تماما، فهو يبدو من البدء إلى النهاية معزولا عن النفس المحمدية بما فيها من مشاغل وهموم. بل إن الآية لتنزل مناقضة للإرادة المحمدية: "وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُه". كل هذا يضع أمامنا القرآن كظاهرة متعالية معزولة عن النفس التى أخبرتنا بها . فهى لا أكثر من واسطة سمعت فأخبرت. أما القرآن ذاته فهو، لفظا ومعنى، من الله الذى أحاط بكل شىء علما" .

وقبل أن أشرع فى مناقشة هذا الكلام أود أن أشير إلى ما شعرت به أنا وأمثالى من الشباب حين أخرج مصطفى محمود كتابه هذا . لقد كنا جدَّ سعداء، إذ كان معروفا آنذاك أنه لا ينتسب إلى المؤمنين بالقرآن، وإذا به فجأة يخرج هذا الكتاب الذى ظهر أولا على هيئة مقالات متتابعة فى مجلة "صباح الخير" بدءا من يناير ١٩٧٠، ثم جمع المقالات فى كتاب كامل. كذلك لا ينبغى أن ننسى الأسلوب الصحفى السلس المنساب الخفيف الذى كتب به الكتاب، وهو أسلوب يناسب الشباب والعصر مناسبة شديدة: هكذا بدا لنا الأمر. فقد كنا لا نقرأ الكتاب بل نطير فوق صفحاته طيرانا، وبخاصة أن الأمثلة التى ساقها لتوضيح أفكاره تنتمى إلى الحياة اليومية الاعتيادية، وليست من الأمثلة التى ترقد فى بطون كتب التفسير وما أشبه. فبدا لنا أن د. مصطفى محمود قد نجح فى أن يقدم لنا إسلاما عصريا يلبس القميص والبنطال لا العمامة والكاكولا، بالإضافة إلى أنه صار واحدا منا لا علينا . فها هو ذا قد أصبح ينتسب إلى الإسلام ويدافع عنه ويسهّل فهمه للشباب ويدعوهم إلى الإيمان بمحمد وبكتاب محمد وبدين

محمد . وأين؟ فى مجلة "صباح الخير" لا سواها، وهى مجلة لم نتعود على أن نجد فيها ذلك اللون من الكتابة.

والآن نبدأ على بركة الله مناقشة ما قاله المرحوم مصطفى محمود فى الفصل المذكور من كتابه. ونقول على الفور إن الكلام عن معمار القرآن أوسع كثيرا جدا مما حصره فيه رحمه الله، وهو ما يسميه: "الموسيقى الباطنية"، ودعنا من أن هذه الموسيقى لم يستطع الدكتور تحديدها ولا وضع أيدينا على سماتها، بل اكتفى بالكلام الجميل عن مشاعره تجاه أسلوب القرآن ووَصَفَ عجزَه عن الوصول إلى سره. كما ينفى رحمه الله عن القرآن أن يكون شعرا أو نثرا أو سجعا، بل هو شىء فريد . وهو ما يذكرنا بتفسير د . طه حسين الشهير للكلام إلى شعر ونثر وقرآن.

وقد أشار إلى ذلك د . زكى مبارك فى الفصل الخاص بـ"النثر الجاهلى" من كتابه: "النثر الفنى فى القرن الرابع" حيث قال: "أما الدكتور طه حسين فقد اهتدى إلى مخرج لطيف، وذلك إعلانه أخيرًا فى دروسه بالجامعة المصرية أن القرآن لا هو شعر ولا نثر، وإنما هو قرآن" . ثم لم يكتف زكى مبارك بهذا بل أضاف فى الهامش أن هذا التقسيم "متابعة غير موفقة للمسيو مرسيه، الذى يرى أن القرآن ليس خليقًا بأن يسمى: نثرًا، ويقول: On est donc fondé à refuser à la langue du Coran le nom de prose au sens plein et strict du mot. وذنب القرآن عند المسيو مرسيه أنه فى الأغلب مسجوع وموزون (rimé et cadencé) ولا يتحرر من قيد إلا ليقع فى قيد . ولو صح رأى المسيو مرسيه لأنكرنا أن يكون فى آثار كُتَّاب القرن الرابع والخامس ما هو خليق بأن يسمى: "نثرًا" لأن أغلب كلام أولئك مسجوع وموزون" .

أما زكى مبارك فيؤكد أن القرآن نثر، ونثر فنى. قال فى نفس الموضع السابق: "القرآن ليس بشعر لأنه خالٍ من القوافى والأوزان، وهذا موضع اتفاق. ولكن أيمكن القول بأنه ليس

بنثر أيضاً كما يتوهم الدكتور طه حسين؟ وليت شعرى لمن يقال هذا الكلام؟ أيقال لرجال الدين؟ وكيف، وهذه مسألة لغوية لا دينية، وليس فى أصول الدين ما يقهرنا عن القول بما لم يقل به أحد من علماء اللغات؟ أيقال لمؤرخى اللغة العربية؟ وكيف، وهم متفقون على أن القرآن كلام منثور، وإن تفرد ببعض الخصائص والمميزات! أيقال إن الكتاب العزيز لا هو شعر ولا هو نثر، وإنما هو قرآن لَتَصْدُق أوهام من يقولون بأن العرب لم يكن لهم نثر فنى قبل الإسلام، لأن النثر الفنى لغة العقل، وأولئك قوم كانوا يحيَوْن حياة أوَّلية لا تبيح لأمثالهم غير التغنى بعواطف الأطفال؟ إذا كانت ميزة النثر الفنى أنه أداة لشرح الحقائق التى توحى بها العقول فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن القرآن عَرَضَ لكثير من المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية التى كانت تغزو أفئدة العرب فى الجاهلية؟ أو من ذا الذى يرتاب فى أنه خاطب العرب باسم العقل لا باسم الخيال؟ ومن موجبات الغلط عند الدكتور طه حسين أنه يرجع كلمة "قرآن" إلى أصلها فى اللغة السريانية، فهى هناك معناها "الجهر". وهو يؤكد أنه لذلك كان المسلمون فى الصدر الأول يجهرون بتلاوة القرآن. وهذا منطق لا قيمة له، وكان يصح لو أن القرآن كان مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها المسلمون فى أعقاب الصلوات! وكيف، والقرآن لم يكن مما أُنشئ للتسبيحات والتهليلات كما هو العهد بكثير من الكتب الدينية، وإنما نزل لدفع عادية المشركين ونقض أوهام النصارى واليهود، وإن كان هذا لا يمنع أنه اشتمل على سور قصيرة مسجوعة صالحة للتلاوة فى سبيل الدعاء والابتهال؟".

على كل حال فالقرآن نص فريد من نوعه سواء قلنا إنه لا شعر ولا نثر أو رأينا أنه نثر متميز ليس كمثله نثر كما توضح معظم السمات التى رصدناها هنا فى أسلوبه الكريم. وأيا ما يكن الأمر فمن يقرإ القرآن الكريم يجد أن المتحدث فيه دائما هو الله سبحانه وتعالى، أما حين يكون المتحدث هو الرسول فيسبقه بأمر الله سبحانه له بأنْ "قل كذا وكذا": "قل: ما كنتُ

بِدْعًا من الرسل، وما أدرى ما يُفْعَل بى ولا بكم"، "يسألونك عن الخمر والميسر. قل: فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما"، "ويسألونك عن الجبال، فقل: ينسفها ربى نسفا * فيَذَرُها قاعًا صفصفًا"، "قل: إنى نُهِيتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنىَ البيناتُ من ربى"... أما ما يقوله كاتب مادة "القرآن" فى "Encyclopaedia of Islam" من أن بعض الآيات تبدو وكأن الرسول هو المتحدث فيها حديثا مباشرا، أى دون التمهيد له بكلمة "قل"، فدَعْوَى بلا أساس. ومن تلك النصوص المدَّعاة بعض آيات سورتى "التكوير" و"الانشقاق" رغم أنه لا يوجد فى السورتين على الإطلاق ما يبدو معه وكأن الرسول هو المتحدث.

ومن هنا يتوشح الأسلوب القرآنى بالجلال. فمتى ما دخلتَ القرآن شعرتَ للتو أنك فى حضرة جليلة لا ضعف فيها ولا تضعضع ولا تردد ولا خوف ولا قلق ولا حزن ولا فرح، حضرة أعلى من كل شىء فى الكون. ومن يرد تفصيلا لهذا الكلام الموجز يمكنه أن يرجع إلى الفصل الطويل بالباب الثانى من كتابى: "مصدر القرآن"، وعنوانه "الروح الإلهى". وقد أشار د. مصطفى محمود إلى سمة الجلال فى القرآن، لكن على نحو سريع ومختصر وعارض. ويتصل بها أن ضمير المتكلم فى كثير من الأحيان هو الـ"نحن" والـ"نا": "إنَّا كلَّ شىء خلقناه بقَدَر"، "إنا نحن نُحْيِى ونُمِيت، ونحن الوارثون"، "إنا نحن نزَّلْنا الذِّكْرَ، وإنا له لحافظون"، "ولقد يَسَّرْنا القرآن للذكر، فهل من مُدَّكِر؟"، "وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا"، "أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟"، "نحن جعلناها تذكرةً ومتاعا للمُقْوِين". وهناك التحدى الذى يطرحه القرآن على الكافرين وعلى الدنيا كلها، وهو تحد راسخ شامخ يعكس ثقة مطلقة، فلا جعجعة ولا طنطنة ولا مبالغة. وهو تحدّ من كل لون وضرب: تحدّ أن يأتى الإنس أوالجن بمثل القرآن، وتحدّ أن ينتصر الشرك أو أى دين آخر على الإسلام، وتحدٍّ أن يستطيع أحد النيل من حياة رسولٍ

الله، وتحدٍّ بأن الروم ستغلب الفرس فى بضع سنين رغم أنها كانت قد انهزمت منها فى آخر معركة. . . إلخ. ولم يستطع أحد أن يحبط أى تحد من هذه التحديات، بل تحققت كلها كما أنبأنا القرآن.

كما أن القسم بمظاهر الطبيعة، وكذلك استعمال عبارة "لا أقسم" أحيانا بدلا من "أُقْسِم" فى قوله تعالى من "التكوير": "فلا أقسم بالخُنَّسِ * الجوارى الكُنَّس * والليلِ إذا عَسْعَس * والصبح إذا تنفَّس * إنه لقولُ رسولٍ كريم"، هو ملمح أسلوبى لا وجود له فى أحاديث الرسول عليه السلام. وفوق هذا فالآيتان اللتان تقولان عنه صلى الله عليه وسلم فى سورة "التكوير": "وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه (أى رأى جبريلَ) بالأفق المبين" لا يمكن أن تكونا صادرتين عن محمد، إذ المتحدث فيهما يستخدم للرسول ضمير الغائب لا المتكلم.

ومن المعروف أن القرآن كان ينزل منجَّما لا دفعة واحدة كما نزلت ألواح موسى أو الإنجيل، إذ كانت الآيات أو السور القصيرة تماشى الأحداث وتعلق عليها وتعرض الأحكام المتعلقة بها أو تجيب على التحديات التى يضعها المشركون والكتابيون أمام الرسول أو ترد على الاستفسارات التى يتقدم بها المسلمون إلى نبيهم كلما حزبهم أمر وغمت عليهم مشكلة، أو تذكر ما كان ينبغى عمله بدلا مما عُمِل فعلا، فضلا عن أن هناك أحكاما نزل بها القرآن أولا ثم تغيرت مع تغير الظروف بعد ذلك، فنزلت آياته بالأحكام الجديدة. وهو ما يسمى بـ"النسخ"، والمقصود به مراعاة أحوال المسلمين فى ميدان التشريع والأخذ بيدهم فى الطريق الجديدة على نحو متدرج كما هو الحال مثلا فى مسألة تحريم الخمر، الذى لم يتم فى نَفَس واحد بل أخذ وقتا تصاعد معه التنفير من الخمر والتضييق على شاربيها حتى انتهى الأمر بتحريمها تحريما مغلظا لا يعرف الهوادة.

وقد استغرق نزول القرآن على النبى محمد ثلاثة وعشرين عاما، إذ كان ينزل منجما كما قلنا، أى مفرقا: فسورة صغيرة كاملة تنزل يوما، وعدد من آيات سورة كبيرة ينزل يوما آخر . . . وهكذا. ذلك أن الوحى كان يتابع أحوال المسلمين أفرادا وأمة فينزل منه ما تقتضى ظروف هذا الشخص أو ذاك أو تستدعيه حال الأمة كلها كما هو الحال فى الحروب والمعاهدات والتشريعات وما إلى هذا. فالآيات ١٠٥- ١١٣ من سورة "النساء" مثلا نزلت تعقيبا على سرقة بعض المنتسبين إلى الإسلام سلاح شخص ما ومحاولتهم إلصاق تلك التهمة ببعض اليهود، وانخداع النبى بهم وتصديقه لأقاويلهم ونزول الوحى من ثم لفضحهم وتبرئة اليهود المتَّهَمين ظلمًا ومَيْنًا. والآيات ٢٢٢- ٢٤٢ من سورة "البقرة" نزلت مبينةً لأحكام الحيض والإيلاء والطلاق والرضاعة والخِطْبة والعِدّة وما أشبه. والآية ٢٩ من سورة "التوبة" خاصة بتآمر الروم على حدود الإسلام الشمالية فى فلسطين والشام ووجوب مقاتلة المسلمين لهم درءا لخطرهم وكسرا لأنفهم. . . وهلم جرا. ثم يأمر الرسول أتباعه بوضع النص الفلانى فى المكان العلانى، وهو ما يترتب عليه تنوع موضوعات السورة الواحدة فى معظم الأحيان: فسورة كسورة "الكوثر" مثلا أو "الصمد" أو "العصر" أو "الفيل" لا تتناول سوى موضوع واحد كما هو واضح. لكن السور الكبيرة تتضمن موضوعات شتى فى الغالب كما هو الحال فى سورة "البقرة" و"آل عمران" و"النساء" و"المائدة" . . . إلخ، بخلاف سورة "يوسف" مثلا، التى لم تتناول إلا قصة ذلك النبى الكريم مع بعض الآيات الختامية القليلة. وبالمناسبة فإن الأسلوب القرآنى، بعيدا عن الأنبياء والرسل، يخلو عادة من أسماء الأعلام، كما يخلو تماما من استخدام التأريخ بأى تقويم.

هذا، ويتكون القرآن من ١١٤ سورة تختلف طولا وقصرا، بالإضافة إلى اختلافها فى تعدد الموضوعات أو وحدانيتها. فأقصر السور سورة "الكوثر" وسورة "الإخلاص"، وكلتاهما تشغل سطرا واحدا وتتضمن ثلاث آيات. وهناك ما هو أكبر قليلا كسورة "العصر" وسورة

"الإيلاف"، وكل منهما سطران، ثم سورة "النصر" وسورة "الكافرون"، وكلتاهما ثلاثة أسطر. وعندنا ما هو أكبر من ذلك قليلا كسورة "القَدْر" وسورة "الزلزلة"، وما هو أكبر من هذا أيضا بقليل كسورة "الطارق"، وتشغل نحو نصف صفحة، وأطول منها سورة "الأعلى" وسورة "الغاشية". أما "القيامة" و"الإنسان" فأطول من ذلك... وهكذا إلى أن نصل إلى السور الكبيرة كسور "الأعراف" و"التوبة" و"الأنعام" و"المائدة" والنساء"، وأخيرا "البقرة" أطول سور القرآن جميعا، وعدد آياتها ٢٨٦.

وبوجهٍ عامٍّ نلاحظ أن السور مرتبة حسب طولها، لكن هذا لا يمنع أن تسبق سورةٌ سورةً أخرى أطول منها كما هو الحال فى الأنفال" و"التوبة"، وفى "الحِجْر" و"النحل"، وفى "الإخلاص" وكل من "المعوذتين". وهناك سور مكية تساوى أو تقارب بعض السور المدنية فى الطول كـ"الحجرات" (المدنية) و"ق" (المكية) مثلا، وهناك من السور المكية ما يتجاوز كثيرا من السور المدنية طولا كسور "الأنعام" و"الأعراف" و"يونس" و"هود"، فكل منها أطول من "الأنفال" و"محمد" و"الحجرات". وأشهر وأوضح مثال على سَبْق السورة القصيرة لسورة أخرى طويلة هو مثال "الفاتحة" و"البقرة" فى أول المصحف.

ومن السور التى تقتصر على موضوع واحد كثيرٌ من السور القصيرة، أما السور الطويلة ذات الموضوع الفرد فتتمثل فى سورة "يوسف" كما مر بيانه. وقد شبه الشوكانى فى تفسيره: "فتح القدير" السورة القرآنية بالقصيدة الجاهلية، فهى أيضا تتعدد فيها الموضوعات. لكن الملاحظ أن الموضوعات المتعددة التى تتضمنها السورة القرآنية أكثر إحكاما، إذ يستطيع القارئ اليقظ فى كثير جدا من الأحيان أن يلمح، لدن الانتقال من موضوع إلى آخر، خيطا يشد هذا إلى ذاك على نحو من الأنحاء. وأيا ما يكن السبب فى التعدد فإنه يسهّل على القارئ قراءة الجزء الذى يشاء دون أن يبدأ السورة من أولها بالضرورة.

وتتكرر الموضوعات والمعانى كثيرا فى سور القرآن الكريم، وخاصة فى الوحى المكى. وهذا أمر طبيعى، إذ كان الرسول فى المرحلة المكية مثلا يجوب طرقات أم القرى ويغشى مجالسها ويقصد بيتها الحرام ويذهب إلى أسواقها داعيا الناس إلى الإيمان بالدين الجديد الذى جاءهم به من الله سبحانه هُدًى لهم وتنويرًا لعقولهم وإخراجًا لهم من ضِيقَة الظلمات والجهل والتخلف إلى بحبوحة الضياء والعلم والتحضر، لكنهم كانوا يعاندونه ويكذّبونه ويمكرون به ويصخبون عليه ويتآمرون ضده وينكرون التوحيد والبعث والآخرة ويَتَأَبَّوْن على ترك عاداتهم وتقاليدهم المنحطة. وكان هذا يتكرر كثيرا، فلهذا كانت تتكرر الموضوعات والمعانى بنفس العبارات أو بعبارات مقاربة. وكثيرا ما يحكى القرآن فى هذه الحالة قصص الأنبياء السابقين وأممهم والعقاب الذى نزل بتلك الأمم جزاء وفاقا على كفرها وتمردها وعتوها. وهذا هو السبب فى تكرار هذه القصص فى كتاب الله.

وتتنوع الموضوعات القرآنية ما بين عقيدة وتشريع وتأمل فى ملكوت الله وقصص وأدعية وتمجيد لله تعالى ووصف لأحوال المجتمع الإسلامى فى حياة الرسول وللمجتمع الجاهلى أيضا، وحديث عن الغزوات التى خاضها المسلمون أوانئذ، ومجادلات مع المشركين وأهل الكتاب وتوجيهات أخلاقية. وبالنسبة للعقيدة فإن الإسلام يقوم على الإيمان بالله الواحد الأحد القادر القوى القاهر الرازق الباسط القابض الغفور الرحيم السميع البصير المريد اللطيف الخبير الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . . . إلى آخر أسمائه الحسنى وصفاته العليا. كما يؤمن المسلم بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وجنة ونار. وبالمثل يجب عليه أن يؤمن بجميع الرسل دون تفريق من لدن آدم إلى خاتمهم وزعيمهم محمد بن عبد الله صلى الله عليهم وسلم. وهناك أيضا الملائكة والجن، وكلا الفريقين كائنات خفية. وفى مجال الأخلاق يدعو الإسلام إلى العدل والصدق والوفاء والأمانة والتعاون والتواضع والإخلاص والإتقان واحترام الكبير والعطف على

الصغير والرحمة بالنساء والأطفال ومعاونة الفقراء والمساكين المطحونين والابتعاد عن الخمر والزنا والربا والغيبة والنميمة والسرقة والكِبْر والحقد والطمع والجشع والأنانية. . . وتغطى تشريعات القرآن كل شىء فى حياة البشر من رضاعة وتربية وزواج وطلاق وبيع وشراء وربا وسلف وعبادة وجنائز وحرب وسلم وملبس ومطعم وغير ذلك.

ومن الأدعية والتمجيدات ووصف الملكوت: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ"، "رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"، "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ"، "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"، "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ "، "اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"، "إِنَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" .

وتنقسم كل سورة قرآنية إلى آيات. والآية عبارة عن جزء صغير من الكلام قد يكون جملة أو جزءا من جملة، وقد يكون عدة جمل. ويكثر مجيء الآيات أجزاء من الجُمَل فى قِصَار السُّوَر المكية: "وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ"، "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ"، "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ

بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى" . أما النوع الثالث المكون من عدة جمل فمثاله الآية التالية من سورة "البقرة" : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلا تَرْتَابُوا إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" .

ومعروف أن القرآن حريص على إنهاء كل آية من آياته تقريبا بفاصلة مسجوعة، وهذه الفاصلة تجعل للكلام طعما شامخا عجيبا . وقد حاول مؤلفو الإنجيل المسجوع الذى ظهر مؤخرا مضاهاة الفواصل القرآنية، بيد أنهم قد أفسدوا الأمر أيما إفساد . والفواصل القرآنية تعمل فى العادة على التذكير بالله وصفاته والمبادئ القويمة والأخلاق الجميلة وما إلى هذا . وبعضها يتكرر بنصه من سورة إلى سورة، أو بصيغة قريبة . وقد تكون السورة كلها مسجوعة على رَوِيٍّ واحدٍ، وهذا موجود فى السور المكية القصيرة. وقد تكون متنوعة السجعات. وقد تكون كلها مسجوعة على حرف واحد مع الخروج على هذا الحرف فى فاصلة واحدة أو فاصلتين أو عدة فواصل قليلة. ومع هذا فكثيرا ما تكون تلك الفواصل على روى مقارب فى مخرج الكلام للحرف الذى يدور عليه سجع سائر السورة.

وهنا نحب أن نتريث قليلا لمناقشة ما قاله د. مصطفى محمود عن نفى السجع عن القرآن. وهو فى هذا يذكرنا برأى بعض العلماء المسلمين الذين يتحرجون من إطلاق مصطلح "السجع" على الفواصل القرآنية، إذ يقولون إن السجع يقتضى إخضاع المعنى للفظ أو إن السجع كلام متوقع يخلو من معنى مهم أو يتشح بالغموض. وهم بذلك يضيقون مفهوم السجع تضييقا بالغا بحيث لا يصدق إلا على سجع العرافين والكهان فى الجاهلية مما كانوا يتعمدون فيه الغموض تعمدا كى يلقوا الرهبة فى نفوس قُصَّادهم ويوهموهم أن هذا هو وحى الجن. وهؤلاء العلماء يَنْسَوْن ما أُثِر عن الجاهليين من خطب وأمثال وحِكَم، بل وغير قليل من أبيات الشعر، مما تبرز فيه تلك التوافقات الموسيقية فى آخر الجمل والعبارات.

ثم إن الله سبحانه أكبر من أن يَخْضَع المعنى فى كلامه للفظ. أما ما يقال فى هذا الصدد فمبعثه الجهل بأن ما يظنونه خضوعا من المعنى للفظ إنما هو استعمال لغوى آخر صحيح، وإن لم يدركوا هم ذلك. فمثلا الفعل المضارع فى قوله تعالى: "والفجر * وليالٍ عَشْر * والشفع والوَتْر * والليل إذا يَسْرِ. . ." الذى يظن المتسرعون أنه قد حُذِف حرف علته على غير القاعدة، إذ إن حذف حرف العلة هنا لا يكون إلا فى حالة الجزم، هذا الفعل قد يكون مجزوما فى النص الكريم بـ"إذا" بمقتضى لغة قبلية تجزم المضارع بـ"إذا" أو جرى على ما كانت تفعله بعض القبائل العربية من حذف هذا الحرف حتى فى درج الكلام دون أن يكون هناك جازم كما فى قوله تعالى فى سورة "الكهف" على لسان موسى يخاطب فتاه: "ذلك ما كنا نَبْغِ"، فحُذِف حرف العلة (الياء) من المضارع: "نبغِ" دون جزم.

كذلك يتحرج بعض العلماء من إطلاق كلمة "السجع" على فواصل القرآن لظنهم أن السجع هو صوت الحمام والناقة مما لا يصح أن يطلق على كلام الله سبحانه. وفات أولئك العلماء أن السجع هو الكلام المقفَّى، أى موالاة الكلام على رَوِىٍّ واحدٍ. ثم إن الحمامة أو الناقة

حين تسجع فإنها لا تطلق صوتا لا معنى له بل تعبر عما يجيش فى نفسها من فرح أو ألم أو رضا أو قلق. . . إلخ. وحتى لو افترضنا أن سجع الحمام والنوق لا معنى له وأن كلمة "سجع" قد وضعت فى الأصل لصوت الحمامة والناقة فمن يا ترى قال إن التشبيهات والاستعارات تعنى التطابق التام بين المشبه والمشبه به فى كل شىء؟ أإذا قلنا إن "فلانة كالقمر" كان معنى كلامنا أنها فى حجم القمر وشكله وليس لها عينان ولا أنف ولا فم ولا خد ولا شعر مثلما أنه لا شىء من ذلك للقمر، وأنها جماد مثلما أن القمر جماد، وأنها بعيدة عنا بعد القمر عن الأرض؟ ألا إن هذه أشياء لا يمكن أن تدور فى بال أحد ممن يشبهون المرأة بالقمر، وإلا لقد كان أحرى بالمرأة أن ترفض هذا التشبيه وتعده إساءة بالغة إليها، وهو ما لم ولا ولن ولا يمكن أن يحدث.

ثم ما رأى هؤلاء المتحرجين فى أن الله سبحانه وتعالى قد شبه بنفسه نوره عز وجل فى سورة "النور" بـ"مشكاة فيها مصباح"؟ ولا شك أن المشكاة أدنى من الحَمَام، فالحمام كائن حى، أما المشكاة فأداة جامدة. وهو نفس التشبيه الذى استشهد به أبو تمام فى الرد على ذلك الشخص السخيف الخبيث الذى أراد أن يتقرب إلى الخليفة العباسى على حسابه لتشبيهه إياه بحاتم الطائى فى الكرم، وبسَحْبَان فى الفصاحة، إذ كيف يصح أن يشبه الشاعرُ الخليفةَ بمن هم أدنى منه وأقل مكانة؟ فرد أبو تمام عليه قائلا:

لا تنكروا ضَرْبى له مَنْ دونه   مثلا شَرُودًا فى النَّدَى والباسِ
فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره   مثلا من المشكاةِ والنبراسِ

والله سبحانه وتعالى يستعمل فى القرآن لنفسه ألفاظ "القول" و"الكلام"، وهما لفظان يستخدمان للغة البشرية، ولا يسىء هذا إلى العزة الإلهية فى شىء. بل إنه ليضرب المثل على وحدانيته جل وعلا من عالم السيادة والعبودية فى دنيا البشر لافتا النظر إلى أنه لا يستوى عبد

مملوك لسيد واحد مع آخر يملكه سيدان أو أكثر: "ضرب اللهُ مثلا رَجُلا فيه شركاءُ متشاكسون ورجلا سَلَمًا لرَجُل: هل يستويان مثلا؟" . ونحن جميعا، بما فينا أولئك العلماء المتحرجون، نقول: "اللفظة القرآنية" و"الجملة القرآنية" و"الصورة القرآنية" و"الجناس القرآنى" و"التشبيهات القرآنية" دون أية حساسية. فلم يا ترى اختص السجع بالذات بهذه الحساسية؟

ومما يميز الأسلوب القرآنى أيضا أن كل سورة من سوره تبدأ بالبسملة. وهذا أمر ينفرد به القرآن، ويختلف عن العهد القديم والعهد الجديد، وإن كنا فى الفترة الأخيرة قد رأينا نسخة من العهد الجديد يبدأ كل باب منها بالبسملة على غرار القرآن، وتنتهى كل فقرة فيه بفاصلة على غرار القرآن، ويستعين مؤلفو هذا الإنجيل بعبارات القرآن وتراكيبه وصوره عَلَّهُمْ يروّجونه بين غوغاء المسلمين وجهلائهم. وقد صارت البسملة تقليدا إسلاميا يراعيه المسلم عادة كلما شرع فى عمل من الأعمال ذى بال. وهو ينظر إلى الأمر على أنه بركة وكرامة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبْدأُ فيهِ بـ"بسمِ اللَّهِ الرحمنِ الرَّحيمِ" فَهُوَ أقطع" . إلا أن هناك سورة واحدة فى القرآن لم تبدأ بالبسملة، وهى سورة "التوبة"، إذ نزلت تهديدا مدويا للمشركين الخائنين الذين لم يحترموا ما كان بينهم وبين النبى والمسلمين وحلفائهم من عهد فاعْتَدَوْا على حلفاء المسلمين وقتلوا منهم نفرا، فلم يكن مناسبا أن تفتتح السورة المهدّدة باسم الله الرحمن الرحيم.

وهناك طائفة من السور المكية تبدأ ببعض حروف الألفباء مما يسمونه: "الحروف المقطَّعة" . وهو شىء لا نجده فى الأدب العربى ولا فى أى أدب آخر فى حدود ما نعلم. وقد أريقت فى محاولة تفسير معناها أحبار كثيرة، وشهدت الدراسات القرآنية نظريات متعددة لهذا التفسير، وأتى المستشرقون فى ذلك بالعجب العجاب: فمن قائل إنها علامات موسيقية مع أنه لا يوجد فى أية رواية أو نص شعرى أو نثرى فى الجاهلية أو فى الإسلام ما يفيد أن العرب

عرفوا الرموز الموسيقية. والملاحظ أن السور التى تختص بتلك الحروف المقطعة هى بعض السور المكية ليس إلا. ولكن هل كان كتاب "الأغانى" مثلا ليهمل القول فى ذلك الموضوع لو كان لما يزعمه أولئك المستشرقون أى وجود؟ وهل كان الأداء أو الرمز الموسيقى مقصورا على المكى فقط؟ ثم لماذا يتكرر الرمز الواحد بنصه فى مفتتح أكثر من سورة رغم اختلاف بعضها عن بعض؟ وهل كان المسلمون يلحّنون القرآن ويتحرَّوْن التطريب فيه؟ فمَنْ مِنَ الصحابة يا ترى كان يضع الألحان؟ ومن كان يغنى؟ وأين؟ ومتى؟ وعلى أية آلة موسيقية كانوا يعزفون؟

ثم من أين للمسلمين بتلك الرموز الموسيقية؟ وإذا كان العرب الجاهليون لم يعرفوا ذلك فى أشعارهم وغنائهم فكيف يعرفه المسلمون فى قرآنهم، وهو ليس شعرا، بَلْهَ أنه كتاب إلهى، وليس إبداعا بشريا؟ كذلك لو كانت هذه الحروف رموزا موسيقية، وغضضنا الطَّرْف عن أن القرآن ليس شعرا بأية حال، لكان ينبغى أن يكون موضعها مع الآيات لا فى مفتتح السورة. ولو كانت هذه الحروف رموزا موسيقية لوجدنا انقساما بين المسلمين بشأنها ما بين راض بإثباتها فى المصحف ورافض لذلك. وهذا أمر لا وجود له ولا فى دنيا الأحلام والأوهام. وإذا كان كثير من المسلمين حتى الآن بعد أكثر من أربعة عشر قرنا ينكرون الغناء ومن يؤديه ومن يستمع إليه، أفترى المسلمين الأوائل كانوا سيتقبلون كتابة هذه العلامات الموسيقية فى كتابهم؟ فلم إذن قالوا فى النضر بن الحارث ما قاله مالك فى الخمر جراء ما تذكره بعض الروايات من أنه كان يأتى بالقِيَان حين يأتى النبى إلى مجالس القرشيين يغنينهم حتى يصرفن المستمعين عنه؟ أليس الأمر كله هنا وهناك غناء وموسيقى؟ فلم يحملون على النضر إذن؟ أتراهم كانوا يسكتون عن هذا الأمر، وهم يقرأون فى سورة "الأنفال" تقريعا وإدانة للمشركين إذ حولوا صلاتهم عند البيت إلى مُكَاءٍ وتَصْدِيَةٍ، أى إلى صفير وتصفيق؟ تالله إن الصفير والتصفيق لأخف كثيرا

جدا من الموسيقى التى تعزفها الآلات وتحتاج إلى نوتة موسيقية لتنظيمها حتى لا ينشز عازفٌ أو مُغَنٍّ فيُفْسِد الأداء إفسادا .

وأخيرا فإن العلامات الموسيقية فى كتاب "الأغانى" مثلا، وهو كتاب متخصص فى الغناء والموسيقى، تختلف عن ذلك اختلافا عظيما ، فهو يقول على سبيل المثال: "الغناء لابن سريج، وله فيه لحنان: رَمَلٌ بالسبابة فى مجرى البنصر عن إسحاق، وخفيف ثقيل أول بالبنصر عن عمرو"، "الغناء فى هذا اللحن المختار لابن سريج، ثانى ثقيلٍ مطلق فى مجرى الوسطى. وفيه لإسحاق أيضاً ثانى ثقيلٍ بالبنصر عن عمرو بن بانة. وفيه ثقيلٌ أولُ يقال إنه ليحيى المكي. وفيه خفيف رَمَلٍ يقال إنه لأحمد بن موسى المنجم. وفيه للمعتضد ثانى ثقيلٍ آخر فى نهاية الجودة" . . . وهكذا . وأين هذا من ذلك؟ وهل يعقل يا إلهى أن يتقبل المسلمون وجود تلك العلامات الموسيقية كلهم على بكرة أبيهم دون أن يشذ واحد منهم فيرفع صوته بالاعتراض؟

وهناك من يقول إنها رموز لأسماء الصحابة الذين كانوا يمتلكون هذه النسخة أو تلك. لكنْ فَشِل أصحاب تلك النظرية فى التوفيق بين الرمز واسم الصحابى الذى كانوا يقترحونه، ودعك من الاعتساف الشنيع فى التوفيق بين الحرف الواحد من هذه الحروف وأسماءٍ تعد بالعشرات. ثم إنه لو كان الأمر كذلك لوجدنا رمزا واحدا فى كل مصحف، ومثبتا فى أوله. أما أن يكون هناك رموز مختلفة فى مواضع متعددة خلال المصحف فلا أدرى كيف دار هذا التعليل فى ذهن صاحبه؟ بل هل عرف العرب فى ذلك الأوان الإشارة إلى أسماء الأشخاص بحرف أو حرفين مثلا؟ ولو كانت هذه، رغم ذلك كله، أسماء مالكى المصاحف أكان المسلمون يدخلونها فى النص القرآنى ويحرصون على قراءتها ضمن ذلك النص ولا يفكر واحد منهم أن يحذفها ؟ بل إن معظمها قد اعْتُبِرَ آية مستقلة. فكيف دار هذا التعليل فى عقل من

اخترعه؟ وهذا إن كان عند مثله عقل أصلا. إن إثباتها فى القرآن وحرص المسلمين على قراءتها كجزء من النص معناه أنها موجودة منذ عهد النبى عليه السلام، وهو ما يدل على أنها جزء من النص القرآنى لا إشارة إلى اسم صاحب المصحف كما يزعم الزاعمون.

وفى المسلمين من يرى أن الله سبحانه يُقْسِم بهذه الحروف فى مطالع السور. ولكن لم يحدث قط أن أقسم أحد بهذه الطريقة الغريبة ولا جاء فى أى كتاب من كتب النحو أن القَسَم يمكن أن يكون بهذا الشكل. والبعض يقول إنها تؤلف فيما بينها اسم الله الأعظم الذى احتفظ بسره لنفسه. وهذا كلام لا يدخل العقل، إذ كيف يتكون اسم الله الأعظم من هذه الحروف؟ ولماذا لم يجمعها الله فى اسم واحد هو اسمه الأعظم حتى نعرف ذلك الاسم الكريم؟ وكيف يعلن الله حروف الاسم الأعظم ثم يقال إنه احتفظ بسره لنفسه؟ وبعضهم يقول إنها اختصارات لعبارات تتعلق بالله سبحانه: فـ"الم" مثلا معناها "أنا الله المهيمن". لكن من قال إن هذا هو المعنى المراد، وهناك ما لا يحصى من العبارات التى يمكن تشكيلها من هذه الحروف؟ ولماذا لم يقل الوحى ذلك مباشرة؟

و"لعل" أقرب تفسيرات هذه الحروف إلى الوجاهة أنها إشارة إلى كون القرآن مؤلفا من تلك الحروف نفسها التى يعرفها كل العرب ويستعملونها فى لغتهم، ومع ذلك فإنهم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن. ويعضد هذا التفسير أن تلك الحروف متبوعة فى كل الأحوال تقريبا بعبارة مثل "ذلك الكتاب" بما يعنى أن ذلك الكتاب مكون من "ا ل م" مثلا. إلا أن السؤال هو: ولماذا لم تستعمل كل حروف الألفباء فى بدايات السور بدلا من اقتصار الأمر على طائفة منها فحسب؟ نعم لماذا لم تستعمل الباء والتاء والثاء مثلا والجيم والخاء والدال والذال والزاى والشين والضاد والغين والفاء والواو فى الوقت الذى تكررت فيه بعض الحروف الأخرى؟

يقول محمود محمد طه فى الفصل المسمى: "مسيَّر أم مخيَّر؟" من كتابه: "القرآن ومصطفى محمود والفهم العصرى" إن الحروف التى استعملت فى مطالع السور هى الحروف النورانية، بينما الحروف الأخرى حروف ظلمانية. ولا أدرى من أى واد أتى الرجل بهذا التفكير. ترى هل كان القرآن ليستعمل فى آياته تلك الحروف الأخرى لو كانت ظلمانية كما يقول؟ إن القرآن نور وهداية لا ظلمة وضلال. كذلك لم استعملت بعض المطالع الحرفية أكثر من مرة على حين لم يحظ بعضها الآخر بهذه الميزة؟ فمن الصنف الأول "الم" و"المر" و"طس"، ومن الصنف الثانى "كهيعص" و"طه" و"يس" و"ق" و"ص".

وفى فصل "النثر الجاهلى" من كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع" للدكاترة زكى مبارك نقرأ فى الهامش ما يلى: "كنت أتحدث عن فواتح السور مع صديقى وأستاذى المسيو (Blanchot) بلانشو، فعرض على تأويلا جديرًا بالدرس والتحقيق. وفى رأيه أن الحروف: "الم، الر، حم، طسم" هى كالحروف: "AOI" التى توجد فى بعض المواطن من "Chansons de geste"، فهى ليست إلا "Neûmes"، أى إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون. وقد كانت الموسيقا القديمة بسيطة يشار إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة، وكان ذلك كافيًا لتوجيه المغنى أو المرتل إلى الصوت المقصود. وفى الكنائس المسيحية بأوربا حيث لا تزال تحفظ تقاليد (Le chant grégorien): الغناء الجريجورى، وفى أثيوبيا مثلا، يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك. فإن رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التى تذكِّر بـ"الم" فى القرآن أو "AOI" فى "نشيد رولان". ويؤيد رأى المسيو بلانشو أن "الم" تنطق هكذا عند الترتيل: "ألف. لام. ميم"، فهى ليست رمزًا كتابيًا، ولكنها رموز صوتية. ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل فى القرآن سارت فى طريق كان معروفًا عند أهل الجاهلية. ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همِّه أن يخالف الجاهليين فى كل

شىء حتى فى الأصوات الموسيقية، فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل، وأن تكون متابعة لبعض ترانيم الجاهليين.

ونحن مع اعتقادنا بقيمة هذا الرأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحق من العناية، مع تطوعهم بعرض كثير من الفروض، ولو أنه كان معروفًا فى الصدر الأول لما تعرض لمثل هذا الإغفال. ومن يدرى فلعل دراسة أصول الموسيقا فى الكنائس الحبشية والشامية فى العهد الذى سبق الإسلام تعود على هذا الرأى بشىء من التوضيح والتحديد. وإلى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأى بين الشك واليقين". هذا ما حكاه وما قاله زكى مبارك، ونرى نحن فى هذا وذاك سخفا وتنطعا عظيمين إن كان من الممكن وصف السخف والتنطع بالعظمة. إنه كلام فارغ كما وضحنا أعلاه.

وقد كتب رشاد خليفة مدعى النبوة فى توسان بأمريكا قبل عدة عقود أن الحروف التى تبدأ بها سورة من السور هى أكثر الحروف دورانا بتلك السورة، وبنفس الترتيب التى جاءت به فى مطلع السورة. وقد زاد فزعم أن كل حرف من تلك الحروف يتكرر بين حروف السورة التى أتى بها بمضاعفات الرقم ١٩. وقد رد عليه وفَنَّدَ كلامَه بعضُ المؤلفين المسلمين، وبرهنوا على أن ما يقوله لا يقوم على أساس سليم، بل على الاستكراه والتساخف، موضحين أنه إنما قال ذلك مع اعتسافه التطبيق اعتسافا كى يبرز الرقم ١٩ المقدس عند البهائيين إبرازا.

ويكثر فى القرآن ورود عدد من الألفاظ والاشتقاقات كثرةً تلفت النظر كاسم الجلالة: "الله"، الذى تكرر أكثر من ٢١٠٠ مرة، وكذلك "الرحمن" و"الرحيم" و"السميع" و"البصير" و"رب" و"إله"، ولكن ليس بهذه الغزارة. وهناك "الصلاة، والزكاة"، و"الملائكة"، و"الإنسان"، و"الجن، والشيطان"، و"المنافقون"، و"المشركون"، و"الكافرون"، و"المجرمون"، و"الساعة" و"الجنة، والنار، والآخرة"، و"القلب"، و"الأولين"، و"الرِّجْس"، و"الرسول" ومشتقاته،

و"الشرك" ومشتقاته، و"الكفر" ومشتقاته، و"النفاق" ومشتقاته، و"الرحمة" ومشتقاتها، و"الرزق" ومشتقاته، و"الطاعة، والمعصية" ومشتقاتهما، و"العلم" ومشتقاته، و"الصبر" ومشتقاته، و"الرضا" ومشتقاته، وأسماء الرسل مع اختلاف مرات التكرار.

والطريف أن اسم "محمد" هو أقل أسماء الأنبياء دورانا فى القرآن. ولهذا مغزاه العميق، إذ لو كان محمد هو مؤلف القرآن ويريد الزعامة والتعظُّم لردد اسمه ليل نهار فى الكتاب الذى ألفه كما نلاحظ فى أمثاله. وبالمثل لم يُذْكَر اسم أى من زوجاته ولا اسم أمه وأبيه ولا اسم جده وعمه اللذين ربياه وأسبلا عليه عطفهما وشفقتهما فى يتمه الحزين ولا اسم أصحابه بما فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، اللهم إلا زيدا، وباسمه الحافى دون أية ألقاب، وكان فى يوم من الأيام عبدا رقيقا، وزَوَّجَه النبى مع ذلك من ابنة عمه رغم ما كانت تشعر به هى وأسرتها من غضاضة لهذا الزواج غير المتكافئ من وجهة نظرهم.

وفى القرآن أيضا عبارات وصور كثيرة تتكرر على نحو يلفت الانتباه، ومن هذه العبارات والصور قوله تعالى: "خالدين فيها أبدا" للإشارة إلى خلود أهل الجنة والنار فيهما، "سبحان الله عما يشركون"، "أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة"، "آتينا النبى فلانا/ القوم الفلانيين الكتاب"، "إن الله غفور رحيم/ وكان الله غفورا رحيما"، "إن الله سميع بصير/ وكان الله سميعا بصيرا"، "أجر عظيم/ كريم/ كبير"، "أجل مسمى"، "أخذتهم الصيحة/ الرجفة/ الصاعقة"، "أخذنا ميثاقهم"، "الدنيا والآخرة"، "يوم القيامة"، "بإذن الله"، "السماوات والأرض"، "له ملك السماوات والأرض/ له ما فى السماوات والأرض"، "عذاب أليم"، "لا إله إلا هو"، "والله خبير بما تعملون"، "جنات تجرى من تحتها الأنهار"، "يا أيها الناس"، "يا أيها الذين آمنوا"، "يا أهل الكتاب"، "والله على كل شىء قدير"، "الحمد لله"، "آمنوا وعملوا الصالحات"، "أُولُو الألباب"، "آيات الله/ آياتنا"، "بشيرا ونذيرا/ مبشرين ومنذرين"، "بما تعملون بصير/ بصير بما تعملون"،

"السمع والأبصار"، "البلاغ المبين"، "خلق جديد"، "أصحاب الجنة، أصحاب النار"، "فى سبيل الله"، "مأواهم جهنم"، "جاءتهم رسلنا/ رسلهم بالبينات"، "الله يحب المحسنين/ المتقين/ المتوكلين/ المُطَّهِرين/ المُقْسِطين/ الصابرين"، "الله لا يحب الظالمين/ الكافرين/ المعتدين/ المسرفين/ المفسدين/ الخائنين/ المستكبرين/ الفَرِحين"، "هل أتاك حديث. . . ؟"، "المسجد الحرام"، "لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون"، "الله سريع الحساب"، "إلى الله/ إليه تُحْشَرون"، "الله عزيزحكيم"، "الله عليم حكيم"، "خَلَق السماوات والأرض"، "المسيح بن مريم"، "أفلا تَذَكَّرون؟"، "لعلكم تَذَكَّرون"، "والله ذو الفضل العظيم"، "رب العالمين"، "إلى الله/ إلى ربهم/ إلىّ/ إليه/ إلينا مرجعكم/ مرجعهم"، "عالِم الغيب والشهادة"، "بغير حساب"، "أطيعوا الله و(أطيعوا) الرسول"، "جاءتهم/ أتتهم/ تأتيهم رسلُهم بالبينات"، "سبحان الله/ سبحانك/ سبحانه/ سبحان رب الـ. . ."، "فسجد الملائكة/ فسجدوا. . . إلا إبليس"، "سِحْر مُبين"، "أساطير الأولين"، "خَلَق السماوات والأرض"، "فسوف تعلمون/ يعلمون"، "أَفَلَمْ/ أَوَلَمْ يسيروا فى الأرض فينظروا. . ."، "استوى على العرش"، "تعالى عما يشركون"، "ثمنا قليلا"، "وهم لا يشعرون"، "لعلكم تشكرون"، "فى شك"، "على كل شىء شهيد"، "مَنْ/ ما يشاء"، "كل شىء"، "أصبحوا خاسرين/. . . كافرين/. . . جاثمين/ نادمين/ ظاهرين"، "و/ فاصبر- و/ فاصبروا"، "صَدُّوا عن سبيل الله"، "عليمٌ بذات الصدور"، "قَدَم/ لسان/ مُخْرج/ مُدْخَل/ مُبَوَّأ/ مَقْعَد صِدْق"، "إن كنتم صادقين"، "مصدّقا لما بين يديه"، "صراط مستقيم"، "عَمِل صالحا"، "من الصالحين"، "نُفِخَ/ يُنْفَخ فى الصُّور"، "ضَرَبَ مثلا"، "ضَرًّا ولانفعا/ نفعا ولا ضرا"، "مَسَّ فلانا ضُرٌّ"، "ضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون"، "من يُضْلِل اللهُ فـ. . ."، "فى ضلالٍ مُبين"، "لا نُضِيع/ يُضِيع أَجْرَ. . ."، "طَبَعَ الله/ يطبعُ اللهُ/ نطبع/ طُبِعَ على قلوب. . ."، "فى طغيانهم يعمهون"، "و/ فلا تُطِعْ. . ."، "أنفُسَهم يَظْلِمون"، "وهم لا يُظْلَمون"، "أولئك هم

الظالمون"، "الله لا يهدى القومَ الظالمين"، "إنْ يَتَّبِعُون/ تَتَّبعون إلا الظنَّ"، "أَعْتَدْنا لـ. . ." (أما للمفرد الغائب فـ"أَعَدَّ")، "ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين"، "ما أنتم/ هم بمُعْجِزين"، "الإثم والعدوان"، "ولهم عذاب أليم/ شديد/ عظيم/ مقيم/ مهين"، "قرآنا عربيا"، "أَعْرِضْ عن. . ."، "و/ فَهُمْ (. . .) مُعْرِضون"، "يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر"، "الله عزيزحكيم"، "لايات لقوم يعقلون"، "إن كنتم تعلمون"، "الله بكل شىء عليم"، "بغير عِلْم"، "رب العالمين"، "حَبِطَتْ أعمالُهم"، "هل/ ما يستوى الأعمى والبصير"، "يبدأ الخلق ثم يعيده"، "بالعَشِىّ والإبكار/ بالعشىّ والإشراق/ بالغداة والعشىّ/ غُدُوًّا وعَشِيًّا/ بكرةً وعشيًّا"، "المشرق والمغرب/ المشارق والمغارب"، "لايغنى (. . .) شيئًا/ من شىء"، "الغنى الحميد/ غنى حميد"، "اعبدوا الله. مالكم من إله غيره"، "ولكن أكثر الناس لا يعلمون/ لا يؤمنون/ لا يشكرون"، "افترى على الله كذبا"، "(د)ما كانوا يكسبون"، "ثم/ فينبّئكم بما كنتم تعملون"، "إن كنتم مؤمنين/ صادقين"، "انظر/ انظروا كيف كان عاقبة الـ. . ."، "لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون"، "لهوٌ ولعب/ لعبٌ ولهو/ لهوًا ولعبًا/ لعبًا ولهوًا"، "متاع الحياة الدنيا"، "بشرٌ مِثْلُكم/ مِثْلُنا"، "ضرب الله مثلا/ يضرب الله الأمثال"، "فى قلوبهم مرضٌ"، "مَسَّه الضر/ الخير/الشر/ الشيطان/ السوء/ العذاب/ اللُّغُوب/ النَّصَب/ القَرْح"، "نُحْيِى/ أحيى/ تحيى الموتى"، "نذير مبين"، "ما لكم/ ما لهم من ناصرين"، "ما لك/ ما لكم/ ما لهم. . . من ولىٍّ ولا نصير"، "اذكروا نعمة الله عليكم"، "جنات النعيم"، "يأمرون بالمعروف وَيَنْهَوْن عن المنكر"، "عذابٌ مهينٌ/ عذابًا مهينًا"، "وجوهٌ يومئذٍ ناضرة/ باسرة/ مسفرة/ عليها غَبَرَة/ خاشعة/ ناعمة"، "لا تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أخرى"، "متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين"، "وعلى ربهم يتوكلون"، "وعلى الله فليتوكل المؤمنون"، "ويلٌ لـ. . ./ وَيْلَنا- وَيْلَكَ- وَيْلكم- (يا)ويلَتَنا، يا

ويلتَا"، "بين يديه"، "وكان ذلك على الله يسيرا/ إن ذلك على الله يسير"، "ما ملكتْ أيمانكم". وهى غيض من فيض، فإنى لم أرد الاستقصاء.

كما يكرر القرآن قصص الأنبياء والأمم السابقة على نحو يلفت النظر: فقصص نوح وإبراهيم ولوط وموسى وعيسى وهود وصالح وشعيب تطالعنا كلها أو معظمها فى السور الآتية: "الأعراف" و"هود" و"المؤمنون" و"الفرقان" و"الشعراء" و"النمل" و"القصص" و"العنكبوت" و"الصافات" و"ص" و"القمر" و"الحاقة". وقصة آدم تتكرر فى "البقرة" و"الأعراف"و"الحِجْر" و"طه". وبالمثل يتكرر الحديث عن الألوهية والوحدانية واليوم الآخر والحملة على الأصنام والأوثان وتطفيف الكيل والميزان والأمر بالصلاة والزكاة والعمل الصالح والتأمل فى الكون فى أرجاء القرآن المختلفة.

وهناك مسألة تتصل بالصور البيانية فى القرآن الكريم يشير إليها كثير من المستشرقين والمبشرين بوصفها انعكاسا للبيئة التى نشأ فيها محمد مؤلف القرآن كما يقولون، وهى أن تلك الصور مستقاة من خلفية تجارية، إذ كان تاجرا. ولو كان ذلك صحيحا لما كان هناك عيب يستوجب الرد فى هذا، إذ قد صرح القرآن بأنه ما من رسول خاطب قومه إلا بلغتهم. ولا شك أن لغة كل قوم تعكس بيئتهم فيما تعكس، وكانت بيئة الرسول المكية التى نشأ فيها بيئة تجارية. لكن المتأمل فى القرآن يُلْفِى أن الصور المنتشرة فيه ليست ذات خلفية تجارية وحسب، بل تعكس خلفيات مختلفة. صحيح أن قوله تعالى: "ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله"، "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم"، "فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به"، "ألا ذلك هو الخسران المبين"، "فما ربحت تجارتهم، وما كانوا مهتدين"، "يرجون تجارة لن تبور" هى من الصور ذات الخلفية التجارية. لكن ماذا عن الصور التالية ذات الخلفية الزراعية: "مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمَثَلِ حبةٍ أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة"، "نساؤكم

حَرْثٌ لكم، فأْتوا حرثكم أَنَّى شئتم"، "مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين"، وفى القرآن غيرها الكثير الكثير؟ وماذا عن الصور الأخرى التالية ذات الخلفية البحرية: "ومن آياته الجَوَارِ فى البحر كالأعلام"، "أو كظلماتٍ فى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلماتٌ بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها"، "وهو الذى مرج البحرين: هذا عذبٌ فراتٌ، وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ، وجعل بينهما برزخا وحِجْرًا محجورا"؟ وماذا عن الصور التالية ذات الخلفية الفيزيائية والفلكية: "أو كصَيِّبٍ من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق... * يكاد البرق يخطف أبصارهم. كلما أضاء لهم مشَوْا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا"، "ومَثَلُ الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم كمَثَلِ جنةٍ بِرَبْوَةٍ أصابها وابلٌ، فآتتْ أُكُلَها ضِعْفَيْن. فإن لم يصبها وابلٌ فطَلٌّ"، "والذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بِقِيعَةٍ يحسبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الله عنده، فوفّاه حسابه"، "ومَنْ يشركْ بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تَهْوِى به الريح فى مكان سحيق"، "ويُنَزِّل من السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ... يكاد سَنَا بَرْقِه يَذْهَب بالأبصار"؟ وماذا أيضا عن الصور التالية ذات الخلفية الفسيولوجية: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حَرَجًا كأنما يَصَّعَّد فى السماء"، "لهم (أى لأهل النار) فيها زفير وشهيق"؟ وماذا عن قوله تعالى الآتى الذى يعكس خلفية جيولوجية: "ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيبُ سُودٌ"؟

أما بالنسبة للتراكيب القرآنية فمعظمها من التراكيب المعروفة المنتشرة على نطاق واسع. وهذا أمر طبيعى، إذ لا يعقل أن يكون هناك نص من النصوص كل تراكيبه خارجة على المعروف المستعمل، وإلا كان نصا عسرا يصعب التعامل معه والاستمتاع به. كما تكثر فيه بعض التراكيب والاستعمالات على نحو يلفت النظر. ومن هذه التراكيب القرآنية التى تلفت

النظر أو يكثر ورودها فى كتاب الله حتى لو كانت استعمالاتٍ معروفةً استعمال كلمة "ذلك" وحدها مع "بين" بدلا من "بين هذا وذاك" كما فى قوله عز شأنه: "مذبذبين بين ذلك"، إذ يقال فى ذلك السياق عادة: "مذبذبين بين هذا وذاك". ومنها أيضا التركيب التالى: "مِنْ أحدٍ" (بإدخال "مِنْ" على الفاعل والمبتدإ والمفعول به لتأكيد استغراق النفى) كما فى قوله جل جلاله: "ولَئنْ زالتا إنْ أمسكهما مِنْ أحدٍ من بعده"، "فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين"، "وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله". ومن تلك التراكيب التى تلفت الانتباه كذلك: "اتخذ + مفعولين: أول وثانيا"، "وإنْ + كاد . . . لَـ"– "وإنْ + كان . . . لَـ . . . "– "وإن+ وجد . . . لَـ . . . (للتأكيد)– إنْ + نظنّ . . . لَـ . . . "، "إنْ . . . إلا/ لَمّا . . . " (للقصْر)، "إياكم/ إياى/ إياهم + فعل مضارع أو فعل أمر مسبوق بالفاء)"، "بئس + فاعل/ تمييز": بئس مثوى المتكبرين"، "بئس للظالمين بدلا"، وكذلك "اللام الموطِّئة للقسم + فعل مضارع + نون التوكيد"، "فلما + أنْ + فعل ماض"، "ليس/ ما كان على فلان + (من) حرج"، "الكذا + وما أدراك ما الكذا ؟"، "الذين تَدْعُون من دون الله"، "مَثَلُ كذا + (كـ)مَثَل كذا"، "إمَّا + فعل مضارع + نون التوكيد + ضمير متصل مفعول به + فـَ . . . "، "أَوَ/ أَفَ + لم + يَرَوْا أَنَّا . . . / إلى . . . "، "ألم تَرَ أنّ/ كيف/ إلى . . . "، "أرأيتم/ أفرأيتم + إنْ + فعل ماض . . . ؟ (فى مواقف الخصومة مع الكافرين). ومنها "أ(فـ)رأيتَ . . . ؟ + استفهام": "أفرأيتَ مَنِ اتخذ إلهَه هواه وأضلَّه الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة؟ فمن يهديه من بعد الله؟ أفلا تَذَكَّرون؟". ومنها استخدام "رَجَعَ (متعدية بمعنى "أَرْجَعَ"، التى لا وجود لها فى القرآن)": "فإن رجعك الله إلى طائفة منهم . . . ". "ويسألونك عن كذا + قل"، "هل/ ما + يستوى + فاعل + و + معطوف"، "عسى + فاعل + أن . . . " (لم تأت فى القرآن بدون "أن" رغم جوازها)". "كاد + فاعل + فعل مضارع بدون "أن" دائما رغم جواز إدخالها عليه)". وانظر

أيضا التراكيب التالية من حيث التذكير والتأنيث، والإفراد والجمع حيث تجد عدولا عن الشائع: "تلك الرسل/ السحاب مسخرات/ السحاب الثِّقَال/ قَاتَلَ معه رِبِّيُون كثيرٌ/ وفريقًا حَقَّ عليهم الضلالةُ/ طائفة منكم آمنوا . . . وطائفة لم يؤمنوا/ رأيتُ أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . . . لى ساجدين/ خصمان اختصموا/ خَلَقَ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كلٌّ فى فَلَكٍ يسبحون/ كُلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون/ الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء/ شِرْذِمةٌ قليلون/ فريقان يختصمون/ قرنًا آخرين/ قرونًا آخرين/ قرونًا بين ذلك كثيرًا/ أناسِيَّ كثيرًا/ أَضَلَّ منكم جبلا كثيرا/ الخصم. . . تسوَّروا المحراب/ قالتا (أى السماء والأرض): أتينا طائعين * فقضاهن سبعَ سماواتٍ/ ضَيْف إبراهيم المُكْرَمين/ والملائكة بعد ذلك ظَهِير/ الرُّسُل أُقِّتَتْ".
ومن التراكيب القرآنية التى تشد انتباهنا أيضا فى مجال العدد قوله سبحانه: "تسعةُ رَهْطٍ/ ثلاثمائةٍ سنين/ صَغَتْ قلوبُكما"، "وكَأَيِّنْ مِنْ. . ."، أما عند الاستفسار عن السبب فتلقانا دائما "لِمَ؟" إذ لم يحدث أن استعمل القرآن "لماذا" قط. وهناك أيضا التركيب التالى المنتشر فى كتاب الله: "ما + كان + لفلان + أن. . . (لا يصح له أن. . .)"، وكذلك إدخال أداتى الشرط: "إذا/ إنْ" على المبتدإ لا على فعل كما يشترط النحاة، ولاأدرى من أين لهم أن أداة الشرط لا تدخل على الأسماء مباشرة: "وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما"، "إذا السماء انفطرت *. . .".

وعندنا كذلك التركيبات التالية: "إنْ + كان + اسمها + فعل ماض بدون قد"، و"فعل ماض + فاعل + حال جملة فعلية فعلها ماض بدون واو وقد، أو بواو لكن بدون قد" على خلاف اشتراطات النحاة، "(إن) الذين + جملة الصلة + فـ. . ."، "مبتدأ (ومعطوف) + فـ + فعل أمر"، "كفى + بـ + اسم مجرور بالباء + حال منصوب"، "هنالك (بمعنى "عندئذ")"، "إنَّ + كُلا + لمّا + لَـ + فعل مضارع + نون التوكيد . . ."، "ما كان/ لم يكن + فاعل + لِـ + فعل

مضارع (بمعنى "لا يكون الأمر كذلك")"، "إن + كان + الاسم والخبر + فـَ + فعل ماض دون قد"، "كان + الله + صفة من صفاته الحسنى (بمعنى الأبدية لا الماضوية)"، "إن + اسمها + هو + خبرها فعل مضارع"، "فألْقَوُا السَّلَمَ: ما كنا نعمل من سوء (دون ذكر فعل القول، وهذا منتشر فى القرآن الكريم بكثرة)"، "جازم + يَكُ/ نَكُ. . . (بحذف نون "يكن/ نكن". وقد تكررت)"، "لانْ. . . لَنَفْعَلَنَّ. . ."، "وذَكِّرْ به أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كسبتْ/ ولا تجعلوا اللهَ عُرْضَةً لأيمانكم أن تَبَرُّوا وتتقوا وتُصْلِحوا بين الناس/ ولا تكونوا كالتى نقضتْ غَزْلَها من بعد قوةٍ أنكاثًا تتخذون أيمانكم دَخَلا بينكم أن تكون أُمَّةٌ هى أَرْبَى من أُمَّة (أنْ + فعل مضارع: مفعولا لأجله)"، "يومَ + فعل مضارع (بدون "أن" قبله)"، "الرجال والنساء/ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة. . ./ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض/ قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم. . . وقُلْ للمؤمنات يَغْضُضْن من أبصارهن. . ./ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات. . . (بإيراد المذكر قبل المؤنث)"، "يَهِدّى، يَخِصّمُون (بدلا من "يهتدى، يختصمون)"، "هُودًا (بدلا من "يهودًا")"، "نِعِمَّا يَعِظُكم به (بدلامن "نِعْمَ ما يَعِظُكم به")".

ومن هذه التراكيب أيضا أمر الله لرسوله بـ"قل"، وقد تكرر هذا كثيرا جدا فى كتاب الله، وكذلك القسم بعناصر الطبيعة: "والذاريات ذَرْوًا * فالحاملات وِقْرًا * فالجاريات يُسْرًا. . ."، "والطُّور * . . . * والسقف المرفوع * والبحر المسجور. . ."، "والنجم إذا هَوَى. . ."، "فلا أُقْسِم بمواقع النجوم. . ."، "كلا والقمر * والليل إذ أَدْبَر * والصبح إذا أَسْفَر. . ."، و"المُرْسَلات عُرْفًا * فالعاصفات عَصْفًا. . ."، "فلا أقسم بالخُنَّس * الجوارى الكُنَّس * والليل إذا عَسْعَس * والصبح إذا تنفَّس. . ."، "فلا أُقْسِم بالشَّفَق * والليل وما وَسَق * والقمر إذا اتسق. . ."، "والسماء ذات البروج"، "والسماء والطارق"، "والسماء ذات الرَّجْع * والأرض ذات الصَّدْع"، "والفجر * وليالٍ عَشْرٍ * . . . * والليلِ إذا يَسْرِ"،

"والشمسِ وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طَحَاها . . ."، "والضحى * والليل إذا سَجَا . . ."، و"التين والزيتون * وطُورِ سِينِين. . ." . وهذا الملمح الأسلوبى محصور فى السور المكية القصيرة.

وهناك أيضا حذف جواب القسم وجواب "لولا" فى بعض الأحيان، مثل: "لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة * أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامَه؟ * بلى قادرين على أن نسوىَ بَنانَه"، "والسماءِ ذاتِ البروج * واليومِ الموعودِ * وشاهدٍ ومشهودٍ * قُتِلَ أصحابُ الأخدود"، "والفجر * وليالٍ عَشْر * والشفع والوتر * والليل إذا يَسْرِ * هل فى ذلك قَسَمٌ لذى حِجْر؟ * ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ؟"، "ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم * إن الذين جاؤوا بالإفك عصبةٌ منكم. . ."، "ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم * يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان. . ."، "ولولا أن تصيبَهم مصيبةٌ بما قدَّمَتْ أيدهم فيقولوا: ربنا لولا أرسلتَ إلينا رسولا فنتَّبِع آياتِك ونكونَ من المؤمنين * فلما جاءهم الحقُّ من عندنا قالوا: . . ." . ومثله حذف الطرف الثانى من "أَفَمَنْ. . . (كَمَنْ. . .) ؟: "أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً. ؟"، "أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ؟"، "أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا ؟"، "أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ؟"، "أَفَمَنْ يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟" .

وهناك أسلوب "إذ"، التى تأتى فى بداية موضوع أو قصة ما مسبوقة بـ"واو" أو عارية عنها . ويفسرها المفسرون بـ"اذكر" . ولعل أقرب شىء إلى معناها هو "إليك هذا الموضوع لتتمعن فيه" . وهذا الأسلوب لا وجود له فى الحديث الشريف ولا فى الشعر أو النثر العربى

فى حدود علمى: "وإذ قال ربك للملائكة: إنى جاعل فى الأرض خليفة"، "وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ، فأتمَّهُنّ"، "وإذ قالت أمة منهم: لِمَ تعظون قوما اللهُ مُهْلِكُهم أو معذِّبُهم عذابا شديدا ؟ قالوا: معذرةً إلى ربكم، ولعلهم يتقون"، "إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت، إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين".

والملاحظ فى تعامل القرآن مع فعل البدل أنه يستخدم الباء مع المتروك، وهذا هو الغالب، أو يستخدم "مكانَ. . ." أو "خيرا من" أو "من بعد" عوضا عن الباء، أو لا يستخدم شيئًا بالمرة مكتفيا بجعل المبدل مفعولا أول والمبدل منه مفعولا ثانيا، أو يذكر المتروك فحسب.
ومن السمات أيضا أنه يُذَكِّر الفعلَ المسندَ إلى كلمة "عاقبة" فى كل المرات تقريبا كما فى المثال التالى: "فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ". ومنها هذا التركيب المقصود به تمجيد الله رب العالمين: "تبارك اللهُ/ تبارك الذى. . ."، "سبحان الله"، "جعل + فاعل + مفعول أول + مفعول ثان"، "جعل + فاعل + مفعول به"، أى أنها قد أتت متعدية لمفعول واحد ولمفعولين اثنين جميعا، لكنها لم تأت لازمة من أخوات "كاد" فعلا من أفعال الشروع، "لا + جُنَاح + على + مجرور بحرف الجر"، "عَلِمَ/ شَهِد + فاعل + إنّ (بكسر الهمزة) + اسم إن + لَـ. . .".

ومن تلك السمات الإتيان بعد "ولو" بالحد الأعلى من الشىء: "ولأَمَةٌ مؤمنةٌ خير من مشركةٍ ولو أعجبتكم"، "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة"، "فلن يُقْبَلَ من أحدهم ملءُ الأرضِ ذهبًا ولو افتدى به"، "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم"، "كونوا قوامين بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدَيْن والأقربين"، "لا يستوى الخبيث والطيّب ولو أعجبك كثرةُ الخبيث"، "فيقسمان بالله إن ارتبتم: لا نشترى به ثمنًا ولو كان ذا قُرْبَى"، "وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى"، "ولن تُغْنِىَ عنكم فئتُكم شيئًا ولو كثرتْ"،

"أفأنت تُسْمِع الصُّمَّ ولو كانوا لا يسمعون؟"، "أفأنت تَهْدِى العُمْىَ ولو كانوا لا يبصرون؟" . . . إلخ.

ومن سمات القرآن الأسلوبية كذلك أسلوب "أفرأيتم. . ."، الذى لا يرد إلا فى مواطن الخصومة مع الكفار فى الفترة المكية أو تقريعهم: "أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ * فإنهم عدوٌّ لى إلا رب العالمين"، "أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ من دون الله إِنْ أَرَادَنِى اللَّهُ بِضُرٍّ هل هنَّ كاشفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هل هُنَّ مُمْسِكَاتُ رحمتِه؟"، "أفرأيتم اللات والعزى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى؟ * ألكم الذكر وله الأنثى؟"، "أفرأيتم ما تُمْنُون؟ * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟"، "أفرأيتم النار التى تُورُون؟ * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون؟" . . . وهلم جرا.

ومن سمات الأسلوب القرآنى فى غير قليل من الأحيان حذف فعل القول وإيراد كلام الأشخاص ضمن حكاية الأحداث مباشرة كما فى قوله تعالى مثلا: "وإذ أخذْنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ: خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا"، "وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمنا و: اتَّخِذوا من مقام إبراهيم مصلًّى"، "فأما الذين اسودَّتْ وجوهُهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟"، "ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت، والملائكة باسطو أيديهم: أخرجوا أنفسكم. اليوم تُجْزَوْن عذاب الهُون. . ."، "ولو ترى إذ يتوفَّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهم وأدبارَهم و: ذوقوا عذابَ الحريق"، "حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون: * لا تجأروا اليوم. إنكم منا لا تنصرون. . ."، "فلما رآها تهتزّ كأنها جانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ: يا موسى، أقبل ولا تخف. إنك من الآمنين"، "ولو ترى إذ المجرمون ناكِسو رؤوسهم عند ربهم: ربنا، أبصَرْنا وسمعنا، فارْجِعْنا نعملْ صالحا"، "وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدَّرنا فيها السير: سيروا فيها ليالىَ وأيامًا آمنين"، "واذكر عبدَنا أيوب أنى مَسَّنِىَ الشيطانُ

بنُصْب وعذاب: * اركض برجلك. هذا مغتَسَلٌ باردٌ وشرابٌ"، "وعندهم قاصراتُ الطرْف أتراب: * هذا ما توعَدون ليوم الحساب". . .

ومن هذه السمات كذلك ندرة أسماء الأعلام لغير الأنبياء فى كتاب الله حاشا "فرعون" و"قارون" و"زيد" و"أبا لهب" و"قريش"، و"مكة" و"يثرب/ المدينة"، على عكس العهد القديم والعهد الجديد، اللذين يفيضان بالأسماء من كل لون وشكل. وهناك أيضا انعدام التواريخ على عكس الحال فى الكتاب المقدس حيث يقال إن الأمر الفلانى أو الواقعة العلانية حدثت فى عهد فلان أو علان. كذلك فحين يأتى ذكر واقعة فى القرآن الكريم نجده يقفز فوق كثير جدا من التفاصيل مركزا على الجوهر، وهو ما يختلف فيه بكل قوة مع الكتاب المقدس بعهديه الاثنين: العتيق والحديث.

ومن سمات الأسلوب القرآنى كثرة الالتفات فى الضمائر من المفرد إلى الجمع والعكس، ومن الحاضر إلى الغائب والعكس: "وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ. . . فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ"، "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا"، "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ"، "وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَفِى الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ * وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ

فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ"، "وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا"، "ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ"، "طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلا" . . . وهلم جرا.

وإلى جانب ذلك هناك حكم وأمثال قرآنية كثيرة يرددها المسلمون فى المناسبات والأحوال المختلفة. ومنها هذه الشواهد، وهى مأخوذة من سورة "البقرة" وحدها: "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ؟"، "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ"، "إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"، "تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ: لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ"، "وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا"، "وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ"، "وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ"، "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ"، "وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ"، "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ"، "لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ"، "قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى"، "يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ. وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا"، "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا".

وعودا إلى مصطفى محمود نقول: لقد أكثر، رحمه الله، من الحديث عن المعمار القرآنى كما سبق القول دون أن يقول كلاما محددا فى الموضوع. ومن قوله فى هذا الصدد: "لقد اكتشفت منذ تلك الطفولة البعيدة دون أن أدرى حكاية الموسيقى الداخلية الباطنة فى العبارة

القرآنية. وهذا سر من أعمق الأسرار فى التركيب القرآني. إنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالكلام المسجوع، وإنما هو معمار خاص من الألفاظ صفت بطريقة تكشف عن الموسيقى الباطنة فيها". ولكن عبثا تحاول أن تقع فى كلامه على شىء يوضح لك معنى هذا "المعمار القرآنى"، فالدكتور رحمه الله يكتفى بالكلام الإنشائى والثناء الجميل على القرآن المجيد دون أن يشرح لنا علام يقوم هذا المعمار. إنه مجرد كلام جميل يصور لنا مشاعر الرجل لكنه لا يصور لنا ذلك المعمار. وحتى لو كان قد نجح فى تصوير ما يريد من كلامه عن الموسيقى الباطنة فإن هذا لا يحل المشكلة، إذ الموسيقى ليست سوى عنصر واحد فى المعمار الأسلوبى. فما بالنا وهو لم يضع أيدينا على ما من شأنه أن يوضح لنا ما يقصده بالمعمار القرآنى؟

أما حين يتحدث عن الموسيقى الظاهرة فينقلب كلامه واضحا، فقد سبقه إلى الكلام عن تلك الموسيقى الظاهرة كل علماء العروض والقوافى. ومن هنا لم يكن عليه أن يبتدع شيئا من عنده، بل يكفى أن يشير إلى الوزن والقافية. ولكنه هنا لم يصنع للأسف شيئا غير إيراد بيت لعمر بن أبى ربيعة، وكفى، دون أن يحاول أن يوضح لنا سر الجمال فى الوزن والقافية فى الشعر.

يقول رحمه الله فى التفرقة بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة، وكأنه قد وضح لنا الموسيقى الباطنة فعلا، وهو ما لم يفعل: "وفرق كبير بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة. وكمثل نأخذ بيتا لشاعر مثل عمر بن أبى ربيعة اشتهر بالموسيقى فى شعره. البيت الذى ينشد فيه:

قال لى صاحبى ليعلم ما بى: أتحب القَتُول أختَ الربابِ؟

أنت تسمع وتطرب وتهتز على الموسيقى، ولكن الموسيقى هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام فى أشطار متساوية ثم تقفيل كل عبارة تقفيلا واحدا على الباء الممدودة.

الموسيقى تصل إلى أذنك من خارج العبارة وليس من داخلها . من التقفيلات (القافية ومن البحر والوزن)" .

نعم نحن نسمع ونطرب ونهتز على الموسيقى، ونعم هذه موسيقى خارجية. ولكن لماذا نطرب ونهتز على الموسيقى؟ لا جواب. ويتابع غفر الله له قائلا: "أما حينما تتلو: "وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى" فأنت أمام شطرة واحدة. وهى بالتالى تخلو من التقفية والوزن والتشطير، ومع ذلك فالموسيقى تقطر من كل حرف فيها . من أين؟ وكيف؟ هذه هى الموسيقى الداخلية. الموسيقى الباطنة. سر من أسرار المعمار القرآنى لا يشاركه فيه أى تركيب أدبى". وقد كرر هذا الكلام فى فصل "لماذا لا يكون القرآن من تأليف محمد ؟" من كتابه: "حوار مع صديقى الملحد" بتفصيل أكثر مع بعض التغييرات فى الشواهد .

وكما ترى لا يكاد كلام د . مصطفى محمود فى هذه النقطة أن يقدم لنا شيئًا . لكن قوله عن قوله تعالى: "والضحى * والليل إذا سجا" إنه شطرة واحدة هو كلام غريب، فنحن أمام آيات قرآنية لا أبيات شعرية، ومن ثم لا موضع هنا لذكر الشطرات. فالشطرات هى أنصاف الأبيات الشعرية، والقرآن ليس شعرا . كذلك فنحن هنا أمام آيتين هما "والضحى"، و"والليل إذا سجا" لا أمام آية واحدة، وهو ما يوضح أننا حتى لو غضضنا الطَّرْف عن خلط الدكتور بين القرآن والشعر ولم نحدث ضجة حول تسميته الآية القرآنية بـ"الشطرة" فلسوف نلفيه أيضا قد أخطأ، فنحن بإزاء آيتين لا آية واحدة. ومن ثم فلو افترضنا أننا إزاء شطرات فإن عدد الشطرات اثنتان لا شطرة واحدة. ليس ذلك فقط، إذ لدينا هنا فى هاتين الآيتين تناغم موسيقى بين "والضحى" و"سجا"، وهو ما غفل عنه الأستاذ الدكتور حين أنكر أن يكون لدينا فى النص القرآنى تقفية. ذلك أن الآيتين تنتهيان بنفس الفاصلة، وهى الألف الممدودة، وهذه الفاصلة تناظر فى ميدان الشعر والقصيد "القافية" .

ثم يمضى، رحمه الله، قائلا: "وكذلك حينما تقول: "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى"، وحينما تتلو كلمات زكريا لربه: "قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيا" أو كلمة الله لموسى:"إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى" أو كلمته تعالى وهو يتوعد المجرمين: "إِنَّه مَن يَأْتِ رَبَّه مُجْرِمًا فَإِنَّ لَه جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيى"، كل عبارة بنيان موسيقى قائم بذاته تنبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها بطريقة محيرة لا تدرى كيف تتم". وهذا معناه ببساطة أن مصطفى محمود لم يستطع أن يقدم لنا هنا أيضا سوى التعبير عن إعجابه بأسلوب القرآن. وهذا يستطيعه كل إنسان، إذ ما من إنسان إلا وفى مُكْنَته أن يقول حين يسمع القرآن: "الله. هذا جميل. هذا رائع" ما دام الأمر لا يكلفه شيئًا أبعد من ذلك.

وبالمثل لا يقدم لنا شيئًا يمكننا أن نلمسه بأيدينا حين يقول: "وحينما يروى القرآن حكاية موسى بذلك الأسلوب السيمفونى المذهل: "وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَه وَمَا هدَى". كلمات فى غاية الرقة مثل "يبسًا" أو "لا تخاف دركا" بمعنى "لا تخاف إدراكا". إن الكلمات تذوب فى يد خالقها وتصطف وتتراصّ فى معمار ورصفٍ موسيقى فريد هو نسيجُ وحدِه بين كل ما كتب بالعربية سابقا ولاحقا".

أما الكلام عن السيمفونية فهو كلام فى الهواء: فهو أولا لم يشرح معنى السيمفونية هنا. ثم لم يكتف بذلك بل لم يفكر أن يرينا وجه الشبه بين الآية الكريمة والسيمفونية. إنه مجرد كلام، والسلام. ثم هناك قوله: "إن الكلمات لتذوب فى يد خالقها"، يقصد أنها كلمات رقيقة. لكن أين تكمن الرقة فى هاته الكلمات؟ لا جواب. هى كلمات رقيقة وحسب. كذلك كيف تكون كلمة مثل "يبسا" رقيقة، وهى تدل على الصلابة والجفاف؟ ثم ما دامت الكلمات قد ذابت

فكيف يا ترى اصطفت بعد هذا وتراصت فى رصف موسيقى فريد هو نسيج وحده بين كل ما كتب بالعربية طوال تاريخها ؟ نعم كيف اتسق ذوبانٌ، واصطفافٌ وتراصٌّ؟ وأين يمكننا التوصل إلى وجه الفرادة الموسيقية فى هذا النص القرآنى العزيز؟ مرة أخرى لا يوجد توضيح ولا تحليل.

ويستمر كاتبنا رحمه الله فيقول عن القرآن "لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلى ولا بينه وبين الشعر والنثر المتأخر، ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التاريخ برغم كثرة الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن. فى كل هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماما، وكأنها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير سوى أن لها مصدرا آخر غير ما نعرف. اسمع هذا الإيقاع المنغم الجميل: "رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ"، "فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى"، "فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا"، "يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ"، "لا تُدْرِكُه الأَبصَارُ وَهوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ"، "وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىء عِلْمًا"، ثم هذه العبارة الجديدة فى تكوينها وصياغتها، العميقة فى معناها ودلالتها على العجز عن إدراك كنه الخالق: "عَالِمُ الْغيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَال"، "يُجَادِلُونَ فِى الله وَهوَ شَدِيدُ الْمِحَال"، ثم هذا الاستطراد فى وصف القدرة الإلهية: "وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغيْبِ لا يَعْلَمُها إلا هوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُها وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ". وهذا كلام جميل، لكنه ليس أكثر من كلام جميل.

ومع كلام مصطفى محمود مرة أخرى: "ولكن الموسيقى الباطنية ليست هى كل ما انفردت به العبارة القرآنية، وإنما مع الموسيقى صفة أخرى هى الجلال. وفى العبارة البسيطة المقتضبة التى روى بها الله نهاية قصة الطوفان تستطيع أن تلمس ذلك الشىء الهائل الجليل فى

الألفاظ: "وِقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِى الأَمْرُ". تلك اللمسات الهائلة. كل لفظ له ثقل الجبال ووقع الرعود. تنزل فإذا كل شيء صمت، سكون، هدوء، وقد كفت الطبيعة عن الغضب ووصلت القصة إلى ختامها: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِى الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ". إنك لتشعر بشيء غير بشرى تماما فى هذه الألفاظ الهائلة الجليلة المنحوتة من صخر صوان، وكأن كل حرف فيها جبل الألب. لا يمكنك أن تغير حرفا، أو تستبدل كلمة بأخرى، أو تؤلف جملة مكان جملة تعطى نفس الإيقاع والنغم والحركة والثقل والدلالة. وحاول وجرب لنفسك فى هذه العبارة البسيطة ذات الكلمات العشر أن تغير حرفا أو تستبدل كلمة بكلمة".

ويلفت النظر قوله، غفر الله له ولنا، عن الآية التى تصف انتهاء المطر والسيول على عهد نوح عليه السلام: "كل لفظ له ثقل الجبال ووقع الرعود. تنزل فإذا كل شيء صمت، سكون، هدوء، وقد كفت الطبيعة عن الغضب ووصلت القصة إلى ختامها: "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِى الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ". إنك لتشعر بشيء غير بشرى تماما فى هذه الألفاظ الهائلة الجليلة المنحوتة من صخر صوان، وكأن كل حرف فيها جبل الألب".

لكن كيف فات مصطفى محمود أن كلامه عن وقع الآية على النفوس لا يتسق مع المعانى التى تحملها، فهى تصور انتهاء السيول وتشرُّب الأرض ماءها واستواء السفينة على الجوديّ فى حين يرى هو فى ألفاظ الآية الكريمة معانى الرعود والصلابة والصخر الصوان وجبل الألب؟ ترى كيف يكون لكل لفظ من ألفاظ هذه الآية التى تشيع السكينة والأمان ثقل الجبال ووقع الرعود؟ إنها، على العكس، توحى بالاطمئنان والابتهاج.

ومع ذلك كله فنحن فرحون بقدوم مصطفى محمود إلى الإسلام بدلا من الشك الذى ذكر فى كتابه المشهور: "رحلتى من الشك إلى الإيمان" أنه كان شعورا مزعجا عصيبا لا يقوى على احتماله، وبدلا كذلك من عداوته لدين محمد . ورغم هذا ففى فصل "لماذا لا يكون محمد هو مؤلف القرآن؟" من كتابه: "حوار مع صديقى الملحد" نراه يفصل القول فى هذا المعمار فيقف عند بعض العبارات والتراكيب القرآنية واستعمال صيغة معينة أو حرف مخصوص هنا واستعمال غيرهما فى سياق آخر مبينا السبب البلاغى فى ذلك، مما يقتنع الإنسان بمعظم ما جاء فيه: فمثلا لِمَ يُذْكَر السمع فى الآيات القرآنية دائما قبل البصر؟ ولم استُعْمِل الزمن الماضى فى الحديث عن أحداث يوم القيامة؟ ولماذا قال الله تعالى: "ويسألونك عن الجبال، فقل: ينسفها ربى نسفا" مستخدما "الفاء" قبل "قُلْ" بينما فى المواضع الأخرى جاء ذلك الفعل بدون تلك الفاء؟ ولماذا فى آية عقوبة السرقة سبق السارقُ السارقة، على حين فى آية عقوبة الزنا سبقت الزانية الزانى فى قوله عز شأنه فى الآيتين التاليتين على الترتيب: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما . . ."، "الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة. . ." . . . وهكذا . وهذا تطور هام يحسب له بعدما رأيناه يكتفى، عند تناول هذا الموضوع فى أول كتاب يتعرض فيه للقرآن، بالكلام العاطفى الإنشائى الذى لا قيمة له كما وضحنا .

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض

من مواليد قرية كتامة الغابة بمحافظة الغربية – مصر فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م

تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م

حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م

أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس

البريد الضوئى: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين

المتنبى– دراسة جديدة لحياته وشخصيته

لغة المتنبى– دراسة تحليلية

المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)

المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية – منهج جديد

عنترة بن شداد– قضايا إنسانية وفنية

النابغة الجعدى وشعره

من ذخائر المكتبة العربية

السجع فى القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغانى- مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصول من النقد القصصى

سورة طه- دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين- دراسة نقدية لرواية "العار"

مصدر القرآن- دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى

نقد القصة فى مصر من بداياته حتى١٩٨٠م

د . محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

ثورة الإسلام- أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)

مع الجاحظ فى رسالة "الرد على النصارى"

كاتب من جيل العمالقة: محمد لطفى جمعة- قراءة فى فكره الإسلامى

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية- خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد فى الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

سورة يوسف- دراسة أسلوبية فنية مقارنة

سورة المائدة- دراسة أسلوبية فقهية مقارنة

المرايا المشوّهة- دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة

القصاص محمود طاهر لاشين- حياته وفنه

فى الشعر الجاهلى- تحليل وتذوق

في الشعر الإسلامي والأموي- تحليل وتذوق

في الشعر العباسي- تحليل وتذوق

في الشعر العربي الحديث- تحليل وتذوق

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

سورة النورين التي يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم- دراسة تحليلية

منكرو المجاز في القرآن والأسس الفكرية التي يستندون إليها

أدباء سعوديون

شعر عبد الله الفيصل- دراسة فنية تحليلية

دراسات في المسرح

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

د . محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة

دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل

شعراء عباسيون

من الطبري إلى سيد قطب- دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه

القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية

اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة

محمد لطفي جمعة وجيمس جويس

"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع- قراءة نقدية

لكن محمدا لا بواكي له- الرسول يهان في مصر ونحن نائمون

مناهج النقد العربي الحديث

مسير التفسير- الضوابط والمناهج والاتجاهات

"الأدب العربى- نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزى)

بشار بن بُرْد- الشخصية والفن

الحضارة الإسلامية- نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ

فى التصوف وأدب المتصوفة

النساء فى الإسلام- نَسْخ التفسير البطرياركى للقرآن (النص الإنجليزى مع دراسة موازية)

الإسلام الديمقراطى المدنى- الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين فى أرجاء العالم)

محاضرات فى الأدب المقارن

من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة

ست روايات مصرية مثيرة للجدل

هوامش على "تاريخ العرب" لفيليب حتى

أفكار مارقة- قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب

موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين- مع "قسمة الغرماء" ليوسف القعيد و"تيس عزازيل فى مكة" ليوتا

"القرآن والمرأة" لأمينة ودود- النص الإنجليزى مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية

عبد الحليم محمود- صوفى من زماننا

د . ثروت عكاشة- إطلالة على عالمه الفكرى

ثروت عكاشة بين العلم والفن

في تحليل النص القرآنى (دفاعا عن الكتاب الكريم)
من الأدب المقارن فى كتابات طه حسين- نصوص وتحليلات
خواطر على الخواطر (مع الشعراوى فى تفسيره)
معَ روايتَىْ "عذراء الهند" لأحمد شوقى و"ربما يأتى القمر" للسعيد نجم (نقد قصصى)
جولة فى كتاب مصطفى محمود: "القرآن- محاولة لفهم عصرى"
علاوة على الدراسات المنشورة فى المواقع المشباكية المختلفة

==

فهرست الكتاب